
ناهدة جابر جاسم
العيش على الصراط
رواية
بيوغرافيا
ألف ياء
Alf Yaa

العيش
على
الصراط

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: ناهدة جابر جاسم
الكتاب: العيش على الصراط ـ رواية
صدرت النسخة الرقمية: تشرين الثاني / نوفمبر 2026
الطبعة الأولى 2024، مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa»ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ناهدة جابر جاسم

العيش على الصراط

رواية

بيوغرافيا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الإهداء

إلى أمي وأبي
ورفيق تجربتي سلام عبد إبراهيم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الفهرست

القسم الأول.....9
الطفولة.....11
يوم أسود.....15
أول الطريق.....19
عنفوان الحب والمقاومة.....29
العيش على الصراط.....35
القسم الثاني.....49
الالتحاق إلى الجبل.....51
الإجهاض.....71
غرفة الرفيقات.....77
شوق الحبيب لا مصد له.....83
ولادة في سجن.....91
ورشة الخياطة.....107
ليلة فقدت فيها الأمان.....117
الضحك ممنوع.....125
يوم الحشر.....131
عالم ملغوم.....163
الانسحاب إلى المجهول.....197
نحيا أو نموتْ معاً 229

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القسم الأول

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الطفولة

صحت بأعلى صوتي افتحي الباب!

ولكن الطارق كان لا يفهم لغتي!

حلم ناضلت وخسرت الكثير في تحقيقه- أن من يقدم لي المساعدة في شيخوختي! يتكلم لغتي ويفهم ثقافتي-!

كانت دنماركية شقراء الشعر خضراء العينين وبيضاء القلب من طرقت بابي لكي تسألني، إن كنت محتاجة إلى مساعدة!

نسيت موعد زيارتي مع هذه الفتاة، ملاك الرحمة بالنسبة لي ولكل من طعنت به سنوات العمر في أعوام الشيخوخة وعذاب الشعور بالوحدة القاتلة في توالي العمر، أنا القادمة من بحر دفء العائلة.

عينايّ ازدحمتا بالأسئلة لهذه الفتاة التي جاءت حسب الموعد المدون في رزنامة عملها! هي القادمة من مجتمع مرتب ومنظم بشكل لم تصله شعوبنا وحكومتنا العربية حتى بعد قرون.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

غرقت في حلم طفولتي. والطفولة هي الأساس في تكوين الشخصية وأركانها الأخلاقية والإنسانية ومنها تتحدد معالم الفرد ونظرته وكيفية تعامله مع الحياة والبشر.

رحلت إلى أيام طفولتي وصباي كان حلما جميلا، كنت جالسة في باحة البيت اسمع شَدوْ طيور أبي متأملة حياتها التي لا تشبه حياة البشر والتي كانت من إحدى أسباب رهافة إحساسي ومحبتي الشديدة والمطلقة للناس، هو حب أبي للطيور والحيوانات. ولشدة تعلقي بأبي الذي ميزني من بين أخوتي وأخواتي فكان يحمل لي وردة بين الحين والحين يقدمها لي حال دخوله البيت قادما من العمل، مناط بيّ مسؤولية العناية ببرج الطيور الخشبي المشيد على سطح بيتنا، فكنتُ أصعد عصر كل يوم أبدل أحواض الماء الفخارية الصغيرة في البرج وأطعمها الحبوب والخبز المَفتت، وعند الغروب أقوم بإدخالهم البرج الكبير. كانت الطيور تنصاع لي وتفهمني مما ولدَّ لدي شعوراً وحساً بالأمان والحب المطلق لكل شيء.

أنا البنت الثانية من عائلة تتكون من أربع أخوات وثلاثة إخوة لأم وأب ودودين و محبين للحياة والإنسان. والدي كان إنسانا بسيطا وعظيما بحنانه وطيبة قلبه وحرصه علينا رغم عدم حصوله على أي تعليم ولكن الحياة ومخاضها علمته، وجعلت منه إنسانا أحلم أن من ارتبط به ويكون شريك حياتي شبيها بطيبة قلبه وبساطته.

* * *

ترعرعت وسط عائلة حميمة ومستقرة، وضعنا الاقتصادي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

كان جيدا، لم أشعر يوماً أن شيئا ينقصني من ملبس أو مأكل أو حنان وحب ودفء عائلي. أسرة جميلة متكاملة، كان والدي متدينا بطريقة منفتحة، إنسانية حتى أنه كان يأخذنا بصحبته إلى سينمات مدينتي الصحراوية التي تشربت عذوبة ماء فراتها، لنشاهد أفلاماً اجتماعية وإنسانية، ووفر لنا بعرق جبينه أفضل مستلزمات ظروف التعليم التي حرم منها بسبب طبيعة حياته كتاجر لحوم وممول رئيسي للفرقة الأولى للجيش العراقي والتي كان مقرها في مدينتي -الديوانية- تحملَ مسؤولية عائلة كبيرة بوقت مبكر من حياته بعد موت أخويه، والحكم على ابن أخيه محمود بالسجن لمدة عشرين عاما في قضية سرقة الطابعة في عام 1963 في مدينة الديوانية القضية التي شارك بها نخبة من شباب المدينة ومنهم الشاعر الراحل علي الشباني، إذ كان يعيل عائلتيهما مضافا إلى عائلته. قضيت طفولتي وصباي سعيدة حتى أنني لا أتذكر أني في يوم خلدت إلى الفراش خائفة أو حزينة أو مكسورة الخاطر.

رحلت محلقة وبي شوق إلى جلسات ليالي الشتاء الطويلة حول المدفأة النفطية، نتحلق حولها أمي، أبي، جدتي والدة أبي وأخوتي جميعهم.. الله.. يا ليتني أعيش ليلة واحدة من تلك الليالي السعيدة، هذه الرغبة كم تبكيني لحظة الكتابة الآن وأنا أتجاوز الستين وأعيش في بلدٍ باردٍ أقصى شمال الكرة الأرضية.

كانت جدتي ووالدي يتناوبون على قص الحكايات التي ترحل بنا إلى عوالم خيالية لكنها رسخت فينا مبادئ عميقة حول الفرق بين الخير والشر وجعلتنا نحترم الإنسان كونه كائن يتوجب عليه

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أن يحب الجميع ويعمل من أجل الآخرين. حكايات كنا ننبهر بها ولكنها أبدا لم تكن بريئة. كانت ترمي إلى بناء قيم نبيلة سأشعر بأهميتها في أيام نضجي وصعاب التجربة العنيفة التي خضتها.

كان والدي رغم بساطته عميق في نظرته الإنسانية للحياة، فرغم ثقافة المجتمع العراقي الشديدة الذكورية، لأن الله رزقه بأربع بنات قبل أن يأتي الولد الأول، يعلق ضاحكاً، بأن لا فرق بين البنت والولد أبداً، وكان يعاملنا كصبيان حتى أنه كان يصحبني إلى محله في سوق القصابين المجاور إلى سوق التجار المسقوف في الديوانية وقتها، وكنتُ أساعده في تفاصيل عمله ويتعامل معي لا معاملة بنت ضعيفة بل كان يصطحبني حتى إلى حمام الرجال في السوق لكي أحرس ملابسه حينما يدخل بعد عودته من العمل ليغتسل في الحمام، وكان يوصيني على دخل-رزق- اليوم المخبوء في جيب دشداشته، مما ولدَّ في نفسي المزيد من الثقة بحيث جعلني لا أخاف من شيء فاقتحمت الحياة بعنفوان وقوة دون التفكير بهول العواقب وأنا أخوض في معترك النضال السياسي في زمن أعتى دكتاتور مرّ بتاريخ العراق الحديث.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

يوم أسود

منذُ منتصف ستينيات القرن العشرين المنصرم، دأبت أمي وعمتي على اصطحابي لزيارة أبن عمي – محمود – الذي كان يعمل مع أبي في تجارة اللحوم إلى سجن – الحلة – بعد أن حُكم عليه بالسجن مدة عشرين عاما في دعوى مشهورة أعقاب انقلاب 8 شباط 1963 حينما قام مجموعة من شباب مدينة الديوانية بسرقة مطبعة من ثانوية الديوانية أذكر منهم الشاعر والمجدد في القصيدة الشعبية على الشباني وطباعة بيان باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي وتوزيعه، فانكشفوا لكنهم في المحكمة رموا الحاكم العرفي بالأحذية مما جعل حكمهم قاسيا. كان ابن عمي مشتركا معهم.

تلك الزيارات انطبعت في ذهني، أتذكرها الآن بوضوح وكأنها جرت بالأمس. الجلوس في باحة السجن، جموع المساجين وعائلاتهم، زوجات وأمهات مُدلهات بالابن والزوج المسجون. وابن عمي الطيب الرقيق بوجهه الصابر المستسلم المبتسم وصوته المنخفض الخجول لكنه قوي،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أتذكر كل ذلك من اللحظة التي نحضر بها الأكل والشرب إلى طريقنا إلى حافلات الحلة في فجر كل خميس والطريق القديم المحاط بالبساتين والحقول، ولحظة السماح لنا بالدخول إلى المواجهة والعودة الحزينة، كل ذلك خلق في نفسي الكثير من الأسئلة التي سوف أسعى للوصول إلى أجوبتها وأجد نفسي أسلك نفس سلوك – محمود – ابن عمي الذي مات في فراشه موت ملاك وأنا هنا في منفاي الدنمركي أواخر تسعينيات القرن الماضي.

في أعقاب نكسة حزيران 1967 كما يسميها العرب وقت حكوماتهم القومية حينما هزمتهم إسرائيل في غضون ستة أيام واحتلت ما تبقى من فلسطين، أطلقت حكومة – عبد الرحمن عارف – العراقية الضعيفة سراح السجناء السياسيين، فأصبح – محمود – رمز طفولتي قريباً جدا مني إذ عاد للعمل مع أبي، وصرت أراه خصوصاً في العطلة الصيفية حينما أغبش مع أبي إلى السوق. كان يسكن على مبعدة عشرة أمتار من بيتنا، كان حميما، شديد الرقة يبكي لأقل ضرٍ يمس الإنسان. أدمن الخمرة، وفي كل ليلة يمر على دارنا وينفجر في بكاء مرّ على أقل خبرٍ فيه أذية لإنسان. أورثته سنين السجن رقة قضت عليه وهو لم يتجاوز الخمسين في عراق ظل ينحدر من درك أسفل إلى أسفل.

صارت الشيوعية عبر ابن عمي – محمود – فكرا راقيا، معنيا بالإنسان، ومع قربي من سني المراهقة وتقدمي في مراحلي الدراسية بتفوق في المتوسطة بدأت بالاهتمام الشديد في القراءة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ومن الطريف في هذه القصة أن من وفرَّ لي الكتب في تلك الفترة شخصية من أطرف شخصيات الديوانية سائق سيارة (أو أم OM) على طريق بغداد – الديوانية (مجيد حرز) كان صديق عائلتنا وصديق أشهر عوائل المدينة إذ كان يأخذهم في دورات لزيارة الأماكن المقدسة، النجف، كربلاء وسامراء. وكان كما سأكتشف لاحقا بعد اقتراني بزوجي – سلام – أنه كان صديقا لمثقفي المدينة وشعرائها الشعبيين المشهورين في العراق وعلى سبيل المثال علي الشباني، عزيز السماوي، شاكر السماوي وكزار حنتوش، كان يحضر كل جلساتهم في البيوت، في سنوات سبعينيات القرن الماضي، كان يمتلك مكتبة دسمة فكرياً، فبدأت أستعير منه كتباً ساهمت بتوطيد أفكاري عن النضال والإنسان، منها روايات عن نضال الأنصار الشيوعيين وقت الاحتلال النازي للاتحاد السوفيتي.

كنت متوقدة، أشعلتني رواية الأم لمكسيم غوركي وتخيلت نفسي تلك الأم المناضلة التي تتابع ابنها الذي تدله في السياسة رغم ترعرعه في عائلة ممزقة، أباه سكير يضرب أمه، حلّت بروحي روح الأم المناضلة، فعدت لا أرى شيئا سوى درب النضال من أجل تحقيق حلم الإنسان في وطن عراقي حر وشعب سعيد، شعار كنت أقرأه على الصفحة الأولى من جريدة – طريق الشعب – العلنية بعد إعلان الجبهة الوطنية في 17 تموز 1973. عدا الروايات الإنسانية كروايات تولستوي ودستويفسكي التي أمدتني ببعدٍ ثقافي عميق سوف يتوارى طويلًا في خضم التجربة السياسية العنيفة التي خضتها، ـ لكنه أمتلك كياني في خريف العمر وأنا في منفاي الاسكندنافي..

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أول الطريق

كنت في الصف الخامس الإعدادي حينما دخل بيتنا ابن عمي – حاكم – في أواخر عام 1977 وانتحى بي جانبا بعيدا عن أخواتي وأمي ليعطيني كراساً صغيراً ويقول:

- نهودة هذه مجلة الحزب التنظيمية!

كان كراس (مناضل الحزب). وحاكم هو الأخ الأصغر لمحمود.

ودأب بعدها على توصيل الكراس لي. وكأن الأمر مكرس عائلياً لكسبي لصفوف الحزب الشيوعي العراقي، كما أتصل بيّ صالح حبيب أبن خال أبي والذي كان عضواً في تنظيمات الحزب في تلك الفترة.

ومن خلالهم وتدلهي بالقراءة دخلت في دهاليز السياسة وعالم قراءة الفلسفة وموضوعها الملتبس في التنقيب في معنى الحياة والوجود والوعي والكون الغامض والطبيعة والإنسان، وسؤال لم يجب عليه بشكل قاطع لا فيلسوف ولا عالم فضاء.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- من يدير الكون وينظمه ويرسم حياة البشر؟

شغلني الأمر ونهلت من كتب الماركسية أعمقها، فقرأت عدة مرات كتاب فريدريك أنجلس (أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) كنت في سن مبكرة أذهلني الكتاب، ماذا؟ كلمة أذهلني لا تعبر عما فعله بنفسي. رأيتني الأنثى التي كنت أمتلك الحق الأُمومي والذي كان المولود المترعرع في رحمي باسمي، انتزعه الرجل حينما صرنا ربات بيوت. صرت شبه مهووسة في البحث عن كينونة الإنسان بشكل عام والمرأة بشكل خاص بعد قراءة هذا الكتاب.

من هنا وبعد هذا التراكم المعرفي والحسي، بدأت ثورتي وتمردي على المجتمع العراقي وتقاليده التي تحتقر المرأة في مجتمع ثقافته ذكورية بحتة. كان تمردي يعتبر شاذا لا يتوافق مع المجتمع العراقي المحكوم بتقاليد أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة على حسب رأي علي الوردي المفكر العراقي الكبير.

وجدت نفسي في آخر المطاف انفرد عن بقية أخوتي وأخواتي، مقتربة من زميلات دراستي الفقيرات فعكفت على لبس رداء المدرسة الموحد ورفضت تجديده كل عام وهذا ما يفعلنه بنات الطبقة المتمكنة وأخواتي كذلك كي أكون قريبة من زميلاتي الفقيرات وهمومهن وأفكارهن.

لازلتُ أتذكر وجه زميلتي السمراء وصدريتها التي تغير لونها من النيلي الغامق إلى الرمادى بسبب كثرة استهلاكها ورائحتها التي تزكم الأنف في المرحلة الابتدائية على ما تسعفني به ذاكرتي في الصف الرابع الابتدائي. اسمها -أحلام-

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منحدرة من عائلة مسحوقة اقتصاديا، تسكن في بيت للإيجار مع عوائل عديدة. كنت أخذها إلى حمامات المدرسة بعد ما تؤنبها المعلمة -مندوبة- على عدم نظافتها وشعرها الذي كان يسري القمل به، كانت الطالبات ترتعش خوفا منها لقسوتها.

في الصف الخامس الإعدادي أي في عام 1978 أحسست أن صراعي مع قيم المجتمع والعائلة وصل إلى حدود التقاطع. كنت أشعر لا لست أشعر فحسب بل كان الأقرب ليَّ في خضم صراعي ذاك مع الجميع هو أبي الذي كان فخوراً بي.

تعمقت علاقتي مع الأكثر فقرا من زميلاتي في الصف. كنت أشعر بقربهن لي وهذا ما جشمني عناء العمر الذي أحببتـه والذي أعيشه لحظة الاغتراب تلك.

تصاعد تمردي مع توالي الأيام. صرت كتلة متماسكة مرنة ومحاورة لكل من يشكك بحلمي بوطن حر وشعب سعيد يمر عبر مقاومة فكر البعث القومي الضيق المعنى.

والدي في وقت شبوبي ذاك الإنسان الوحيد القريبة له وأسر له بكل ما يجول في خاطري.

كما تميزت على زميلاتي في المدرسة بمشاكستي وطرحي الأسئلة الجريئة في حينها.

أسأل عن كل شيء دون خجل البنات المعروف. كنت أقضي جل وقت فراغي في المطالعة والبحث عن أجوبة للكثير من الأسئلة التي كانت تشغل رأسي كأي صبية متمردة.

قرأت كل ما وقع بين يدي من مؤلفات نوال السعداوي على

منشورات «ألف باء AlfYaa»

سبيل المثال "المرأة والجنس" "الرجل والجنس" كتاب حول موضوعة "الاغتصابات" كنت مشتعلة بالأسئلة والبحث عن أسرار الحياة والكون والخلق وعلاقة المرأة بالرجل.

تتوجَ بحثي وشغفي في المعرفة وتمردي على السائد من تقاليد ومفاهيم بالية بوقوعي في غرام أخ صديقة لي في مرحلة الثانوية وكانت من عائلة شيوعية. عشقته من خلال ما كانت ترويه لي أخته من رقة قلبه ومعاملته الحانية معها وانكسار خاطره من حبيبة كانَ يظنُ بها ستكون رفيقة عمر ولكنها هُزمت من أول معركة صادفتها في العائلة، حالها حال أي فتاة في المجتمع الشرقي المغتصب لحقها في اختيار الزوج المناسب لها.

كانت أخته تروي لي الصغيرة والكبيرة عن عائلتها حتى أصبحت كأنني واحدة من أهل البيت أعرف أسرار العائلة.

كما تعرفت على أخوها الأخر-كفاح- الذي كان شعلة من الحيوية و الطهرانية ما سحرني وجذبني أكثر عيناه الواسعتان السوداوان، العميقتان. أصبحنا صديقين حميمين نتبادل الأفكار والمعرفة. الجميل في تجربة علاقتي به كنا نتحاور في كل كتاب ننتهي من قراءته، مثلا كتاب رأس المال لكارل ماركس الألماني قرأناه في نفس الوقت و تحاورنا، يا لِجمال تلك الحوارات.

منذُ ذلك الوقت فهمتُ ماذا يعني رأس المال وماذا تعني القيمة وفائضها، تعلمت الكثير وبعمق جعلني متماسكة وشديدة في القرار في مواقف الحياة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كان كفاح من معدن خاص من البشر كان في العشرين من عمره وكنتُ بنت الثامنة عشر شمعة لم نفكر قط بكوننا رجل وامرأة بل كنا ننغمر بالحوار والكلام والحديث كشخصين جادين يبحثان عن حلول لمشاكل العالم والحياة والناس، احترمنا وأحببنا بعض في علاقة إنسانية صافية. يا صديقي كفاح، يا رفيق التجربة والمعرفة والمخاض.

يا رفيقي الشهيد أصلي لك، يا شهيد حلمنا و كفاحنا من اجل مدينة فاضلة عادلة تنصف البشر وتساوي بينهم. كنت صديقاً أحبه وأكن له عميق المشاعر الحارة والاحترام.

يا صديقي.. ها أنا أراك أمامي حاضرا وأنا اكتب فأقول لك كما تجسدت لقد أصبحت عماً لولديَّ وبنتي وأنتَ لا تدري.

كان الحي الذي ترعرعت به وتشربت بمفاهيم العدالة الاجتماعية عامراً بالمحبة والألفة والأمان.

في إحدى نَهارات شهر آب القائظ في عام 1978 كنت في زيارة لصديقتي سلمى لتسوية سوء فهم حصل بيننا. طلَ علينا أخوها الأكبر خارجا من غرفته التي كان بابها يتوسط الجدار الفاصل لصالة الدار،

عرفتُ لاحقا أن نبرة صوتي ما حفزه أن يخرج من صومعته ويلقي السلام علينا مقتحما بعينيه الساحرتين عينيّ أثناء مروره وابتسامة خفيفة على شفتيه المكتنزتين المرسومتين بتناسق دقيق مع قسماته الجميلة. لا أعرف ماذا ألمَّ بيَّ في تلك اللحظة؟

ارتبكت وارتجف كُليّ وكأن صاعقة من السماء ضربتني

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بصمت وسط عائلته، أسرعتُ بوداعهم وغادرت. وما أن أغلقتُ باب بيتهم حتى شعرتُ بنفسي تغيرت، عدت مسلوبة اللب ولم أعد ما كنته قبل رؤيته. باختصار وقع في قلبي وانتهيت.

ما أن هبط الليل وخلدت أمي وأبي وأخوتي إلى النوم، ازداد قلبي ناراً واضطرم، لم اعد قادرة على التركيز في كتاب كنتُ أطالعه، لم أستطع النوم ولا التفكير، أخذت أدور في غرفة الضيوف من طرفها إلى طرفها.

غامرت، اتصلت بصديقتي وطلبت أخوها الكبير، تحججت بموضوع سوء الفهم الذي حدثَ بيني وأخته وتجرأت طالبةً اللقاء به، شعرت برجفة صوته عبر أسلاك الهاتف وخيل اليْ أن قلبه يردد:

- من اين ظهرت لي يا جنية أحلامي.

وهذا ما جرى في اليوم التالي بالضبط ونحن ندور في شوارع محلة العروبة في الغروب البعيدة عن محل سكننا.

عشت معه نسيج حياة، لهفة لقاء، انتظار، رسائل غرام، أسرار، خوف من الأهل والناس، مواعيد في أمكنة بعيدة، أشجان، بوح، تسلل في عصاري وتخفي عن أنظار المارة من الناس خوفا من اكتشاف علاقتي به.

أول جملة قلتها له.. أسمعني بروحك يا رجل! أنا صبية ليست لديَ أسرار وخبايا ولكنني عاشقه مجنونه.

روحي أبحرت في محيطات المعرفة والبحث عن اليقين

وتسلقت كل جبال الهم والحياة حين ألتقيتكَ في زحمة الحياة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وشحة الحب وخوف البنات من إعلان حُبهنَّ لِمنْ أحببنَّ

سألني عن تاريخ ميلادي؟

أجبته

- لا أعرف - قد أكون ولدت منذ عشرة ثواني! منذ خلق الطبيعة! الانفجار الأول! ولكن عليك أن تتيقن من إنني ولدتُ حينَ التقتْ عيناي بعينيكَ اللتين لم ولن تعثر على امرأة تحسهما كما انا.

- قال طيب يا صبيتي، أريدك رفيقة لعمري وروحي المبعثرة وذهني الداعر وقلبي الذي خاب من يقين اسمه الحب وتعب من فقد الأحباب!

- أجبته بعيوني وبقلبي الغض وروحي الطفلة بالتجربة والحياة! قبلت بكَ وأريدكَ كما أنت عاريا وبدون رتوش! ولكني يا حبيبي أريد أن أعيش حياة الطيور لا كحياة البشر! وأن مُت أريد أن أموت واقفة كالأشجار!

عارية في الخريف

ومخضرة في الربيع

ومانحة الظل في الصيف

و مرتدية أثواب بيضاء في الشتاء

أنا حمامة تغني حين تريد تناغي حبيبها وتزق طفلها

صامتة في عشها حين يعتريها البرد والوحشة

أحسست بعينيه كان معي ولي، حضنته وخدرني عبق رائحته

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

التي بت أشمها أينما حللت.

وقلتُ له:

أنا وأنت توأمان

كالصحو والسكر توأمان

روحي الطفلة المتجددة توأم لجسدك العذب، لروحك وخيالك الذي أنهكته نساء الوهم والنزوات العابرة

نحن الاثنان توأمان

كالفرح والحزن توأمان

كالحياة والموت متلازمان

كالجد واللعب رفيقان

أنا حضنك الذي يطعمك الدفء والأمان

كما أنت دنياي

لأنت الكلمة وأنا وترها الذي يمنحها اللحن الذي يناغي كل قلوب البشر خيبة، خسارة، فرح، سعادة، حلم، نجاح، فشل!

ولكن هل يوجد أبلغ من فرح روحي حين يكون توأما لحزن قلبك؟

كان مرتبكاً، خائفاً، قلقاً.!

غير واثقٍ. متأملاً. حائراً

.. متردداً...خسر الكثير...ولكني أيقنت انه كان عاشقا وباحثا عن حبيبة ورفيقة عمر تحتويه كله بخساراته وذنوبه ودُعره.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أربكني أنا الصبية التي كنت كالوردة التي تبحث عن نبعٍ يرويها، المهرة الجامحة الراكضة في حقول الإنسان والحب والباحثة في الفضاءات و الحقول والبراري التي لا تحدها حدود. رقصت وطربت روحي وقلت هذا هو ضالتي التي أضناني البحث عنه في قصص وروايات الحب وحديث الصبايا الخائبات.

رقصت روحي، طارت في سماوات وفضاءات العشق والحبيب المستحيل!

قلت تعال يا حبيبي أغفو في حضني الدافئ... ومن لحظتها أقسمت مع نفسي سأحارب كل العادات والتقاليد.. لا بل الكون وما يحتويه من ممنوعات.... لأنني كنت أشعر بانتصار وسعادة لا يفهمها من كان حولي بالعثور على مكمل لروحي المتمردة الجامحة، الفتية والحالمة بالحب والصدق المطلق، الحبيب المطلق. طرت فرحا وأمعنت في كسر جدران كل الممنوعات التي رسمتها العادات والتقاليد التي كنت أشعر بها عثرة في طريق حريتي وخلاصي من عبودية مجتمع بدوي. كان كياني عبارة عن ثورة لا تحدها حدود.

ووجدت به فارسي الذي رسمته في خيال روحي التي كانت لا تعرف معنى الخوف أو التنازل، روحي التي كانت لا ترسمها حدود سوى حدود العطاء والمنح المطلق لمن عشقت.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عنفوان الحب والمقاومة

شعرتُ في لحظة عثوري عليه انه الشخص الذي يجعلني سعيدة تماما في أعماق روحي حتى لو كنت أموت جوعاً أو فقراً معه في أشّد ظروف الحياة قساوة وهذا ما حصلَ في خضم التجربة التي عشتها معه. كنت قوية الروح، شديدة المراس ومُحبة ولكنني بسيطة وعنيدة.

بالرغم من صغر سني وقلة تجربتي وخبرتي في الحياة عرفتُ ما كنت أريد حين التقيته، كانَ رجلا تمكنَ من كلَ كياني ومشاعري، منحني حباً متدفقاً ومنحته خلاصة روحي.

قلت لحبيبي في إحدى اللقاءات بأنني لا أستطيع كتمان قصتنا عن أمي، فاعترض بشدة لكنه قال الخيار لك لكن إذا ضايقتك وأحالت حياتك بالبيت جحيما لا تشتكين لي، أخبرتها فدخلت في صراع محتدم مع أمي بعد أخبارها بعلاقتي فأصبحت حياتي جحيماً لا يطاق، أطبقت أمي الخناق على حرية حركتي، أدخلتْ قفلاً صغيرا في جهاز الهاتف وكان وقتها من النوع الذي به

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قرص دوار حتى لا أستطيع استخدامه، كانت تبقى جالسة على الكرسي المقابل لي في الصالة، حينما أسهر الليل مبحرة بالقراءة في كتب الفلسفة أفلاطون، هيجل، وماركس وانجلز وروايات من الأدب العالمي المترجم وقصص مقاومة الأنصار السوفييت في الحرب العالمية الثانية، أمي التي كانت ترى العالم كما يفرضه المجتمع والتقاليد كيف لها أن تستوعب أنني عاشقة وعثرت على صنو حياتي!

حاربتُ على جبهاتٍ عدة من معارضة أمي الشديدة والتي قاطعتني حتى بعد أن تزوجت من حبيبي الذي كانت أمي تشكُّ بصدقه كما كانت تردد:

- شنو يعني حُب.. هذا يلعب عليچ ويعوفچ.

وأهله أيضاً حاربونا وخصوصا والدته الذي كانت تحلم وتخطط لزواجه من ابنة أختها.

فعلتُ ما كان قلبي يدلني عليه. تزوجت الإنسان الذي كنت أحلم بالسفر معه لمشاهدة العالم وهذا ما سيتحقق لاحقاً بعد نجاتنا من ميتات أكيدة في ظروف الدكتاتور والنضال المسلح بالجبل، أريد أن أشبعه دلالاً، أطبخ طعامه، أنجب منه، أشاركه الحياة بحلوها ومرها، وأناضل معه من أجل وطن حرٌ وشعب مرفه سعيد.

فعلتُ بالعكس تماما مما كانت أمي تريده مني، وهذا ما أوقعها في تساؤل وحيرة، فكيف أكون سعيدة وأنا عملت شيئاً خطيراً، والحب شيء خطير ومعيب في الأعراف العراقية، حينما اتبعت قلبي وعقلي ضاربةً تحذيراتها ونصائحها عرض

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الحائط ومقاومة حربها المستمرة داخل البيت، والتعلق بإنسان لا ينسجم مع ما كانت تحلم كأي أم لأبنتها الذكية والنادرة.

فعلتُ ما لم تفعله الكثير من الفتيات اللواتي يدّعينَّ التحرر. عشقتُ، قاومتُ ضغوط أمي الهائلة. تحديتُ المجتمع وتقاليده المزيفة و أوغلت بكسر الحواجز والممنوعات ومحرمات الأعراف الاجتماعية التي لم أكتفِ باحتقارها بل تمردتُ عليها هي مغامرة خطيرة في المرتبة الأولى لأنها مسؤولية كبيرة وعظيمة أن أكون أنا نفسي وما يريده قلبي في مجتمع مغلق وعائلة محافظة، ظروف تسحق المرأة ويمكن إلغاؤها فيه بيسر كأن تكون لا أحد، فتلغى أو تعطي نفسك وروحك إلى الله والعائلة لتتصرف بك بما تشاء مثل أي راهبة سجينة النفس إلى الممات.

لم أكن أؤمن بما تقوله وتريده أمي بل كنت أؤمن بقلبي، و بوصلتي مشاعري التي طغى عليها بكل عنفوانه. لقد امتلكني.

كنتُ شعلة من العناد والتمرد على كل ما هو سائد من عادات وتقاليد تبخس من قدر الإنسان والمرأة بشكل خاص.

في إحدى لقاءاتنا السرية والبعيدة عن أنظار الناس وعيون الرقباء، كنا نسير متشابكي الأيدي ذائبين في الحب مخدرين الحواس غارقين بمشاعر مثالية مبتهجين في أننا عثرنا على ضالتنا في الحب، نتسكع على كورنيش المدينة بطرفها الشمالي البعيد، تحيط بنا بساتين النخيل الباسقة وتعبق في المساء رائحة الشبوي الليلي، كان الشارع خالياً إلا من بعض العشاق المنزوين على حافة الشط والمتسكعين مثلنا. كنت أتأمل وجهه الودود

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وصوته الذي يبعث دفئا في النفس ووسامته التي تخطف الألباب قبل الإبصار وَشَعرهِ الداكن الطويل بعض الشيء الذي يعلن تمرده على ما هو سائد وعينيه البُنيتين وشفتيه الممتلئتين تحت شاربه الأسود وقامته الطويلة ووسامته التي ورثها من أخواله أملت رأسي إلى الوراء متحسسة عنقه بأصابعي في رفق، أغمضت عينيّ ومنحته قبلة خاطفة.

وفيما كنا غارقين في أحلامنا رأينا سيارة الشرطة تقف على مبعدة عشرين متراً ونزلَ الضابط منها متوجهاً إلى عاشقين يجلسان على حافة النهر وبدأ بالصراخ والسب والشتم وسوء الخلق، ثم قامَ باعتقالهما، فكرت بالهرب والاختباء لكن أين فمن اليمين سور بستان النخيل ومن اليسار النهر وكنا نتقدم نحو السيارة فجالت برأسي قصص الفضائح وغسل العار التي كانت جدتي تحكيها لنا وتراءى لي وجه أبي الطيب مكسوراً خائباً من الثقة التي منحني إياها متخيلة المصير الذي ينتظرني في مركز شرطة المدينة ولحظة دخول أبي عليّ، همستُ بصوت ملؤه الرعب في أذن حبيبي:

خلي نمشي بسرعة قبل وصولهم إلينا، ولكننا لم نلحق إذ توجهت السيارة نحونا، توقفت قاطعةً الطريق، نزل الضابط ليلقي التحية بهدوء على حبيبي، ويبتعد به قليلا، كان الدم قد تجمد بعروقي وأنا أحملق بفزع وهما يتبادلان الحديث، إلى أن رجع إليّ حبيبي والضابط عاد إلى مقعده في صدر السيارة، قال لي: هيا بنا، فسألته عما جرى فأخبرني بأن الضابط من حسن حظنا يعرفه عن قرب وداوم على حضور مباريات كرة القدم بالمدينة وكان حبيبي رياضياً معروفا في الديوانية، فحذره

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وأخبره بأن هنالك حملة عمت كل العراق للحفاظ على الأخلاق من التدهور كان ذلك في صيف عام 1979.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

العيش على الصراط

أُعتقل "جميل مگط" في شتاء 1984، كانت لديَ صلة خيطية به، ارتبكَ وضعي، لازمني القلق، عدتُ لا أستطيع التركيز والنومُ صارَ كالضيفِ لا يزورني إلا وجه الفجر، أستيقظُ مرهقةً شاحبةَ الوجه صباحاً، أركضُ لاهثةً إلى موقفِ حافلة نقل الموظفين للعمل.

أصبحَ وضعنا معقداً، مرتبكاً، فَقَبلَ سنتين عادَ زوجي مجازاً في أوج هجوم شرق البصرة تموز1982، كان قد أُستدعيَّ لأداء خدمةَ الاحتياط عقب ولادة أبننا البكر بخمسة وأربعين يوماً، رسخ يوم 26 آذار 1982 في ذاكرتي إلى الأبد. كنتُ جالسةً في الصالةِ؛ امرأة غادرها الصبا قبلَ قليل، بنت الواحدة والعشرين المدلهةِ بالحب وحلم المدينة الفاضلة وفي حضني صغيري "كفاح" وعمره خمسة أشهر غير مصدقةٍ عودة أبيه لنا سالما من الجبهة في أيام تتزايد فيها التوابيت الملفوفة بالأعلام العراقية، وخيم العزاء في شوارع المدينة. أقبل من باب الغرفة ووقف أمامي قلقاً، فسألته

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- ها.. حبيبي؟!

دَوَرَ عينيه بأرجاء الغرفة، بالسقف وتأمل ولـدنا المبتسم ووجهي المتسائل ثم قال جملة واضحة صاعقة أول الأمر:

- ما أرجعْ للجبهة!

جملةٌ قَلَبَتْ حياتنا تماماً.

وفعلاً لزمَ البيت الذي كنا نستأجرهُ في حي "النهضة" الواقع وقتها في طرف الديوانية الجنوبي، فبِتُّ أَزورُه معَ أبني مع حلول الظلام مثل متخفيةٍ، مغامرةً بحياتي، فكثير من الزوجات أعدمنَّ لتسترهنَّ على الأزواج الهاربين من جبهات الحرب.

بعدَ ثلاثة أشهر من التخفي التحق بالثوار الشـيوعيين في الجبال.

بقيتُ ستة أشهر كاملة أحلمُ برؤيتهِ، شم رائحته، تلمس جسده في المنام واليقظة، أبكي سراً كلما عانقت ولدنا الوحيد الذي يشبه جده "عبد سوادي" تماماً.

هوَ ليسَ هنا

الرجلُ الذي انتظرني عندَ ركنِ الشارعِ

تحتَ سماء غيومها

تتأملُ اللقاء

الجسدُ على سريرٍ باردٍ

والقلبُ يتعذب بصمتٍ.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

إلى أن في إحدى مساءات كانون الثاني 1983 جاءني صوتُ أبو غادة "حازم مرتضى" زوج أخت سلام الكبيرة "وداد" مدرستي بمادةِ الكيمياء في الإعداديةِ، عِبْرَ الهاتف يدعوني لزيارتهم وأخبرني بأن لديه مفاجأةً لي، مضيفاً أنه بعد ساعة سيأتي لاصطحابي بسيارتهِ، ستعدم السلطات في السنوات اللاحقة أبنهما الوحيد "محمد" أثر اشتراكه بانتفاضة آذار 1991 وَتَخَفيه إلى أن قبض عليه بعد سنواتٍ ثلاث، ظلَّ يمازحني طوالَ الطريق ضاحكاً، متهرباً من أسئلتي الملحاحة عن المفاجأة، مصراً على أنني سوف أراها بعينيّ، إلى أن وصلنا.

وجدتهُ في ذلك المساء الذي لا ينسى يقفُ وسطَ الصالةِ فاتحاً ذراعيه فصرختُ من بابِ المطبخِ حال رؤية قامته الفارعة وركضتُ إليهِ، غير مصدقةٍ وكأنني في حلمٍ، عانقتهُ مثل مجنونةٍ وأصابعي تتلمس كل قطعةٍ من جسدهِ، أريد التأكد بأنه حيّ وبين ذراعي، بعد فورة العناق همسَ بأذني همس عاشقٍ مدلهٍ:

- رجعتُ شوقاً لكِ ولكفاح!

ومن يومها بدأتْ رحلةٌ جديدةٌ من الرعبِ والعذابِ والقلقِ والتوترِ والألمِ، إذ اختفى في أماكن متعددةٍ، لم أعرف بعضها أولَ الأمرِ، ثم أضطرَ إلى اللجوءِ إلى بيتِ أهلهِ في "الحي العصري"، فعشنا معاً لشهرينِ.

في تلك الأيامِ شهدت "الديوانية" إعداماتٍ علنيةٍ في ساحاتها العامة لجنودٍ هاربين من جبهات الحرب مع زوجاتهم اللواتي تَسترنَّ عليهم، لا أنسى ما حييتُ الرعبَ في قسماتِ أبي، وفزع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عينيه المحمرتين وهو يخبرني بصوتٍ واهنٍ مخذولٍ عن إعدام "عماد" بن "لطيف القصاب" وزوجته بعد القبض عليها في بيت اختفاء زوجها في "حي رفعت"، أعادَ عليّ الخبر عدة مراتٍ لوحدنا وكأنهُ يعلم بأنَّ زوجي موجود بالمدينةِ وألتقيه سراً، فعلاقتي به حميمة جداً، يبدو انه لاحظَ تبدل مزاجي، كنتُ كتومةً وهو لا يتدخل بخصوصياتي، نهضتُ لأغادر إلى بيتِ أهل زوجي القريب فتبعني إلى البابِ وأعادَ الخبر معلقاً:

- بويه ديري بالچ على نفسچ وولدچ!

تحاشيتُ عينيه التواقين لضمي فيهما، عانقتهُ، حملتُ ولدي وغادرت. اضطربَ وتوترَ وضعنا والرعبُ أحتلَ الوجوه، بعد أيام أخبرني أنهُ في الليلةِ القادمةِ سيغادر إلى بغداد، وهذه المرة همس في أذني:

- إلى بيت "حسين".

وهو (عبد الحسين داخل 1953-2011) صديقٌ قريبٌ جداً، قضينا في بيتهِ أياماً من شهرِ عسلنا، يُعيل عائلتهِ المكونةِ من زوجةٍ وثلاث أخوات وأخ واحد، وحلّ في شهرِ عسلهِ في بيتنا المستأجر بحي النهضة جنوب الديوانية تاركاً فندقهُ السياحي في بغداد.

دأبتُ على زيارتهِ كل نهاية أسبوع مصطحبةً صغيرنا "كفاح" بعد انقطاعِ شهرٍ حسبَ الاتفاقِ لدراسةٍ وضعهِ في المكانِ الجديدِ إلى أن بعث لي إشارةً بالمجيء. كنتُ أرتبُ كل شيء، أموه خروجي خوفاً من الملاحقةِ، فأمرّ على عددٍ من بيوتِ الصديقات والأقارب قبل الذهابِ إلى محطة الباصات

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القاصدة بغداد.

لم يتعرف "كفاح" على أبيه في الزيارة الأولى، فانفجر باكياً حالما اختلينا في غرفتهِ على السطحِ لحظة عِناقنا متشبثاً برقبتي بيد ودافعاً أباه باليد الأخرى، لكن زيارةً بعد زيارةٍ تَعّودَ وتعّرفه فكانَ يهب راكضاً ما أن ندخل ممرَ البيتِ الطويلِ حتى ساحة الدار الداخلية الواسعة ليرتمي بين ذراعيه المفتوحتين مردداً:

- بابا.. بابا.. بابا!

وسط عيون أخوات وزوجة حسين الدامعة.

كانتْ تعصفُ بنا الأشواق وتميد، وتنسينا وضعنا عند العناق، لم نكن حذرين بالرغم من محاولاتنا قبيل التداخل فنضيع بأحشاء بعضٍ في كل خلوة، ونندم بعد ذلك متوجسين من احتمال أن تنبت ثمرة ثانية في رحمي، لكن سرعانَ ما ننسى في غمرةِ مشاعر الدفء ولحظات الأمان في بيت حسين وقت عودتي إلى الديوانية، كانَ الوقت يمرّ في يومي الخميس والجمعة مثل لمح برقٍ، فأعود منتشيه من اللقاءِ والحبِ والصداقةِ مسترخيةً، مطمئنة من عنايةِ عائلة الأصدقاء بحبيبي.

* * *

صارَ الهلالُ قمراً مرتين ودورتي لم تَهِل، بدأ القلقُ يساورني حيناً فأطمئنُ نفسي قائلةً بصمتٍ:

– متأخرة.. متأخرة بسبب وضعي النفسي المضطرب والخوف والرعب وهاجس اكتشاف أمرنا وكبسنا في اللقاءِ أو القبض عليه أو.. أو.. أكيد.. أكيد!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أبدأ بقولها بصوتٍ عالٍ كي يهدأ روعي من هولِ الأمر فلو وَقَعَ بالفعلِ سيكون الوَقع مضاعفاً لا يقلُ عن هولِ كشفنا.

أشعتُ أنه مفقودٌ في الجبهة فوحدته العسكرية لم تبعث كتاباً رسمياً بهروبه ولم يلاحق، ارتديتُ السوادَ حزناً وادعيت في دائرتي وبين الجيران أني أتابع قوائم الأسرى التي تذاع بين الحين والحين من إذاعة طهران، وأوصيتُ من حولي بالمتابعة، فلو حدث الحمل وبدأتْ بطنيَّ بالتكورِ سيكون ذلك مثل طلقةِ الرحمةِ التي لا تخطئ وسأُتَهَم إذا لم يظهر "سلام" بالزنا ويلفظني الجميع.

حجزت موعداً لدى "ماجدة العميشي" طبية نسائية، إبنة عمة أبي، من عائلة يسارية معروفة في المدينة كنتُ أراجعها في حملي الأول وولدتني في مستشفى الديوانية، أتذكر ذلك اللقاء بوضوح شديد، جاء دوري ودخلتُ أرتعد فبادرتني:

- ناهدة أش بيچ وجهچ شاحب و ترجفين!

وسألتني عن "سلام" وهل سمعتُ عنه شيئاً أثناء مساعدتها لي على الجلوس. لزمتُ الصمت وهي تستحثني على الكلام إلى أن أحسست أنها منقذتي الوحيدة في العالم من هذا المأزق الخطير، فنطقت بصوتٍ واضح لكن متردد:

- سلام ما مفقود، هارب و مختفي والتقي به سراً ولا أحد يعرف بذلك حتى أهلي، والمشكلة أني حامل، أريدك تخلصيني وإلا راح تكون نهايتنا لو ينكشف وضعنا!

تَفْهَمَتْ وضعي وتعاطفت معي لكنها رفضت أن تجري لي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

عملية الإجهاض واقترحت عليّ أن أقوم بحركات عنيفة وأتناول كمية من حبوب "الأسبرين " بكمية معينة، وأردفت وهي تتناول ورقةَ وقلم وتشرع بالكتابة:

- سأكتب لكِ أسم وعنوان طبيبة عيادتها في ساحة النصر ببغداد، تقوم سراً بعمليات إجهاض لعشيقات المسؤولين والمناصب العالية في السلطة مقابل مبالغ كبيرة!

وضعتْ القصاصة براحة كفي المفتوحة المرتجفة، ودعتها بوجهٍ شاحبٍ وصوتٍ مرتجف وأنا شاردة أتخيل ما ينتظرني من متاعب ومجهول لم أحسبهُ أبداً فيما كانت تعانقني وتربتْ على ظهري الناحلِ ورافقتني حتى باب الغرفة.

لم يفلح شيء، لا كمية الحبوب التي تناولتها، ولا التمارين العنيفة التي نصحتني بها، ولا رعب أمر الحمل المضاف إلى رعبي من كشف أمري، في جعلِ الجنين يتزحزح، فكانَ الانتظار شاقاً للقاءِ نهايةِ الأسبوع حتى أخبره بالكارثة التي حلّتْ علينا، إذ لم يبق أمامي سوى خيار مراجعة تلك الطبيبة عند زيارتي له نهاية الأسبوع.

دخلتُ عليه واجمة، شاحبة والخوف يملئ عينيّ هذه المرة ولم أجلب كفاح بصحبتي، سحبني إلى صدره هامساً:

- ماذا بكِ؟

كنت على وشكِ النحيبِ، رفعَ وجهي وحدق في عينيّ وأردف:

- هل انكشفَ أمرنا؟

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تمالكتُ نفسي بعناءٍ، سحبت جسدي من بين ذراعيه بهدوء محاولةً تخفيف وقع الخبر عليه ونطقتُ بكلماتٍ صلبة لا رجفة ولا وجل بصوتي:

- حامل!

تحشرجَ صوتهُ ولم يتمكن من النطق هاربا بنظراته نحو جدران الغرفة ونافذتها الوحيدة قبل أن يهمهم لائماً ولاعناً رغبته المجنونة شاعراً بالذنبِ،

أخبرته بالتفاصيل، ثم أخرجتُ ورقة عنوان العيادة قائلة:

- ليس أمامنا سوى إجراء العملية والمبلغ المطلوب وفرته لكن يا حبيبي من سيرافقني ويخبر الطبيبة انه زوجي وموافق على عملية الإجهاض؟

احتضنني ضاماً رأسي إلى صدره وهمس:

- سأرتب الأمر مع "حسين"!

وفعلا ما أن نزلتْ الشمس حتى جمعَ أوراق الفحص والتحاليل وخرج "حسين" قاصداً عنوان العيادة وحجز لنا موعداً في الخميس القادم لإجراء العملية مدعياً أنه زوجي.

مرَّ الأسبوع ثقيلاً كأنه دهراً، كنت اعد الأيام والساعات مستعجلةً الخلاص من محنة الجنين، أجهش باكيةً كل ليلة متأملةً وجه صغيري الذي يرقد بجانبي يداعب خصلات شعري، عادةً أدمنَها، وستظلُ معهُ عالقةً كل العمرِ وهو يفقدنا بعد سنةٍ، ألعنُ وأشتم الدكتاتور الذي أشعل الحرب وجعلَ منا ذوات خائفة ومرعوبة ومحرومة من العيش والتمتع في حياة طبيعية.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

رافقني "حسين" وزوجته "وفاء" تاركين ابني كفاح وابنتهم فيروز عندهما في البيت تعتني بهما ربيعة، الملاك أصغر أخوات "حسين".

"فيروز" سيفجعني، لاحقاً، خبر فقدانها بأحداث الحرب الطائفية 2006 ووجع أبوها الذي ظل يبحث عن جثتها بين الجثث في ثلاجات القتلى المجهولين بمستشفيات بغداد.!

انتابتني رعشةٌ شديدةٌ على السلالمِ المؤدية إلى الطابق الثالث حيث العيادة. وظللتُ مرعوبةً أرتجفُ في دقائقِ انتظار دوري أحملقُ في وجوه الشابات اليافعة الشاحبة الكامدة المنتظرات أخت لهنَّ أو صديقة خروجها من غرفة العمليات، دقائق صارت دهراً كمن ينتظر دوره إلى المقصلةِ، وبغتةً كَسَرَ الصمت صوت باب غرفة العمليات يُفتح بهدوء لتخرج منه فتاة في مقتبل العمر تتلوى وتتطوح ألماً بصمتٍ. في لحظةٍ خاطفةٍ تلاقت عيوننا فرأيتُ نفسي فيها. التفتُ وأدنيتُ رأسي من "وفاء" الجالسة جواري وعيناي تصّبُ دمعاً وهمستُ في أذنها

- آني خايفة من هذه العملية.. أخاف أموت وأترك ابني بحسرتي!

تشنجَ جسدي وكأنَ أفعى لدغتني طبطبت بيديها الحانيتين على ساقي وعينيها لا تقل رعباً من رعبي.

كان الزمنُ مشوشاً لا أتذكر إلا التفاصيل السابقة للعملية والتحضير وصعودي على سرير الطبيبة أما بعد ذلك فقد تحول جسدي إلى كتلة من الألم الذي أنتشر من أخمص قدميّ حتى رأسي، أنهضتني الممرضة ووفاء من السرير، وخطوتُ في

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بحر الألم بصمتٍ كما طلبت مني الطبيبة بوجهها الضخم البشع وكأنها غولٌ مخيف:

- بلا صراخ ولا صوت، تحملي!

كنت استند حاضنةً وفاء من الجهةِ اليسرى، وعند الباب سندني "حسين" من الجهةِ اليمنى، ولا أتذكر كيف نزلنا الدرج، كنتُ أتلوى بين أيديهما بصمتٍ. مثل من يعوم في طوفان الوجع، أفتح عينيَّ بين الحين والحين، إلى أن رأيت "حسين" يساعدني على الجلوس بجوار وفاء في التاكسي الذي أقلنا إلى "حي الصحة" في مدينة الحرية حيث بيتهم، قرعنا الباب وأنا أتلوى كاتمةً أنيني.

ما أن فتحت "ربيعة" الباب حتى تلقفني زوجي بين ذراعيه وحملني إلى أقرب سرير واضعاً غطاء على جسدي الذي أنتهك قبل لحظات، حاولتُ جلَّ جهدي كَتْمَ صراخ وجعي فشعرتُ بوجهي ينتفخُ ويكاد ينفجرُ، سيخبرونني في الأيام التالية بأنهم ارتعبوا فوجهي أزرقَ وذهب لونه تماماً، لم أستطع النوم، كنتُ أسقط في غيبوبة في أقصى الألم وحينما أفتح عيني أجده منحنياً عليّ واضعاً كَمْادَةٍ باردةٍ على جبهتي، بقيتُ أنزف حتى انبلاج الضوء ونهوض الشمس.

لم أفكر بغير قربي من أهلي وأنا أرى الموتُ يحومُ حولي ودمي لم يتوقف عن التدفق وقواي أنهكت تماماً، تمنيت لو أطير وأحط بين أمي وأبي في لحظاتي الأخيرة، قلت لهم:

- أريد أروح إلى أهلي الآن!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أوصلني "حسين" إلى "كراج العلاوي" وحجز لي الكرسي المجاور للسائق وأوصاه قائلاً

- خويه أنتبه إلى أختي المريضة وولدها!

لم انتبه إلى أبني إلا بعد أن تحركتْ السيارة، كانَ ينظر نحوي بألم وكأنهُ يحس ما بيّ، ضممتهُ إلى جنبي فاستكان وخفف من ألمي قليلا.

ما أن غادرنا بغداد وأخذنا الطريق الخارجي حتى شَغّلَ السائق كاسيتاً يصدح بأغاني الحرب وبطولات العراقي:

"احنه مشينا.. مشينا للحرب

عاشگ يدافع من أجل محبوبته

محبوبته

احنه مشينا للحرب

هذا العراقي.. العراقي من يحب

يفنى ولا عايل يمس محبوبته

محبوبته

احنه مشينا للحرب"

احتضنتُ صغيري ورعب خرافي تمكّنَ من حواسي مع خفوت الألم قليلاً وتأمل وضعنا المهدد من كل الجهات وما زادني كمداً كلمات الأغنية الحماسية المداعبة مشاعر العاشق الذي يحمي محبوبته وأنا انتهكت قبل ليلة خوفاً من فضح عشق حبيبي.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يا ألهى أي جنون وتناقض أعيشه في لحظتي!

* * *

تطورت الأحداث سريعاً. استدعيت مواليد "عبد الحسين" لأداء خدمةِ الاحتياط، فعاد من الصعب جدا استمرار زوجي الاختفاء في بيته وهو بعيد في جبهات الحرب. أخبرني في الزيارة الأخيرة بأنه سينتقل إلى بيت أخته الكبيرة التي كانت بمثابة "أمه" في تكريت. فعاد من المستحيل زيارته لأسباب عديدة ولبعد المسافة بين الديوانية وتكريت، وخطورة محيطها الضيق الصغير وقتها.

لم نلتقِ أشهراً عديدة، ولم أسمع منه إلا قليلاً فقد تحاشيت الاتصال التلفوني مخافة الرقابة، وحينما تحاصرني الأشواق إلى صوته أذهب إلى بيت صديقة قريبة لأتصل. وهناك في مكانه الجديد ضاقتْ بهِ السُبلُ، المكان، والوجوه، ومحدودية الحركة، فهو حبيس البيت فقط، شعرَ بخطرٍ وجوده من حملاتِ التفتيش للبحث عن الفارين من الجبهات، كما سيخبرني لاحقاً، عن أخته وأطفالها الخمسة وزوجها "سعد عبد الباقي" المسالم، المستسلم لقدره والذي كان يعمل في مكتب حسابات تابع لأحد أعمام "صدام حسين" وموظف في دائرة بريد تكريت، لم يكن غريباً، أبن عمة زوجي كما تربطهما علاقة صداقة وجو أدبي مشترك، شيوعي سابق معتقل 1963 ومعذب ومن يومها اعتزل العمل السياسي.

حاصرتهُ عيون أطفال أخته الذين تعلقوا به وتخيل لحظة القبض عليه وسوقهم معه إلى المجهول، لذا وافق بعد حوار

منشورات «ألف باء AlfYaa»

طويل مع زوج أخته على تسليم نفسه للسلطات بعفوٍ سري صادر قبل أيام، والذي يسلم "نادماً" حسب المصطلح العسكري، يعفى من كل الإجراءات القانونية ويبعث مباشرةً إلى وحدته العسكرية.

توثق كما أخبرني من كلام زوج أخته، فأعيد من مراكز تسليم الهاربين في تكريت إلى وحدته في شرق البصرة، ليعود لنا بعد شهر في إجازة وتنتظم حياتنا، بين إجازة كل شهر والتحاق لأعيش رعبين هذه المرة، رعب مقتله أو فقدانه في الجبهات ورعب انكشاف أمرنا والقبض علينا. لكنني عشتُ متوازنة بين العمل وأبني وأهلي والعمل الحزبي السري وانتظاره إلى أن ألقيَ القبض على الرفيق "جميل مگط (أبو فريد) لتنقلب حياتنا رأساً على عقب.

الحرب الذي دامت ثمان سنوات عجاف. راح ضحيتها أكثر من مليون قتيل وجرح وإعاقة أكثر من مليون شاب من البلدين وترمل النساء وتيتم أطفال كما أهدرت الملايين من الدولارات وتبديد الثروة الوطنية للبلدين. الحرب العراقية- الإيرانية - تلك الحرب التي لم يتفق على زمن اشتعالها البلدين. العراق صرح أنها بدأت بتاريخ 4 أيلول 1980 حيث قصفت إيران مناطق حدودية والإيرانيون يقولون إنها بدأت بتاريخ 22 أيلول 1980 بعد اجتياح الجيش العراقي مساحات واسعة من الأراضي الحدودية الإيرانية. الحرب التي تعتبر من أطول حروب القرن العشرين. تلك الحرب التي تركت ندوبا متوغلة في وجدان وضمير الشعبين.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حرب مازالت ذكرياتها المريرة تنزف في ذاكرة من شاركَ بها أو عاصرها. حرب دقت طبولها مع وصول الخميني من منفاه – باريس - إلى إيران عقب ثورة شعبية عارمة أطاحت بنظام الشاه المدعوم من الغرب وأمريكا.

الحرب التي الغي بها الدكتاتور صدام حسين اتفاقية الجزائر التي أبرمت بعد تأميم النفط العراقي باعتباره ثروة وطنية من حق الشعب العراقي وسلطته التحكم به في 6 - آذار- 1975 بمرسوم جمهوري ألقاه الدكتاتور على شاشات التلفاز.

في 8 – آب- 1988 أعلن انتهاء الحرب[1] بين البلدين بموجب قرار مجلس الأمن المرقم 598.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

[1]) فترة الحرب الدائرة بين العراق وإيران.

القسم الثاني

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الالتحاق إلى الجبل

بعد عودة زوجي للجيش واعتقال "جميل مگط" أصبحت حياتنا مهددة وكما يقال شعبيا -أصبحت حياتنا على كف عفريت- كنا نقامر في الوقت الضائع ونراهن على صمود "أبو فريد".

لم أكن طوال السنتين الماضيتين بمنأى عن عيون جواسيس السلطة، ففي فترة التحاق زوجي والذي عدَّ فيه مفقوداً في الحرب، ارتديت السواد، لكنهم استدعوني إلى دائرة الأمن بتهمة:-

- إن هنالك من سمعني من المراجعين للدائرة التي أعمل بها أتحدث مع زملائي عن عدم جدوى الحرب بأنها حرب خاسرة.

وجهوا لي التهديد والوعيد ولكنني كنت رابطة الجأش، مسلحة بقضيتي العادلة، والاهم كنت واثقة بطلان التهمة الملفقة لي.

عرفت لاحقا أن من شفع لي هو رئيس القسم الذي كنت أعمل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

به -قسم التسجيل بدائرة الطابو- إذ زكاني ودافعَ عني كموظفة مخلصة في عملها.

منذ استدعائي والتحقيق معي، أصبحت أجد ما أن أخرج من باب بيتنا جارنا مفوض الأمن - منذر شيخ جاسم- والذي نال قصاصه على يد الثوار في انتفاضة 1991 قبل هروب من نجا إلى الصحراء باتجاه السعودية حيث نكث الأمريكان في فترة حكم جورج بوش الأب بوعدهم في دعم المنتفضين ومما أدى إلى عودة ماكينة سلطة البعث وصدام الدكتاتور إلى جبروتها في سحق المنتفضين.

في زيارتي لمدينتي بعد الاحتلال في عام 2003 حيث كنت في طريقي إلى زيارة شارع طفولتي و مدرستي الابتدائية والمتوسطة والإعدادية سمعت صوت امرأة ملتحفة بالسواد تنادي بصوت عالي- أنت مو نهودة! أنا جارتكم أم ضارب. التفتُّ إليها، لم أتعرف عليها. كانت منهكة وخطوط تملأ قسمات وجهها الكامد حزنا وألماً. اقتربت منها محاولة التفرس بملامح وجهها. كانت تهذي وتهمهم، خلصتي يمه، خلصتي يمه من جهنمهم، وشذرات دموعها تبلل وجهي، تتلمس جسدي غير مصدقة أنني من تكن بجوارها الآن. بعد أن شبعنا نحيباً وبقينا جالستين على عتبة دارها. سألتها على أولادها وخصوصا مهدي وهادي لأنهما كانا صديقي طفولتي.

- أخذوهم وأخوهم إحسان، ثلاثتهم لم أعثر على جثثهم كما أخذوني أنا واروني نار جهنم في دائرة امن الديوانية بتهمة أنني أسقي ماءً للمنتفضين وهدموا دارنا علينا كما يعمل الإسرائيليون

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بأطفال الحجارة. وكل هذه السنين وأنا اجلس في عتبة داري أمنيَ نفسي بعودتهم. تحجرت المفردات في لساني.

كان ينتظرني ليلاحق خطوي حتى مقر عملي ويجلس طوال ساعات الدوام على كرسي في الممر أمام غرفتي، يتابعني في طريق عودتي إلى البيت. مما فاقمَ من رعبي وأدخلني في دورة كوابيس جديدة، فبتُ استيقظ من كابوسٍ صارخة، أمشي وأتلفت خلفي غير واثقة من خطواتي التي كانت لا يعرف الخوف طريقا لها.

جاء زوجي في إجازته الشهرية من الوحدة العسكرية والتي كنت اعد الساعات لحلولها. حملت حقيبة ملابسي حيث أقيم عند اهلي طيلة وجوده في جبهة الحرب. ذهبنا مصطحبين ابننا الذي قارب شمعته الثالثة إلى شقتنا الواقعة في الطرف الثاني من المدينة. كانت الشقة باردة وموحشة.

دورتُ عينيَ بأرجاء الغرف الثلاث، توقفت أمام مرآة زينتي والكرسي الذي كنتُ أجلس عليه كي أكحل عيني وألون شفتي بأحمر الشفاه. نفضتُ التراب عنه وعن باقي أثاث البيت المتروك. تأملت أشيائنا المتناثرة وصورنا المعلقة على جدران الغرف وكأنني ألقى عليها نظرة وداع هذا إذا نجونا من جهنم اعتقالنا.

حاولت جَلَ جُهدي أن أكون هادئة ومتماسكة.

قلت له تعال نجلس في الصالة بعد أن رويت قصة من خيالي لصغيري كي يخلد للنوم فأتفرغ تماما وأبوح لوالده بالكارثة التي تنتظرنا. خلدَ صغيري إلى نومٍ عميق.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

جلستُ بقربه متأملة السماء الغاطة في نومها العميق ونجومها المتناثرة من شباك الصالة وتمنيت لو نكن نجمتين هاربتين من عسف سلطة البعث والرعب الذي أصبح يرافقنا كَظلنا. أخبرته بخبر مضاف لخبر اعتقال جميل مگط و استدعائي لدائرة الأمن، إذ أخبرني صديقنا الشاعر- على الشباني - أن كتاباً عُمم على كل وحدات الجيش العراقي تطلب فيه دائرة الاستخبارات، إخبارها عن وجود النائب عريف سلام عبد إبراهيم وعلى وحدته أن ترسل برقية سرية وفورية عن تواجده، وهذا يعني أن مسألة اعتقاله مسألة وقت ليس إلا.

كنت أحاول أن أخبره بهدوء كي اخفف عبء وهول الأحداث...

رد عليّ بحزم

- اسمعي، لا مجال لأي حلّ أَخر، وأي تأخير سنذوق جهنم قبل أن يقضوا علينا. ليس لدينا وقت لنضيعه، سنلتحق بالثوار.

لم أكن أتوقع هذا القرار الحازم، فقلت: -

- وكفاح ابني

ردَ بحزم وثقة

- نتركه عند أهلك، أن ظروف الحياة في الجبل قاسية جدا، خبرتها وابننا يعاني من مرض الربو ويحتاج إلى علاج دائم.

كان حازماً في قراره، أظلمت واسودت ساعات نهاري. دارت بيَ الأرض. بتُ الهج باسم ابني، وأضمه إلى صدري وكأني أود أن أعيده إلى رحمي.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

أفكر في لحظة فراقه وأنا وأبوه لا ندري ماذا ينتظرنا وما مصيرنا! والطريق من الديوانية حتى الوصول إلى مقرات الثوار محفوفاً بالمخاطر والسيطرات واحتمال اعتقالنا في أي نقطة سيطرة يشكونَ بنا.

كنت حلقة الوصل بين التنظيم. رتبت الاتصال بالرفاق، أكملت كل شيء بهدوء كعادتي.. أخذت من أشيائي ما خفَ وزنه وثقل ثمنه. الوثائق الشخصية من عقد الزواج وهوية الأحوال الشخصية وشهادة جنسية وما املكه من قطع ذهبية.

أخذت إجازة من عملي بحجة مرض ابني. مررت على بيت أهلي كي أودعهم وابني الذي كنت اتركه عندهم حين أذهب إلى عملي.

كان يوماً شتوياً من أيام شهر شباط، قاسي في برودته ووحشته وعسر لحظة وداعي لوالديَ وابني -كفاح-.

لم أجد أحداً في بيت أهلي سوى أختي ماجدة التي تكبرني بسنة. أصابني البله حين لم أجد والديَ وابني. كانوا في كربلاء. نسيت تماما انه يوم الخميس يوم زيارتهم الأسبوعية إلى كربلاء ولسوء حظي أو لحسنه أنهما اصطحبا ابني معهما.

سافرنا بنفس المساء وقضينا ليلتنا في بيت صديقنا -عبد الحسين داخل- والتحق بنا رفيقنا الذي كان مختفيا عن أعين السلطة -مؤيد كريم- ابن صاحب مقهى اللواء الشهيرة في مدينتي الجنوبية إذ يتجمع الشيوعيون واليساريون فيها. فرهاد اسمه الحركي حين انضممنا في صفوف حركة الأنصار الشيوعيين.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وفي ساعة متأخرة في نفس الليلة اتصلت بأهلي من تلفون عمومي في نفق التحرير لكي اطمئن على صغيري. جاءني صوت أختي اللائم والمسائل- أين أنتِ؟ ابنك لا يستطيع النوم! يبحثُ عنكِ! أين أنتِ؟ هل نسيتي انه لا ينام إلا في حضنكِ شامم رائحة خصلات شعركِ؟

لم أرد عليها، أغلقت الهاتف منهمرة في نهر دموعي ولحظة لوعتي لفراق وحيدي. فراق دام ثلاثة عشر عاماً. كان عمره ثلاث سنوات حين فارقته ولم أكن أعرف أنني سألتقي به أم لا.

ليلة كانت وكأنها قرناً من الزمن. لم ترَ عيوننا النوم ليلتها. صار الوقت ثقيلا. وعند ظهور أول خطوط الفجر ولحظة نهوض الشمس ذهبَ زوجي إلى كراج العلاوي واستأجر تكسياً وعلى طريق التاجي -موصل- انتظرناه، وهنا من باطن السيارة بدأت مرحلة جديدة من مراحل اختبار العمر والتجربة. كان الزمن ثقيلاً والوقت بطيئاً، محشوداً بالهواجس والتوقعات بين حلم الخلاص أو الوقوع بأيديهم.

اتفقنا ان يكون الصمت رفيقنا الرابع. وصلنا إلى الكراج العام في الموصل بأمان، خدمنا العفو العام الذي كان يمنحه الطاغية بين الحين والآخر. جاءت المرحلة الحاسمة ألا وهي كيفية وصولنا إلى القرى الكردية الآمنة أو التي تقع تحت سيطرة الثوار وهنا تَبيّنَ أن رفيقنا ودليلنا لا يعرف أين يقع كراج الشيخان، والتي من المفترض أن نتوجه إليه.

وقفنا نحن الثلاثة ننظر بعيون بعضنا نسأل بعض بصمت كيف السبيل إلى نقطة خلاصنا ونحن الثلاثة لم نزر الموصل

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

سابقا ولم نعرف جغرافية المدينة ومفاتيحها؟ توجه زوجي وأنا إلى صاحب المقهى في الكراج سائلين إياه، كيف الوصول إلى الشيخان.؟ دلنا مؤشرا بيده على موقف لسيارات الأجرة يقع قريبا من طرف الشارع المقابل للمقهى.

* * *

حسمتها قائلة لزوجي ورفيقي قفا هنا سأذهب واستأجر تاكسي. توجهت لأول سائق شاغر قائلة له نحن ثلاث ونريدك توصلنا إلى الشيخان ولم أسأله عن السعر.

لم نتعرض للتفتيش بنقاط السيطرة ومن خلال الحديث مع السائق عرفنا أن موقع قرية -بَعاذره- والقرى التي نقصدها تقع على طريق ألقوش، فبادرَ زوجي طالباً من السائق التوجه إلى ألقوش حيث نتمكن من رؤية القرى الواقعة أسفل سفح الجبل وفعلا استدارَ السائق سالكاً الطريق المبلط وهنا راودت السائق الشكوك، فسألنا بصراحة عن وجهتنا وكنا قد أخبرناه أنى أختهم و تعينت معلمة في مجمع -باعذره-.

زوجي ومؤيد كان لديهم إجازات مزورة من الجيش ولكن الكارثة بعد ما عبرنا نقطة التفتيش، لا ندري ماذا خطرَ في بال رفيقنا مؤيد حين كسر اتفاقية الصمت، مخبرا السائق بأنني معلمة وزوجي هارب من العسكرية ملتحقا – بالعصاة - ونحن قادمين لإقناعه أن يسلم نادما ويعود لخدمة الوطن في حربه ضد الفرس المجوس - ونحن كنا نقترب من السهل الذي تحاذيه القرى اليزيدية التي كانت هدفنا في العبور إلى بر الأمان.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

رفضَ سائقها رفضاً قاطعاً النزول بسيارته و إيصالنا إلى قرى خورزه و كرساف التي نقصدهما قائلاً (سيسلبني العصاة وراح يذكر حوادث عن تسلبيهم للكثير من السائقين الذين تورطوا ووصلوا إلى تلك القرى التي يسيطر عليها العصاة حسب تعبيره) مقترحاً إيصالنا إلى ألقوش:

- سيساعدكم ابن أختي ضابط في أمن ألقوش.

أقترح ذلك، هنا تدخل زوجي بقوة وبلهجة بها تهديد آمراً السائق بالتوقف كي ننزل وإلّا.. موحياً بان لدينا سلاحاً مما ساعده عدم تفتيشنا في الطريق ليوهم السائق ويخوّفه.

كان السائق على وشك أن يضاعف السرعة ويأخذنا إلى جهنم والأقبية المظلمة حيث قرر الله وملائكته التبرؤ من خلقه الداخلين فيها لولا قرار زوجي وتقديره خطورة الموقف، وحكمة تصرفه في لحظة كانت حاسمة ودون تصرفه السريع لكنا الآن في خبر كانَ.

فتوقف السائق على جانب الطريق وترجلنا، بينما كان رتل عسكري صغير يمر باتجاه الموصل.. أسرعت السيارة مواصلة الطريق باتجاه ألقوش.

ما ان نزلنا إلى الحقول المزروعة حتى قال لي زوجي أمراً اخلعي حذائك!

- لماذا؟

سألته

- ليس لدينا وقت، هل ترين تلك البيوت الطينية الواقعة على

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حافة الجبل لابد لنا أن نصلها قبل أن يصل سائق التاكسي إلى مركز مدينة ألقوش.

كنت أرتدي تنورة قصيرة وحذاء ذو كعب عالي وفوق كل هذا كنت حامل في شهري الرابع.

تشبثتْ أصابعي المرتجفة رعباً بكفه الصارمة والتي كانت تنضح عرقا، وهببنا راكضين وسط حقول مسقية تمتد من الشارع المبلط حتى حافة الجبل، بقدميّ الحافيتين وصوت جرار زراعي بعيد تخيلناه من شدة الرعب والارتباك صوت مراوح طائرة هليكوبتر إلى أن بلغنا بيوت القريتين المتجاورتين على سفح جبل ألقوش.

وصلنا أول بيت فرأينا امرأة ترتدي ثوبا فضفاضا زاهي الألوان منهمكة في سجر التنور سألتها بكرديتي البسيطة التي تعلمتها في دراستي الإعدادية عن بيت الرفيق "عيدو" أجابتني مؤشرة بيدها نحو بيت مجاور يقع على مرتفع بسيط.

استقبلنا الرفيق عيدو بوجهٍ باسمٍ مرحباً بنا وبنفس الوقت متسائلا عن كيفية وصولنا بهذه الطريقة ووحدنا بدلا من المتفق عليه وهو الذهاب إلى الشيخان حيث تنتظرنا هناك سيارة أجرة يقودها رفيق من التنظيم المدني. أخبرناه بما جرى، التباس التفاصيل وسوء الفهم، وعدم معرفتنا جغرافية المنطقة، وشكوك السائق الذي استأجرناه.

دخلنا بيت الرفيق المشيد من الحجر والطين على حافة سفح جبل -ألقوش- احتفوا بنا، كنتُ سعيدة من الأعماق لنجاحنا في الوصول بسلاسة وسرعة، وظللنا نتحاور وقتاً طويلاً عن الحياة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

في المدن تحت ظل الحرب.

مع غروب الشمس وحلول أول خطوط الظلام، استبدلنا ملابسنا المدنية، إذ أعطوني ملابس بيشمركة - سروال وقميص وبشتين[1] وجماداني[2].

ساعدني زوجي في كيفية ارتدائهما. كما اتفقنا على أسمائنا الحركية. أصبح اسمي - بهار- وزوجي -أبو الطيب- ورفيقنا مؤيد -فرهاد-.

تناولنا وجبة العشاء على عجل متحلقين حول صينية الطعام المتكونة من صحن برغل، لبن رائب، بصل وخبز حار، هذه الوجبة سنعتاد عليها في سنوات الجبل العجاف.

انتابتني مشاعر غريبة كانت مزيج بين الفرح بالخلاص من جهنم الاعتقال والشعور بالاغتراب وترك ولدي ابن الثلاثة أعوام لدى أهلي خوفا عليه من مخاطر الطريق والمصير المجهول.

أثناء ساعات الانتظار سألت الرفيق "عيدو" عن بيت الراحة (التواليت). نادى على زوجته كي تقودني إليها، فأقبلت باسمة الوجه ورافقتني خارج المنزل إلى العراء وفي عينيها ألف سؤال عن خوض تجربة الكفاح المسلح والعيش في وسط رجالي بحت وليس هذا فقط بل بين شباب محرومين من رؤية النساء ورائحة

[1]() من الملابس الكردية التقليدية، وهو الحزام القماشي العريض والطويل الذي يلتف حول الخصر.

[2]() من الملابس الكردية التقليدية، الجمداني (أو الجمدانة) هو غطاء الرأس التقليدي للرجال.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ودفء العائلة، ظلت تتفحص وجهي في المسير إلى أن سألتني:

- أنت متزوج؟

أجبتها وعلامات الاستفهام على وجهي أكثر من صيغة التذكير في سؤالها المرتبك.

بمرور الأيام بين الأنصار والجوبان بين القرى اكتشفت أن أغلب النساء غير متعلمات وكذلك بعض الرجال لديهم مشكلة في التأنيث والتذكير.

دلتني مؤشرة على حفرة في العراء لقضاء الحاجة، طلبت منها مترجية الابتعاد قليلا كي اخذ راحتي، نفذت ما أردته.

مع حلول المساء اصطحبنا الرفيق "عيدو" باتجاه الجبل، تملكتني رغبة شديدة في حمل بندقية كانت حلما لي و للرفاق في مدينتي الجنوبية، حلم ورغبة نمت منذ مراهقتي وأنا ألتهم قصص وروايات الأنصار الشيوعيين وهم يعملون خلف خطوط العدو النازي في الحرب العالمية الثانية ، وقبل خروجنا جهرت برغبتي في حملها فناولني الرفيق بندقية كلاشنكوف نصف أخمص حملتها على كتفي، فالتهب حماسي وتقدمتهم من فرحي في المسير، وبغتة وجدت نفسي محاطة بعدد من الكلاب تنبح وكأنها شمت رائحتي الغريبة عن المكان، تَجمدتُ في مكاني وكأني صخرة، تَقّطعت أنفاسي رعباً، نشف الدم في عروقي، لحقَ بي زوجي و الرفاق فهدأت الكلاب وابتعدت.

بعد مسير أكثر من ساعة بين الوديان وصلنا مكانا منزوياً قرب القمة، توجه "عيدو" وأزاح شجرة إيفرست لصق صخرة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كبيرة جدا فانكشفت فتحة ضيقة. التفت إلينا وقال:

- ستدخلون هذه المغارة زحفاً على بطونكم، وتباتون ليلتكم فيها ثم ناولنا كيسا فيه شاي وسكر و أرغفة خبز.

كنت مذهولة بتفاصيل اللقاء وكيفية العيش في القرى والريف الكردي وبساطة الحياة. كنت أركز لمعرفة كيفية التعامل مع هذه الحياة الجديدة والغريبة عليّ، طبيعة وعرة، لغة لا أفهم منها إلا القليل، حياة بدائية جدا. كنت منقادة تماما إلى ما يقوله رفيقي "عيدو" وزوجي.

بقينا ثلاثة أيام مدفونين في تلك المغارة، نقضي النهار بين جدرانها الرطبة وظلامها خوفا من الطيران السمتي -الهليكوبتر- ونخرج مع الغروب وخطوط الظلام لنعب من هواء الجبل المنعش ونكحل أبصارنا بنجوم السماء.

كنت أسرح بعيدا إلى مدينتي الدافئة بأنفاس أمي وأبي وكركرات طفلي الذي تركته وفي قلبي غصة.

في اليوم الثاني من وجودنا في المغارة جاءنا رفيق اسمه - أبو مناف- زحف داخلا وجلس بهيئته الواثقة وابتسامة خفيفة رسمت تقاطيع وجهه الصارمة، بشاربه العريض ونظراته الحادة و المتفحصة. تجمدتُ في مكاني حين سمعت حركة إزاحة شجرة الإفرست المموهة ولكن البهجة التي ارتسمت على وجه زوجي خففت من وطأة مشاعر الرعب والخوف.

أخذه زوجي في الأحضان مرحبا وهو يردد:

- سبهان هذا أنت!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

فعلق على الفور:

- أبو الطيب سبهان موته

ناديني أبو مناف.

في صبيحة يومٍ مشمس بارد توجهنا بصحبة دليل من الرفاق لا أتذكر اسمه، قادنا بين تضاريس وعرة لنصل مع الغروب إلى قرية في بطن وادي عميق حيث التقينا برفاق سرية الشهيد -احمد- وجدناهم متجمعين أمام جامعها الصغير وهو مكان تجمع سرايا الأنصار وسرايا الأحزاب الكردية الجوالة في المنطقة حيث يتم توزيع المقاتلين من قبل المختار على بيوت القرية لتناول وجبة العشاء ومن ثم المبيت في مسجد القرية أو في بيوتها. كنتُ مبهورة تماما بما يدور حولي، الطبيعة بوعورة تضاريسها وقسوتها والرفاق في لغتهم التي افهم ما تجود به ذاكرتي من درس اللغة الكردية في مرحلة دراستي الإعدادية.

اتفقنا أنا وزوجي على إخفاء وضعنا الاجتماعي فنزعت خاتم الزواج الذهبي ووضعته خلسةً بكف زوجي الذي وضعه في جيب سرواله. وزّعنا مختار القرية، وجدتني بصحبة رفيقين التقي بهما لأول مرة، عند حلول المساء عرفت أننا سنقضي ليلتنا في نفس البيت فسألت رفيقيّ عن مسؤول المفرزة وأخبرته بأنني أريد المبيت مع زوجي. فأعتذر وغاب ليعود بصحبة زوجي وقال:

- تفضلي رفيقتي.

وابتسامة خفيفة على وجهه، تبددَ خوفي و توجسي من فكرة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المبيت مع رفاق لا أعرفهم.

في فجر اليوم التالي قُدِمتْ وجبة الإفطار المكونة من جبن غريب الشكل يشبه كومة أحجار صغيرة بيضاء مرقطة يشوب حوافها لون أزرق، فالتفتُ نحو زوجي واستفهمت عنه بالإشارات فَهَزَّ رأسه بوجه باسم ورسم بيده علامة كأنه يقول، لذيذ جدا، فبسطت قطعة خبز حارة ووضعت قطع من الجبن ورفعته إلى فمي وما أن لامس لساني، هاجمتني رائحته العفنة، فلم أتمالك نفسي، هرعت راكضة خارج الغرفة وتقيأت وأنا أسمع ضحكات زوجي والرفاق وأهل البيت.

ودعنا أهل البيت وأمام جامع القرية أخبرنا مسؤول المفرزة بتكليف رفاقٍ ثلاثة سيرافقوننا حتى مقر الفوج الأول، وهم الرفيق أبو جاكلين، قصير القامة، ممتلئ، أشقر، بعينين زرقاوين، دمث الأخلاق كان يتحدث كثيرا عن زوجته ويلهج باسم طفلته ويخرج بين الحين والحين صورتها من محفظته. والرفيق سلمان ممشوق القامة، هادئ يميل إلى الصمت عكس "أبو جاكلين" أما الثالث الملتحي بنظراته الزائغة فلم أعد أتذكر اسمه. سرنا في طرق وعرة جدا ودروب جبلية ضيقة بوديان بكر لم تشق فيها طرق مبلطة ولا تصلها سيارة. بتنا ليلتنا الأولى في قرية كأنها منحوتة في قلب الجبل وفي اليوم التالي وصلنا قرية ترتبط بشبكة المواصلات وتصلها السيارات من دهوك. في الاستراحة أخبرنا الرفيق سلمان أن لديه موعداً مع والدته وكذلك الرفيق الملتحي.

الأنصار من تلك المناطق كان لديهم فرصة اللقاء بعوائلهم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

والتمتع بدفء العائلة وحميميتها عكسنا نحن الأنصار القادمين من مناطق الجنوب والوسط وبغداد. رجع الرفيق سلمان لوحده والآخر لم يعد سألناه عنه قال ضاحكاً:

- لقد مات!

فعرفنا أنه سلمَ نفسه للسلطة.

واصلنا المسير إلى مقر الفوج الأول، وهناك التقيت بالنصيرة (أم عصام) لأول مرة كما شاهدت الكثير من العوائل الإيزيدية التي هَجَرتها السلطة لتشكل ضغطا على الأزواج والأبناء من الأنصار، ستؤسر هذه العوائل عند انتهاء الحرب العراقية الإيرانية في 8-8-1988 وزحف الجيش العائد من الجبهات والذي قصف مناطق الثوار بالأسلحة الكيمياوية ليجد رفاق الفوج الأول أنفسهم محاصرين من كل الجهات. انسحب الأنصار بينما استسلمت العوائل لقوات الجيش بقرار حزبي، فضاعت وعاد مصيرها مجهولا حتى كتابة هذه السطور.

بقينا أكثر من أسبوع ننتظر في مقر الفوج الأول الواقع في عمق وادي مراني، المظلل بأشجار الصفصاف والجوز والحور فنشأت لي علاقة طيبة مع عوائل الأنصار الإيزيدية اذكر منهم عائلة الرفيق أبو داود وزوجته ذات الوجه الملائكي والتي ستفارق الحياة في السنة التالية بسبب عسرها أثناء الولادة، لتترك ثمانية أطفال، وكانت قد أخبرتني أن ولديها الكبيران - مقياس وشفيع- يعيشان في مدينة كانكوفا في الاتحاد السوفيتي في بيوت مخصصة لأطفال الرفاق من قادة الأحزاب الشيوعية في العالم، مما هوَنَ عليّ شدة شعوري بالذنب لترك ولدي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"كفاح" لدى أهلي في "الديوانية" مدينتي الجنوبية.

بعد انتهاء تجربة الكفاح المسلح وتشردنا بين معسكرات اللجوء في تركيا وإيران واستقراري وعائلتي في محطتي الأخيرة الدنمارك، وحصولي اللجوء السياسي وحق الإقامة، دخلت مدرسة تعليم اللغة الدنماركية المفتاح الأول لفهم عادات وتقاليد المجتمع الجديد.

كان الصف يضم عشرة طلاب وطالبات ومن جنسيات مختلفة وحين بدأنا في التعريف عن شخصيتنا وأسباب قدومنا إلى الدنمارك، وكان الابن الأكبر "مقياس" الذي يكبر ابني بسنتين زميلي في الصف وأخبرني أن أخيه شفيع متواجد بالدنمارك أيضاً وهما ما تبقى من العائلة التي أخذها الجيش 1988 أما والدهم فهو حي يعيش لاجئاً في هولندا.

كما تعمقت علاقتي في الأيام القليلة التي قضيناها في وادي مراني بعائلة الرفيق أبو فؤاد وزوجته الذي أثار انتباهي بمعاملته الرقيقة لها، كان يمازحها مزاحا حميما حيث تزداد بهجتها ويحمر وجهها خجلا من مزاحه. سيكون لي لقاء آخر معها بعد ثلاثة أعوام في مقر قاطع بهدينان بگلي زيوه الواقع خلف العمادية، لقاء مشبع بالحزن والدموع التي انهمرت بصمت وهي ترتمي على تراب قبر زوجها وتحكي معه بمناسبة مرور عام على دفنه.

كلف "أبو فؤاد" بتوصيلنا إلى مقر القاطع، فخرجنا في فجر بارد بصحبة أربعة رفاق قاصدين مقر الفوج الثالث وهم أبو فؤاد، ملا عمر، أوميد وأبو صالح، ونحن الثلاثة القادمين من

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تنظيمات الداخل.

سأتوقف هنا عند - أبو صالح- الملتحي صاحب الملامح القوية، عينان جاحظتان، رأس أصلع، قصير نحيف القوام، يأكل بشراهة وكأنه قادم من بلد مجاعة، لم يكن مسلحا، كان يحمل صندوقا خشبيا على ظهره، أثارت استغرابي، قوته، حيويته ونحن نتسلق جبالا و طرقا وعرة جدا ولساعات عدة، كنا نلهث وتكاد تتقطع أنفاسنا من التعب إلا هو كان كالصخرة. انتظرنا في مغارة إلى أن حلَ الظلام عبرنا الشارع المبلط المحروس بالرمايا نحو قرية جوار التبليط، وزعنا أبو فؤاد على بيوت الفلاحين لتناول وجبة العشاء. كنت مع زوجي أبو الطيب وأبو فؤاد وأبو صالح في غرفة ضيوف بيتٍ علق على جدرانها صور صدام حسين، ارتبكنا أنا وزوجي بينما لاحظت "أبو صالح" متماسكا، لم يبدِ أي ردة فعل لا بل كان يمزح، فهمست للرفيق أبو فؤاد

- هل الدار أمان؟

أجاب:

- رفيقة هذه القرية في النهار تابعة للسلطة وفي الليل لنا!

اطمئن قلبي قليلا. قضينا الليلة في هذه القرية ومع أول خيوط الفجر انطلقنا باتجاه مقر الفوج الثالث، وأثناء مسيرتنا اشتعلت السماء فوقنا بقنابل التنوير التي أشاهدها أول الأمر فارتبكتُ وأبو فؤاد مخاطبا:

- رفاق تنوير انبطحوا، غطوا رؤوسكم.

منشورات «ألف باء Alfyaa»

انتظرنا بعض الوقت وأكملنا المسير في مناطق جبلية مغطاة بالثلوج وعرة جدا ولساعات دون استراحة لخطورة المكان. كاد أن يغمى عليّ من التعب والجوع وشدة البرد، انتبه لي الرفيق أبو فؤاد، قائلا نستريح هنا رغم الثلوج التي كانت تغطي القمة واحتمالات الخطر مع انتشار الضوء، دس يده في كيسه القماشي المعلق إلى جنبه وأخرج قطعة نايلون ودعاني للجلوس فامتثلت، وناولني بيضة مسلوقة قائلا:

- جلبتها لك بعد ما أخبرتني زوجتي أنك حامل.

أمضينا ليلة واحدة في مقر الفوج الثالث وأكملنا المسير نحو مقر القاطع فبلغنا المقر مع المساء. توجهنا ومعنا أبو صالح إلى فصيل المكتب السياسي، وبتنا ليلتنا مع الرفاق في القاعة، في صبيحة اليوم التالي عُزِلَ "أبو صالح" في غرفة الضيافة المعزولة عند حافة السفح المقابل لغرف القاطع وفصيل المكتب السياسي، وظل يتعالى طوال اليوم صراخه الهستيري، أستفهمنا فهمس لنا بأن هذا الرفيق المسرب إلى بغداد أعتقل وضعف من جراء التعذيب وأبدى تعاونه مع السلطة التي بعثته في مهمة لا نعرف كنهها أكيد تخريبية كوضع السم في حباب الماء أو الوجبات أو تأمين نزول رفاق للداخل كي يوقعوا في المصيدة، لكنه كشف

للرفيق "عمر الشيخ" –أبو فاروق- عن التفاصيل وطلب الاستمرار كنصير لكن قراراً حزبياً صدر بعزله ومساعدته في الوصول إلى إيران لضمان سلامته، وفعلاً وصل إلى طهران وحلّ في معسكر "كرج" للاجئين لكن بعد عام قُتِلَ بظروف

منشورات «ألف باء AlfYaa»

غامضة طعنا بالسكاكين في زقاق قريب من "كوچه مروي" وهي منطقة تقع وسط طهران يتجمع فيها العراقيون.

هذه الرحلة من أول خطوة في الأراضي التي يتواجد فيها الثوار بسهل الموصل حتى مقر فصيل المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي معمدة بدم الشهداء الشيوعيين، فالرفيق "عيدو" سيستشهد بعد عام في معركة غير متكافئة مع مفارز الاستخبارات بالقرب من قريته.

والرفيقان "أبو جاكلين" و "سلمان" استشهدا في معركة غير متكافئة حينما حاصرتهم الطائرات السمتية فدخلا في معركة شرسة مع جنود الإنزال والطائرات بعد أقل من عام.

والرفيق أبو فؤاد كان عائدا من رحلة علاج في إيران بعد أن تعرض لمحاولة اغتيال بالسم الذي دسه عميل مدسوس في غذائه فوصل مع مفرزة قادمة من لولان في نفس يوم قصف المقر بالأسلحة الكيمياوية، فسقطت قنبلة جوار مكان جلوسه وسط الوادي فأصابه العمى على الفور واستشهد في نفس ليلة القصف- 5 حزيران 1987. وقضى بين يدي، إذ كنتُ قد دخلتُ دورة تطبيب لمساعدة الطبيبة –أم هندرين- في مثل هذه الحالات، بعد اختفاء الطائرات من السماء ركضتُ لاهثة إلى موقع الطبابة فوجدت "أبو فؤاد" في شبه غيبوبة، أسندتهُ بذراعي والطبيبة تفحصه، خنقتني الرائحة المنبعثة من جسده اللين، بللتُ منديلا من القماش ووضعته على أنفي وفمي كي أستطيع التنفس. كانت قدمه اليسرى مدلاة و تكاد تنفصل عن ساقه بعد أن أصابتها شظية. نظفنا جروحه بشاش معقم، كان

منشورات «ألف باء AlfYaa»

صامتا، لم ينطق بحرف وبعد سويعات من إصابته شخرَ وهمد لافظاً أنفاسه. تدلى رأسه من على كتفي التي كنت اسنده به، لم أستطع تمالك أعصابي، صرختُ، هرعَ الرفاق الذي كانوا بالقرب من غرفة الطبابة وحملوه ووضعوه على فراش اسفنجي في طرف الغرفة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الإجهاض

بعد عودة زوجي إلى وحدته العسكرية في قاطع شرق البصرة مستغلا العفو الذي تمنحه السلطات للهاربين من جبهات القتال حاولنا أن نعيش بشكل يوحي للناس والمجتمع بأن حياتنا طبيعية. واظبت على دوامي في دائرة (الطابو والتسجيل العقاري)، متحاشية كل حديث يمس السلطة والحرب والموقف منهما.

بعد إلحاح والدتي ووالدة زوجي على إنجاب أخت أو أخ لأبني كفاح وكنَّ لا يعلمنَّ أي شيء عن عملية الإجهاض التي قمت بها رعبا من اكتشاف سرنا حينما كان زوجي متخفيا عن أعين السلطة بعد تسلله من بين صفوف الثوار الشيوعيين في الجبال في أوائل 1983، وكنت أسافر له وألتقيه كل خميس مصطحبة أبننا "كفاح" في بيت صديقنا عبد الحسين داخل في حي الصحة بمدينة الحرية وما أصابني من علل وأمراض كانت عائقا لحملي بطفل آخر. راجعتُ طبيبة مختصة، وبمرور سنة نجح العلاج وبدأت بطني في التكور وكنا سعيدين بالمخلوق

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المنتظر لكن اعتقال جميل مگط (أبو فريد) الذي كانت تربطني به علاقة تنظيمية بالإضافة للخبر الذي جاءني بـه الشـاعر الراحل (علي الشباني) حيث أخبره صديق جندي احتياط يخدم في قلم مركز تدريب الحلة لاعب كرة سلة معروف في المدينة "ناظم كتان" عن كتاب معمم من دائرة استخبارات الجيش – الشعبة الخامسة – على كل وحدات الجيش العراقي تطلب فيها الوحدة التي يتواجد فيها زوجي أن تجيب بكتاب سري وفوري، ومن مفارقات الحياة أننا نجونا و"ناظم كتان قتل لاحقاً في جبهات الحرب العراقية الإيرانية" مما جعل حياتنا على كف عفريت. حلَّ الرعب وهاجس اعتقالنا بدل الفرح والأمان التي كنا نخدع به أنفسنا وأهلينا.

أظلمت الدنيا بعينيَّ، صرتُ أتوجسُ من كل خطوة تتبعني في الشارع أو عيون تراقبني في العمل أو أي نظرة بها استفسار من المراجعين في مكتبي.

كل النوافذ والأبواب أغلقت وليس أمامنا سوى حلين إمـا الاختفاء أو الالتحاق برفاقنا الثوار في الجبل.

فالتحقنا بعد عدة أيام من وصولنا واستقرارنا في فصـيل المكتب السياسي، التقيت بالرفيق – عدنان عباس "أبو تانيا" – عضو اللجنة المركزية ومسؤول الفرات الأوسط وقتها، فأخبرته بأنني حامل وفي الشهر الرابع، فعرض عليّ الاحتفاظ بالجنين وبعثي في زمالة دراسية إلى الاتحاد السوفيتي أو بلد اشتراكي أخر لكني رفضت العرض رفضاً قاطعاً وقلتُ له لو كنت أريد إكمال دراستي لفعلت ذلك قبل سنوات إذ أقترح عليّ والدي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

السفر لأي بلد وعلى نفقته لكنني رفضت أيضاً مفضلة البقاء والنضال من أجل تحقيق حلمي بالعدالة والمدينة الفاضلة.

لقساوة الحياة والطبيعة والظروف الأمنية من قصف مدفعي يومي على موقعنا وانعدام ابسط مستلزمات الحياة الصحية وسماعي قصص معاناة العوائل التي لا يزيد عددها عن ثلاث بصحبة أطفالهم من أجل الحصول على الحليب مثلا والمستلزمات التي يحتاجها الأطفال في الحياة الطبيعية من تعليم وملابس وتغذية صحية و لقاحات ضد الأمراض المعدية المميتة كانت معدومة تماما. إنهم يعيشون عيشة الكبار لا العاب، لا مدرسة، ولا اي شي له علاقة بحياة الأطفال حتى ملابسهم كانت مثل زي المقاتلين يعني سروال وقميص بل بالعكس كانوا يشاركون الكبار أحاديثهم وهمومهم كما يعيشون لحظات الرعب والخوف والترقب من القصف المدفعي وطلعات الطيران الحربي والهليكوبتر اليومي على مواقع الثوار. يعني طفولة مشوهة وقاسية جدا. قررنا أنا وزوجي التخلص من الحمل وبأي طريقة.

أخبرت الرفيق -أبو تانيا- بقرارنا. ثم أخبرنا الرفيقة -أم هندرين- طبيبة الموقع بقرارنا. كانت شبه مفاجئة لها، ردت بارتباك:

- لكن ليس لدينا مستلزمات وأدوات طبية لإجراء العملية وخصوصا أنت في الشهر الرابع من فترة الحمل!

ساد صمت قصير، كنا نقف جانبا جوار الطبابة والرفاق أمام القاعة يكسرون الحطب، استدركت قائلةً:

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- هناك إمكانية استعارتها من رفاق الحزب الديمقراطي الكردستاني، سنحاول!

كان مقرهم مجاور لمقرنا وعلى حافة "الزاب الأعلى" تماماً.

حذرتني من خطورة العملية واحتمالات النزف الشديد وما يصاحبه من مضاعفات أخرى. لم يكن أمامي خيار آخر فوافقت بالرغم من جراح تجربة الإجهاض في عيادة طبيبة في بغداد إذ وصلتُ حافة الموت فيها.

هيأت ام هندرين العيادة المتواضعة جدا، والتي كانت مجرد غرفة من الطين، تفترش ارضيتها بعض الفرش الاسفنجية وبطانيات قديمة، ومدفأة مصنوعة بمهارة من تنكات دهن الراعي الفارغة، مربعة لها فتحة في إحدى الجهات يلقم فيها قطع الخشب الصغيرة وفتحة أخرى متصلة بصفيحة مدورة تخرج من سقف الغرفة، يخرج منها الدخان عرفتُ لاحقاً من تصنيع الرفيق أبو حسن حبيب ألبي والذي كان منقذاً لنا من صقيع ليل الشتاء. لا ضوء ولا سرير ذهبت برفقة الرفيقة -هدى- هناء ياسين أخت الشهيدة -عايدة ياسين[1].

[1]() تُعدّ **المناضلة عايدة ياسين (المعروفة بـ "أم علي")**، المولودة في البصرة عام **1944** لعائلة كادحة، واحدة من أبرز القامات النسوية والسياسية في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي؛ إذ انخرطت مبكراً في النشاط الطلابي والنسوي عبر "رابطة المرأة العراقية"، وتدرّجت في نضالها السري عقب انقلاب 1963 لتساهم بفعالية في إعادة بناء تنظيمات الحزب في بغداد، وتتزوج لاحقاً من القيادي بهاء الدين نوري. وتتويجاً لمسيرتها، انتُخبت عام **1976** كـ **ثالث امرأة تعتلي عضوية اللجنة المركزية للحزب**، وعند اشتداد الهجمة البوليسية للنظام الحاكم أواخر السبعينيات، **رفضت مغادرة البلاد** واختارت البقاء سراً في العاصمة لإدارة "مركز العمل" والتنظيم الداخلي،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لا أدري من أين أتتني القوة في تحمل العملية بدون تخدير إذ لم يكن متوفراً لا عندنا ولا عند طبابة الحزب الديمقراطي الكردستاني.

بدأت "أم هندرين" بالعملية. كنت أشعر ببرودة السكين الحادة تتوغل في رحمي والرفيقة "هدى" تمسك بيديّ في محاولة لتهدئتي من هول الرعب الذي يعلن عنه جسدي بالارتجاف. كنتُ أختض مثل سعفة، وأردد جملة واحدة حينما تسألني الطبيبة، أن تكمل العملية، كنتُ أتصنع الصبر والتحمل والتماسك مرددةً لأم هندرين ألا تفكر في الألم الذي كان يقطّع أحشائي.

أجريت العملية بمشرط واحد وبدون تخدير وعلى ضوء فانوس في حلكة غرفة لا نافذة فيها. كان كل تفكيري هو إتمام العملية دون أن يحدث قصف مدفعي كما أعتدنا كل مساء، أو إنزال عسكري نتوقعه كل لحظة وكل يوم. أن مجرد التفكير بهذا وأنا بهذا الوضع كان يشل مفاصلي ويذهب بي إلى أقصى حالات الرعب.

تجلدتُ ظاهراً وبينتُ للرفيقتين أنني لم أشعر بالألم وأنا مذبوحة ألماً من حد المشرط الذي يقطع بأحشائي، ومن شعوري بالذنب لقتل كائن حي كان يرتع في بحر رحمي ويسمع نبضات قلبي ويشعر بحزني على فراق أخيه ذو الثلاثة أعوام.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

حتى جرى اعتقالها في **تموز 1980** لتضرب أروع أمثلة الصمود الأسطوري رافضةً إفشاء أسرار رفاقها، إلى أن **استشهدت تحت التعذيب الوحشي** وظل جثمانها مغيباً تماماً.

تكللت العملية بنجاح كانا توأم، ولدان. قادتني منهكةً الرفيقة "هدى" إلى غرفة الرفيقات في الفصيل المستقل الواقعة في عمق الوادي، حيث اعتنت بيّ أم نصار زوجة الرفيق جابر هَجول "أبو نصار" الذي فقد ساقه لاحقاً في معركة مع قوات السلطة وعانى من تجربة مشابه حيث أجريت له العملية في مقرات الثوار الفقيرة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

غرفة الرفيقات

مرَّ أكثر من شهر على مكوثي في فصيل المكتب السياس (م س)، لم أعتد بعد على طبيعة الحياة في مقرات الثوار حيث الأماكن التي لا يصلها المرء إلا مشياً على الأقدام وعبور قمم وأنهار ومضايق، حياة قاسية بدائية جداً، لا ماء إسالة لا كهرباء، حمام من الحجر مظلم تماماً تواليت واحدة هي عبارة عن بطانيات مرتبة بحيث تحجب النظر عن المستخدم وتبعد ما يقارب خمسين متراً والحياة العسكرية القاسية من التدريب على السلاح وإتقان استخدامه، وواجب ساعة الحراسة الليلية في عتمة الجبل الشديدة حيث ينتابني شعور في كل نوبة حراسة في ساعة متأخرة من الليل باقتراب نجوم الليل والقمم المحيطة مني حتى تكاد أن تجثم عليّ وكأنني محجوزة في صندوق أسود ضيق فتنحبس أنفاسي فاضطر إلى فتح البطارية اليدوية للحظة لأتأكد من المكان بالرغم من التوصيات بعدم استخدام الضوء كونه سيكون دليلاً في عتمة ليل الجبل في حالة تسلل مفارز الاستخبارات التي تقصف وتنسحب أحياناً، يضاف لكل هذا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مبيتنا أنا وزوجي في غرفتين مستقلتين.

كان زواجنا مدنياً بعقد وشرعياً بحكم الأعراف، لكننا لم نسكن في غرفة واحدة، وكان هذا بالنسبة لي أمراً غريباً في مكان من المفترض أن يكون المثال في ممارسة الحرية واحترام الإنسان ووجوده تحت سقف "الإنسان أثمن رأسمال" لكن وجدت نفسي أعيش تجربة مريرة عشتها في ظروف تخفي زوجي حينما عاد من بين الثوار وسكن في أمكنة سرية تكشفت لي لاحقاً فرض فيها من أخفاه عدم اتصاله بيّ كوني قد أكون خيطاً يصل السلطات إلى مكانه فيما لوكنت مراقبة، وكنت أتفهم الوضع في تلك الظروف وأولئك البشر الذين خاطروا بحياتهم وأخفوا زوجي زمن الدكتاتور والحرب، زمن يحاسب فيه الإنسان على كلمة ورأي فكيف بإخفاء ثائر كان يحمل السلاح ويقاتل السلطات، كانت أياماً تطفح بالمرارة وأنا أتحسس بخيالي حضنه الدافئ وهو يعانقني ويعانق ولدنا الوحيد وقتها كفاح، ها أنا أعيش في ظروف أشد مرارة فزوجي قريب لكن يعز عليّ النوم جواره وعناقه وكأن ذلك في عُرف الثوار محروم على الأزواج العناق والوصال. عشت في اضطراب هذه الأفكار والحواس.

سكنت مع عدد من الرفيقات المتزوجات ورفيقة واحدة لم تكن متزوجة في غرفة أطلق عليها "غرفة الرفيقات". لا تبعد سوى عشرة أمتار عن القاعة التي ينام فيها زوجي مع الرفاق، نساء لم أكن أعرف عنهنَّ أي شيء سوى أسمائهن الحركية، كن حيويات، متحمسات، تحلقن حولي في أول يوم ألتحاقي ورحن يسألنَّ عن الحياة وأحوال الناس في مدن العراق، وهل يعرفون

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بحركتنا المسلحة وبوجود عراقيات يحملن السلاح من أجل الحرية والعراق والناس ويحاربن الدكتاتور؟، فكنت أروى لهنَّ مشاهدات وملاحظاتي عن انشغال أبناء جلدتنا بمجرى الحياة ، وانصياع من نضحي ونعمل سراً من أجلهم للسلطات خوفاً من بطشها وكأن الدكتاتور قدر نزل على العراق إلا القلة القليلة من أمثالنا الذين يتعرضون للاعتقال والتصفية الجسدية من قوات الأمن الوحشية، كنت أرصد الخيبة والانكسار في عيونهنّ المحلقة في وجهي، وكانت أجسادهنَّ تتشنج ويطلقنّ صيحات الدهشة حينما رويت لهنَّ قصصاً من مدينتي أعرف أصحابها عن أبناء وشوا بالآباء، وعن أباء سلموا أبنائهم الفارين من الجبهات للسلطات فاعدموا.

كنتُ مع ست رفيقات، هدى، زينة، مجده، أم وهاب، ونغم.

قبل أن أسكن غرفة الرفيقات، كان الأزواج ينامون مع زوجاتهم في الغرفة نفسها، حيث تتجاور الأجساد في ضيق الغرفة والظلام، لكنني منذ الوهلة الأولى رفضت النوم وسط هذا الجو، حيث يشاركني بخصوصية علاقتي الحميمة رفاق ورفيقات فبالرغم من حلكة الغرفة، لكن فيها تتحول الأذان إلى عيون ترى أقل صوت مجسداً، رفضتُ الفكرة التي تعرض خصوصية لحظة توهج مشاعري وجسدي وهو يمنح كُلي لشريك حياتي، اعتبر هذه اللحظات خاصة جدا مقدسة وتخصني وتخص الساكن كياني.

كيفَ لي وصف مشهد لحظة رفضي؛ تبدلت نبرة أصواتهن خفتت مكسورة، تأتأنَّ بكلام مبهم، لم يستطعنّ الرد حينما بينت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

السبب وخصوصية سرير الزوجية وصار الاتفاق فانتقل أزواج الرفيقات إلى قاعة الرفاق حيث ينام زوجي، لأذوق لاحقاً لوعة عطش الجسد وحاجة الروح للارتواء من حنان ودفء جسد شريك الحياة الغافي في وسط أجساد الرفاق المحرومين من دفء العائلة والأم والزوجة، كان قرار قيادة القاطع بحرمان الأزواج من بناء غرف صغيرة خاصة بهم غير مبرر فالوادي

كبير و شاسع وعميق ووعر من الصعوبة على قوات السلطة الوصول إليه.

على أساس موقفي لم يعد يسمح للأزواج بالمبيت مع زوجاتهم في الغرفة، لكن جرى اتفاق بين الزوجات على السماح للزوج الذاهب بمهمة في مفرزة تطول عادة أكثر من عشرة أيام المبيت مع زوجته وسط الرفيقات بما يحاكي سرير الوداع، فليس من المؤكد عودته، إذ تقع بعض المفارز المتوجهة من مقرنا "زيوة" خلف العمادية إلى مقر "لولان" في المثلث الحدودي العراقي الإيراني التركي في كمائن تنصبها قوات الجندرمة التركية حين تضطر المفارز لدخول الأراضي التركية في طريقها، كما حدث لمفرزة كبيرة استشهدت فيها الرفيقة "أنسام" في السنة التالية للأحداث التي أرويها.

وبمرور الأيام وتراكم الليالي الموحشة وشوق الجسد لعناق الحبيب والغور به، ولوعة الرغبة المكتومة في احتواء الآخر القريب البعيد الراقد بين أجساد الرفاق في القاعة المجاورة، المتقلب هو الآخر بجمر رغبته في احتواء جسد الزوجة الحبيبة الذي خبرَّ مفاتنه ومباهجه، أدركت بوقتٍ متأخر مرارة الخيبة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

التي ارتسمت على قسماتهن ومدى عمق الخذلان الذي جعلهن يصمتن وأنا أرفض بشدة نوم الأزواج بشكلٍ مشترك في نفس الغرفة.

عشتُ ورفيقاتي تجربة سحق المشاعر وكتمها في تجربة شديدة القسوة بالإضافة إلى مشاق الحياة وصعوبة المهام اليومية، من السير مسافات طويلة وصعود السفوح إلى الغابات البعيدة وتجميع وحمل الأشجار التي يقطّعها الرفاق والتي يسقطها القصف المدفعي، و استخدامها للطهي و لتسخين الماء لغرض الاستحمام، وغسل الصحون، والحراسات، مشاق يومية جعلها الحرمان من جسد الشريك القريب البعيد أشد وطأةً، فعشت الأمرين الحرمان من دفء الشريك الذي كان سيخفف لوعة ترك فلذة كبدي "كفاح" في مدينتي الجنوبية البعيدة الذي كنت أحلم كل مساء بأصابعه تلعب في شعري و أنفاسه الدافئة تلفح وجهي.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

شوق الحبيب لا مصد له

بحكم موقع مقر فصيلنا المستقل في عمق الوادي الصخري الجاف والذي يتحول في الصيف ما يشبه الغرفة الخانقة التي تجعلنا نتصبب عرقاً نضطر إلى الصعود قرب القمة القريبة من فصيل "الدوشكا" فنعمل على إشادة "كبرات" وهي هيكل من سيقان الأشجار تغرز في مساحة مستوية على السفح وتشبك سيقان صغيرة بأوراقها بما يشبه الجدران الخضراء وكذلك السقف أما الباب فيحجب ببطانية رثة غير صالحة للاستعمال لكنها تفي بالغرض، كان أول صيف لي بين الثوار، كدت أطير من الفرح ونحن نبني عشنا الأخضر الذي بحجم فراشنا، وأخيراً سأحضن حبيبي وأنام قلت مع نفسي وأنا أهم في حمل أغصان الشجر لشبكها جدراناً تمنحنا الخصوصية التي تقررها الأعراف الاجتماعية والقوانين المدنية للحياة الطبيعية للمتزوجين، إذ لم أعش حياة زوجية كبقية النسوة المتزوجات.

فبعد مرور عشرة أشهر استدعيَّ زوجي لخدمة الاحتياط في أذار 1982 فقلب وضعنا المتأرجح رأساً على عقب، إذ زجَّ به

منشورات «ألف باء AlfYaa»

في جبهة شرق البصرة في أوج موجات الهجوم الإيراني عليها في صيف ذلك العام، وحينما عاد في أول إجازة في حومة المعارك الطاحنة، لم يغادر بيتنا المستأجر في طرف الديوانية الجنوبي قائلا:

- ناهدة سأبقى في البيت

- والعمل وحياتنا

- ما أدري لا أريد الموت في هذه الحرب!

واتفقنا على أن يبقى هو وحيداً في البيت وأعيش عندَ أهلي وكأنه التحق، وأعود ثانية وقت إجازته، لم تمض فترة طويلة على هذا الوضع، إذ أوجد له صلات بالرفاق في الجبل ورتب أمر التحاقه، أتذكر تلك اللحظات فيعصرني الألم لحظة الكتابة، خرج بصحبة ابن خاله "كريم مهدي" كنت أحمل كفاح الذي عبر الستة أشهر من عامه الأول وهو يحاول رمي جسده إلى والده، حَضنهُ وأعادهُ لي وقبلني قبلة حارة واستدار ليغيب في ضجة الشارع العام القريب، فسارعت بالخروج من البيت، كانت جدرانه تكاد تطبق عليّ، ولا أدري كيف وصلت إلى بيت أهله في الحي العصري حاملة ولدي، فتحت أمه الباب ونظرت في وجهي بعمق قائلة:

- ها يمه راح سلام

فأومأت لها فأدخلتني، عشت أشهر ستة وحيدة أتنقل بين بيت أهلي وأهله، لم تبعث وحدته التي سنعلم لاحقاً تحطمها في الهجمات بكتاب هروبه، لَبستُ السواد وأشعتُ بأنه مفقود، ويا

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

لثقل تلك الأيام ومراراتها، فاجأني بعد أشهرٍ ست بعودته متخفياً، قابلته المرة الأولى في بيت أخته "وداد" مدرستي في الإعدادية بمادة الكيمياء، أخذني له زوجها "حازم مرتضى" بسيارته، من الباب هرولت وكفاح بين يدي حينما رأيته واقفاً وسط الصالة بقامته الفارعة ورميت نفسي بين يديه، لم أره بعد ذلك فقد تخّفى في أمكنة مختلفة بعضها فُرضَ عليه مقابل اخفائه عدم اللقاء بيّ، وبعضها تمكنت من اللقاء به. كان عليّ الصبر وتحمل فراقه فحرمتُ من عبق جسده ورائحته المسكرة التي بتُ أشمها في الأمكنة التي مررنا أو عشنا بها.

وهنا بين رفاقي الثوار عشت مرة أخرى فداحة الحرمان والشوق لعناق الحبيب وتوسد طوله ليلاً، لذا كان الصيف بهجتي وبيت الأغصان جنتي التي لم أجد أروع منها بقية العمر، فهناك نرقد دون هموم حياتية عدا مخاطر تسلل العملاء وقصف الطيران والمدفعية، فقط ملابسك و وثائقك، و واجبات الحراسة والطبخ والخروج في المفارز، كانت تجربة الصعود في الصيف جديدة أيضاً إذ عشت في أمكنة لم أكن أحلم العيش فيها، فأثناء عملنا لبناء بيوتنا الخضراء كنت أفزع فكلما رفعت صخرة لاستخدامها في تثبيت الأعمدة أرى مجموعة من العقارب منتشرة تبحث عن مخبأ شاهرة إبرتها المتهيئة لتفريغ السُم، اختفت العقارب بعد مرور أسابيع على سكننا المكان، لكن في ظهيرة لاهبة، انتهيتُ من نوبة واجب الحراسة البالغة ساعة واحدة من القلق، ورفاقي الأنصار يخلدون للقيلولة ومسؤوليتي في حالة حدوث طارئ، قصف مفاجئ، إنزال عسكري، تسلل، كنت أحلم بغفوة آمنة بين ذراعيّ زوجي الذي حرمتُ منه أيضاً

منشورات «ألف باء AlfYaa»

هنا بين الثوار لأشهرٍ تسع بسبب قرار قيادة قاطع بهدينان؛ عدم السماح للأزواج ببناء غرف مستقلة.

نزعت صف مخازن الرصاص ووضعتُ بندقيتي جوار الفراش، وتوسدت طول زوجي الغافي، وفي غمرة النعاس والخدر سمعتُ صوت خشخشة قوية تبعتها حركة وكأن تحت فراشنا شيء يتحرك، فقزتُ مرعوبةً أرتجفُ مثل سعفة في مهب الريح، حملت بندقيتي متأهبة، وسارعت بأيقاظ زوجي الغافي، كان يغط في نومٍ عميق من تعب متطلبات يوم الجبل الشاقة، تململ فناديته باسمه

- سلام أگعد ما أدري شنو يتحرك تحت الفراش!

فانتفض وتناول سلاحه بندقية بي كي سي، ورفع الفراش فظهرت تحت النايلون المفروش حية تسعى وتحاول النفاذ خارج النايلون المثبت جيدا من الاطراف، ملكني الفزع فهربت خارجة من بيتنا الأخضر، سمعته يناديني

- بهار أعطني صخرة

فحملت صخرة صغيرة ودخلت فرأيته يضغط على وسطها بأخمص البندقية وهي تتلوى تحت النايلون الشفاف، أزداد هلعي إذ لم يقع بصري سابقاً على حية بهذه المتانة والطول، فرميت الحجر عليها، فصرخ بيّ:

- أعطيني حجرة كبيرة

وجدت واحدة وضعتها بيده فبدأ يضرب بيد وبكل ما به من قوة على رأسها وبنفس الوقت يضغط باليد الأخرى الماسكة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

البندقية على وسطها إلى أن سكنت تحت النايلون أزحنا النايلون، اخرجناها كانت أفعى رصاصية طولها أكثر من مترين رأسها مثلث من النوع السام والقاتل.

بالرغم من هذه المشاق والمخاطر المحيطة كان ذلك الصيف من أجمل أصياف عمري، كنت أنتظر بلهفة عودة زوجي من مفارز البريد الطويلة من خلف العمادية وحتى المثلث الحدودي - الإيراني العراقي التركي- والتي تستغرق أكثر من عشرة أيام ذهاباً وإياباً، لكن حدث ما أثار غضبي، فعادة يقوم الرفاق الأقوياء بترميم قاعة الرفاق والغرف الأخرى وتهيئتها لفصل الشتاء، وكان زوجي ضمن مجموعة العمل، بدأ الأمر طبيعياً للوهلة الأولى، وجزءاً من مهام الأنصار المتواجدين في المواقع الخلفية، لكن ما أثار استغرابي وزادني كمداً وتشوشاً وحيرةً هو قرار مكتب الفصيل بمبيت رفاق العمل في الموقع الشتوي وعدم السماح لهم بالصعود إلى المقر الصيفي، وكان أربعة منهم متزوجين، ما هذا يا إلهي؟ ما هذا؟، هل كان القرار منطقياً ومعقولاً، وإلى متى أعيش الحرمان من دفء أنفاس حبيبي في قسوة تلك الحياة البدائية، وهل من المعقول أبات وحدي في حلكة البيت الأخضر الصغير وحبيبي في بطن الوادي على مسير ساعة أو أقل؟، أصابني إحساس وكأن الحزب مصمم على تفرقة الأزواج عن زوجاتهم.

قبيل مغيب الشمس وبعد أن أكملت واجباتي وتأكدت أن الليلة لدي استراحة من الحراسة الليلية، قصدت مكتب الفصيل فاستقبلني "أبو برافدا" (الرفيق "علي عودة" أصبح عضو لجنة مركزية في السنوات العشرة الأخيرة قبل رحيله بحادث سير في

منشورات «ألف باء AlfYaa»

طريق بغداد- كركوك قبل سنوات أربع) آمر الفصيل العسكري قائلا:

- ها رفيقة

ودون أدنى تردد قلت له:

- نازله أبات مع زوجي بالمقر الشتوي!

ساد صمت مطبق لدقيقة، كان يحاول استيعاب الأمر، ثم قال بصوتٍ لا عزم فيه:

- رفيقة ممنوع

- ليش ممنوع واجب ما عندي وبدل ما أنام وحدي سأنام مع زوجي! بكرى من الصبح راجعة!

قلت جملتي وانحدرت على الدرب الجبلي الضيق النازل مع جدول الماء الصغير حتى المقر. لم ألتفت إليه، نزلتُ مع سلاحي وحدي وقت الغسق ولون الشمس ينعكس على الصخور ويجعلها جمرا متوهجا يضئ لي الدرب الوعر المليء بالأفاعي والعقارب. أعرف الطريق جيدا، لم يأخذ مني أكثر من ساعة إلى عمق الوادي. دخلتُ على الرفاق وهم يخلدون إلى أفرشتهم في القاعة الكبيرة، توقفوا عن الكلام والصخب، وظلوا يحملقون نحوي بصمت، وخصوصاً الرفاق الثلاثة الذينَ تركتُ زوجاتهم خلفي في المقر الصيفي، كان دخولي كصاعقة نزلت عليهم، ظلت أفواههم فاغرة من هول المفاجأة، بينما توجهت نحو زوجي "أبو الطيب"

من يجرؤ على كسر قرارات الحزب؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كان زوجي ورفيق آخر يجلسان في الزاوية المقابلة للباب يتناقشان، نهض وألف سؤال في عينيه على مجيئي المفاجئ. سحبته من ذراعه، أشرت له بطرف عينيّ بأن لا شيء وهمستُ له:

- اشتقتُ لكَ.

حملَ فراشه وذهبنا إلى غرفة الرفيقات، شبعنا ضحك وأنا أروي له كيف أبلغت "أبو برافدا" بقى يردد:

- أنت ثورة مو ناهدة ولا بهار!

في اليوم التالي ضجت الرفيقات في الفصيل فألغي القرار!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ولادة في سجن

صحوتُ على رنينِ التلفون، نظرتُ إلى شاشتهِ الصغيرة الزرقاء، كان الرقم يبدأ بالمفتاح الدولي البريطاني، مررتُ أصبعي على رمز الجواب.

- هلو بهار.. أنى"احلام".. ما عرفتيني؟

ترددتُ الردِ عليها بالإيجاب لعدم معرفتي صوتها للوهلة الأولى لكن بغتةً سطعتْ النغمةُ وأيقظتْ الذاكرة فانبثقَ وجهها الأبيض المدور، وعيناها الواسعتان، السوداوان، وابتسامتها المبهجة التي تزين وجنتيها المتوردتين كتفاحة ناضجة، مرَّ أكثر من خمسة وثلاثين عاما على لقائنا في فصيل المكتب السياسي بوادي زيوة خلف العمادية مقر قاطع بهدينان.

لم يمض على التحاقي إلا بضعة اشهر حينما وقعَ نظري عليها، جاءتْ (احلام) إلى الموقع برفقة (محمود) رفيقها وحبيبها الذي تربطه علاقة صداقة قديمة مع زوجي، فتواشجتْ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

علاقتنا وتعمقتْ باللقاءاتِ وتشعبْ الأحاديث عن ذكريات حبيبها وزوجي المشتركة حيث كان "كفاح" شقيق زوجي الذي قُتِلَ تحت التعذيب وأبلغ عن إعدامه 1983 زميله في الجامعة التكنولوجية، وكانا معاً في خليةٍ حزبيةٍ واحدةٍ، بعد أيامٍ معدودةٍ تزوجا في القاعدة، فأعرتها خاتم زواجي وقرطيَّ ذهب كنتُ قد حملتهما معي حينما التحقت، كي نضيف شيئاً مدنياً وجدياً على طقوس زواج الثوار الفقيرة حيث لا مهر ولا ذهب، بدتْ عروساً بهيةً ببدلتها البيضاء التي جلبها رفاق في التنظيم المدني من عوائلهم في العمادية، إذ أضفتْ البدلةُ وقطع الذهب ترفاً على مظهرها الخارجي.

بعد مضي أسبوع من زواجهما تسللا إلى الداخلِ للعملِ ضمن تنظيمات الحزب داخل المدن فانقطعتْ أخبارهما لِسريةِ العمل وخطورتهِ في زمن الدكتاتور.

عرفتُ لاحقاً أنهما وقعا في قبضة السلطة بوشايةٍ من الشخص الذي أَمّنَ لهما السكن في "الموصل" والذي تبين أنه كان عميلاً مزدوجاً.

حدثتني بعفويةٍ والكلمات كانتْ تنساب مع شيءٍ من الوجعِ والغصّةِ في نبرةِ صوتها عبر الهاتف كاشفةً طرفاً من معاناتها المريرة، كانت مرتبكة تتلكأ في صياغة الكلام وتصمت قليلا في فواصل وكأنها تنتقي من القصة ما يلائم الحديث مما جعلني على يقين بأنها لم تخبرني بكل ما جرى لها من مرارة وعذابات في زنازين (الأمن العام وسجن الرشاد ببغداد) المركونة في مخبأ عميق جداً في روحها، تحاشت البوح بها حتى تلك اللحظة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

من حديثها.

حاولتُ التخفيف من لوعتها وشجعتها على البوح بالتعليق والمشاركة الحسية بالتعبير عن ألمي ودهشتي مما تسرده عما جرى لها في زنازين أعتى دكتاتور حكم العراق، وحاولت مشاركتها الحديث بالأسئلة، فسألتها:

- كيف ومتى أُلقيَ القبض عليهما؟

فبدأت بالروي؛ سكنتُ و"محمود" في مشتمل مع عائلة في حي من أحياء "الموصل" وفرتهُ منظمة المدينة الحزبية منذ نزولنا في منتصفِ عام 1985 الرفيق صاحب البيت كان الصلة بيننا وبين الحزب.

كل شيء كان يسير مثلما كانوا يخططون له، تحركاتهم في بغداد ونواحي "تكريت" مسقط رأس زوجها الذي خطط لكسب حماية الدكتاتور من أقربائه والتخطيط لاغتيال -صدام حسين- وهو لا يعلم بأن تنظيم المدن كان مخترقاً من أجهزة أمن السلطة وتحركاتهم مرصودة تماما وعيونها مزروعة من أقصى نقطة في الجنوب إلى أقصى نقطة في جبال شمال العراق الوعرة.

أسجل هنا سرداً ما أخبرتني به -أحلام- بصوتها المتكسر ألماً، أكملت قصتها:

أخبرهم صاحب البيت بأن الأيام القادمة ستكون خطرة على وجودهما في الموصل بسبب قرب موعد التعداد السكاني، كان ذلك في تشرين أول 1987 لذلك يتوجب عليهما مغادرة البيت والذهاب إلى مكان آخر أكثر أمناً وبعيد عن عيونهم، صمتتْ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

قليلا فسمعتُ صوتَ أنفاسها اللاهثة بخفوتٍ لتكمل بصوتٍ فيه ذعر وكأنها تعيش تلك اللحظات من جديد.

سافرنا إلى بغداد لنختفي في بيت أهلي وهناك التقيتُ بإخوة زوجي وأولاد عمومته، كان زوجي على صلة بهم ويعول عليهم بالتعاون معه في تنفيذ عملية اغتيال رأس الحية المتربع على قمة هرم الدولة.

كان يوماً مختلفاً مليئاً بالدفء العائلي، حنان أمي وتماسك أبي وأخوتي وأخوة زوجي، لقاء أحبة كانوا سنداً حصيناً من رعبِ سلطة صدام وجلاوزته، قضينا قرابةَ شهرٍ ثم ودعناهم ونحن في نشوةِ مشاعر تكاد تكون ضرباً من الخيال عن قربِ القضاءِ على رأس الأفعى.

توجهتُ وزوجي إلى محطة القطار الصاعد إلى الموصل، قطعنا تذكرتين وجلسنا على مقاعدنا في العربة، حينها كنتُ حامل في الشهر السادس. جلست إلى جانب الشباك ورحتُ أحلم بساعةِ الخلاصِ من حاكمِ بلد الخوف والرعب متأملة الحقول الراكضة خلف النافذة والفضاء الواسع ويدي تمسد بطني متحسسةً جنيني الذي كان يتكور متقلصاً وكأنه يهجس بمشاعر الترقب والخوف من الوقوع في أيدي جلاوزة النظام الصدامي.

بدأت مدينة بغداد تبتعد وتخفت بأضوائها كنجومٍ في سماءٍ ترابيةٍ، تزايدتْ سرعة القطار فبدت علامات وإشارات الطرق المحاذية لسكة القطار تزداد قتامة.

بغتة توقف القطار في محطة التاجي، دخل عربتنا أربعة رجالٍ بلباسٍ مدني من البابِ القريبِ، بعيونهم الفاحصة القادحة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المحدقة نحونا ملامح وجوههم الناضحة غلاً وقسوةٍ، لكزني زوجي من ساقي هامساً بالحذر من الأشخاص المتوجهين نحونا، كان حدسه صحيحاً وهاجس الوقوع بأيدي السلطات صارتْ أمراً واقعا، أبرزوا هوياتهم الخاصة بجهاز أمن الدولة، أحاط بيّ أثنان منهم، إحداهما انقض على معصميّ وربطهما بجامعة حديدية وأمرني بالصعود إلى حوض سيارة كانت تنتظرنا مع سائقها، وفعلوا نفس الشيء مع زوجي وأصعدوه في سيارة ثانية، من تلك اللحظة بدأت رحلة الرعب والانتهاك في بواطن زنازين الجحيم في عالمِ الظلماتٍ السفلي.

طيلة الطريق كنتُ أفكر بكيفية التخلص من الوثائق والأدبيات الحزبية التي كانت بحوزتي. كنتُ أظن أنها الدليل الوحيد على عملي السري في تنظيم الحزب.

عند اقتراب السيارة من وسط المدينة وشارع النضال أمرني الجالس بجواري ان انزل رأسي والانحناء إلى أسفل ضاغطاً بكفه القاسية على رقبتي، سمعت صوت باب يفتح وتبادل تحية مع من يقف في مدخل المكان، فأيقنتُ أننا ندخل دائرة الأمن العامة ببغداد حيث جحيم الأقبية وعذابها وظلماتها.

بوح "احلام" بصوتٍ يقطرُ وجعاً وانكساراً، فذهب بيّ بوحها إلى يوم التحاقي بالثوار، منتصف ظهيرة 22 شباط عام 1985، حينما نزلنا من سيارة الأجرة المتجه إلى ألقوش على الطريق العام رافضين دعوة السائق الذي أخبره رفيقنا الثالث بأننا نبغى إقناع زوج أختنا (يقصدني) بالعودة من العصاة، بأخذنا إلى ابن أخته ضابط أمن ألقوش لمساعدتنا، تذكرت تلك

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الركضة المرعبة من حافة الجادة عبر حقول مزروعة ومسقية للتو وحتى سفح الجبل حيث قريتي"خورزة" و "كرسافه"، مسافة أكثر من أربعة كيلومترات، قَطعها بسرعه وبلوغ القريتين يعني خلاصنا من قبضة السلطات، ترنُ في رأسي جملة زوجي الراكض خلفنا وهو يحثنا على الاستمرار وعدم التوقف حتى لثانية:

- أسرعا.. أسرعا وإلا سنقع بأيديهم وحينها ستتبرأ منا السماء والأرض!

إلى أن وصلنا متقطعي الأنفاس ونجونا. في سنين الجبل رفض زوجي رفضاً قاطعاً نزولي سراً للعمل في تنظيمات الداخل، وحقيقة دافعي بالنزول كان محاولة جلب أبني "كفاح" ابن الثلاثة أعوام الذي تركناه لدى أهلي بعدما مرّمرني الشوق له، رددتُ مع نفسي وأنا أسمع "احلام" تُمعن في سرد تفاصيل اعتقالها المرعبة:

- كم أنا مدانة لزوجي بخلاصي من الوقوع بأيدي السلطات ورجالها القساة القتلة

أكملت:

- توقفتْ السيارة، نزلَ السائق والآخر الجالس إلى يساري، ثم نزل الثالث الممسك برقبتي وأمرني بالنزول وعينيّ إلى الأرض، قبضَ على معصميَّ المكبلتين خلف ظهري ودفع بيّ باتجاه سلم حجري نازل إلى تحت بناية قديمة أدي بنا إلى ممر ضيق طويل أنتهى بغرفة عارية إلا من مكتب صغير عليه أوراق وأقلام ومصباح طاولة وخلفه كرسي هزاز يجلس عليه

منشورات «ألف باء AlfYaa»

محقق بملابس مدنية وملامح لم أتمكن من تبيانها إذ أخفتها ظلال الضوء المسلط على المكتب، أمرني بالجلوس على قنفة خشبية قديمة إلى يسار الغرفة، سألني عن اسمي وتاريخ ميلادي، وسؤال أخر أربكني

- هل تعرفين أين أنت الآن ولماذا؟

فأجبته:

- لا أعرف أين أنا ولا لماذا؟ وأضفت

- أريد الذهاب إلى التواليت، كما ترى أنني حامل!

ردد على الفور مبتسماً:

- نعرف كل شيء، كل شيء

وأشارَ برأسه إلى شرطي واقف بجوار الباب كي يرافقني إلى التواليت، جمعت كل ما بيّ من تركيز وعملت على التخلص من وثائق كانت في حقيبتي اليدوية والتي من المفترض إيصالها في الموصل إلى قيادة الحزب في الجبل، قطعتها ورميتها في فتحة التواليت وسحبتُ سيفون ماء التصريف. تنفست بعمق وارتحتُ مطمئنة إلى أنهم لا يملكون أي دليل ضديّ

أعادوني إلى غرفة التحقيق، وكرر المحقق سؤاله:

- لماذا أنا هنا؟

فأرد عليه نفس الجواب، فبدأ يفقد أعصابه بعد جوابي على سيل أسئلته عن التنظيم الذي أعمل به وأسماء الأشخاص الذين اتصل بهم والأماكن التي نلتقي بها، كنت أتصنع البله وعدم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

معرفة ما يتحدث به إلى أن يئس من الحصول على أية معلومات عن التنظيم فكشرَ عن أنيابه. بانت القسوة على ملامحه، نادى على الشرطي الواقف بجوار الباب قائلاً:

- أخذها إلى الغرفة الحمراء!

تساءلتُ مع نفسي ما هذه الغرفة اللي يسموها "الحمراء" لحظتها لم أكن أعرف أنها غرفة من الجحيم.

أدخلوني غرفة بابها من زجاج، تشعرك أن الجميع يراك، وكأنك فرجة في ساحة عامة، ومصابيح ملونة في سقفها تنطفئ وتشتعل كل الوقت، وحبال غليظة تتدلى من سقفها، في زاويتها بطانية عسكرية قذرة رصاصية اللون ستهاجمني بعد ساعة من جلوسي عليها جيوش من القمل، جدرانها ملطخة بدماء بعضها لا زال حاراً شممتُ أو خيل إليَّ رائحة مَن نزفَ وأخرى يابسة متحجرة كأنها منحوتة كشاهدة، عدا حشرات زاحفة وقوافل من النمل تجوبُ في أرضية الغرفة الترابية الرطبة.

أقفلوا الباب وتركوني ثلاثة أيام بأنهاراتها ولياليها، كنتُ أتبول وأقضي حاجتي في سطلٍ من النحاس داخل الغرفة، لم يكلمني ولم أرَّ أي شخص باستثناء من كان يضع صحن طعامٍ لا يستسيغ طعمه حتى الحيوان، وطوال الوقت كنتُ اسمع أصواتَ نساءٍ ورجالٍ تستغيث وتتوسل مخلوطة بأصوات ضربٍ مبرح لا يهدأ وكلمات بذيئة تحثهم على البوح بما لديهم من معلومات، ذوات مسحوقة لا حولَ ولا قوة لها سوى الأنين والتوسل. في فجر اليوم الثاني سمعت صوت امرأة تتوسل كي يقتلوها سأعلم لاحقاً أن غالبية السجينات تعرضن للاغتصاب وتمنين الموت

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

خلاصاً من رائحة أجسادهم الكريهة وفحيح أصواتهم وهم ينتهكون أجسادهن، عصف بيّ الخوف والذعر فجعل جسدي يختص مثل سعفة وجنيني الراقد في رحمي لم اشعر بحركته منذ لحظة اعتقالي.

دخل عليّ شرطي، عَصَبَّ عيني بخرقة سوداء، وقال:

- أسمعي يا عاهرة، وخليها في بالك هذه آخر فرصة لك، الأفضل لكِ أن تعترفي قبل أن نأخذك إلى حفلاتِ الفجر، والساعات المتأخرة من الليل الخاصة، وعود خلي "فهد" وسلام عادل" ينفعوكِ.

أدخلني بركلة إلى غرفة التحقيق بعد أن أزال قطعة القماش عن عيني، سقطت على الأرضِ، حاولتُ التماسكَ والوقوف بصلابة، أمرني ضابط التحقيق بالجلوس على كرسي يميل إلى كل الجهات، تلكأت فأجلسني الشرطي عنوةً وأبتعد، فشعرت بجسدي يكاد يسقط من كل الجهات إلى هاوية تحيط بيّ، كان وهماً شديد الواقعية زاد من رعبي رعباً، وبينما كنت أتأرجح وأشدُّ جسدي إلى مركز الكرسي المخيف قال المحقق كلاماً صعقني صعقاً

- هذه الأمن العامة وليس موقع "زيوة" بهدينان.

افتعلتُ البلاهة وتظاهرت بعدم الاهتمام وكأنني لا أعرف عما يتحدث، بينما داخلني هاجس بأنه يقصد أو يوحي لي بأنهم يعرفون كل شيء عن تحركاتنا أنا وزوجي، أخذ نفساً عميقاً ودار بكرسيه قبل أن يضيف بثقة:

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- لدينا كل شيء عنكم، لكن نريد تخبرينا طواعية بكل ما تعرفيه وتتعاوني معنا حتى ترتاحين ونرتاح.

لزمت الصمت وتماديت بتمثيل دور البلهاء، أمعن في ضغطه قائلاً:

- الصمت والإنكار لا ينفع! اسمعي زين!

وطوقني بأسئلةٍ دقيقة بعد أن عرض كَمْ من المعلومات عن تنظيمنا، تحركاتنا وكأنه كان يعمل معنا أو يشرف على عملنا، إذ كان يعرف الأسماء والمواعيد والأمكنة التي نلتقي بها، وما كنا نتداوله في تلك اللقاءات والاجتماعات.

نهض من كرسيه غاضباً، ودار حول المنضدة مقترباً مني بسرعة وصفعني صفعةً قوية جعلتني أسقط من الكرسي المتمايل، ثم ركلني في بطني حينما أنكرت كل ما قاله وادْعَيتُ أنني امرأة متزوجة وحامل وزوجي عسكري في الجبهة يأتي بإجازة سبعة أيام في الشهر، ولا أعرف أية معلومات عن تحركاته، كان الوقت ثقيلا وهذا المسخ لا يمل ولا يعرف الرحمة.

نادى على الشرطي الواقف في الباب وخاطبه:

- خُذ هذه "الشيوعية العاهرة" التي لا ينفع بها الكلام.

أخذوني إلى مكان مظلم، رطب، وبدأت حفلات الضرب والتعذيب، أروني نجوم الليل في عز النهار. نالني التعبُ وضعف جسدي فأصبح يصعب عليّ الوقوف.

وفيما كانت "أحلام" تروي تفاصيل انتهاكها وقلة حيلتها

منشورات «ألف باء AlfYaa»

رحلتُ بعيداً إلى ما رواه لي أبي حينما التقيت به في الشام بعد فراق طال سبعة عشر عاماً، في شقةٍ استأجرتها في "السيدة زينب" بأطراف مدينة دمشق في تشرين أول 1999.

- بوية يا نهودة ما تعرفين أش جرى لنا بعد غيابك من الديوانية، أخذوني من الدكان وسط السوق، وجوههم قاسيةِ قساوة الوجوه اللي اعتقلتني في الثالث والستين، أول ما دخلنا دائرة الأمن عصبوا عينيّ بقطعة قماش اسود وانهالوا عليّ بالسَبْ والشتائم لا لسبب إلا لكوني والدكِ.

أخذ نفساً عميقاً قبل أن يعاود الروي، قلتُ لهم: أنها متزوجة منذ أربع سنوات، ليس لدي أي سلطة عليها، المرأة تتبع زوجها، كانوا كأنهم لا يسمعون، شعرت بهم يتلذذون بإذلالي وسحقي.

صمتَ قليلاً وبدأ يلهث وكأن ما جرى له قبل أكثر من سبعة عشر عاماً يجري الآن، تخيلتُ المشهد وأبي يصف تلك اللحظات.

اللحظة التي اقتادوني بها إلى مديرية أمن الديوانية كانت من أقسى لحظات عمري، ما ساعدني على الصمود هو شخصيتك الكتومة وسرية حياتك السياسية، كنت أحملق به وهو يجلس على سجادة صلاته، تخيلتُ رعبه بين أيديهم، صمت قليلا مرة أخرى قبل أن يردف مكملاً:

- وضعوا ورقة بيضاء أمامي وقالوا وَقّعْ، قلت:

- على ما أوقع، قالوا:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

براءتك من ابنتك الشيوعية ال- عا-هر-ة، وقع هنا وبدون كلام.

وَقَعتُ الورقة وأنا أشعر بفخرٍ كونك مناضلة خلصت نفسها بِذكاء وشجاعة من السقوط بأيديهم.

سحب جسده إلى الخلف قليلا ليتكئ على الحائط فأ انتقلت من مكان جلوسي لأكون قبالته وهو يكمل:

- بوية نهوده المصيبة أمك اللي صارت شبه مجنونة، ما خَلَتْ سجن يعتب عليها، كل يوم وبعد ما تصلي صلاة الفجر، تطلع وما ترجع إلا والظلام نازل، لم تترك سجنا الا وزارته من سجون النساء بالعراق تستجدي عطف السجانين على أمل العثور أو سماع خبراً عنك، ترجع كل ليلة حزينة ساكتة تأكل لقمة وتنام، َوتغبشْ، وعندما نسألها تصمت، وبصوت واهن تَردْ علينا، اريد انام.

بعدين عرفت أشگد تحملت إهانات وضرب وطرد وقبيح الألفاظ، كانت تتكتم على كُلُ ما تواجهه من إذلال لكنها في ليلة رجعت باكية شديدة الحزن، لم تتوقف عن البكاء والنوح بصوتٍ خافت تحاول حبسه طوال الليل سراً، استيقظت على نواحها المكتوم، وترجيتها فأفضت لي قائلة:

- حجي تدري ماذا قالوا لي اليوم وصفوني بـ أبشع الصفات، قح-بة، عا-هر-ة وإلا لما أنجبت بنت شيوعية.

كم شعرت بالذنب لما سببته لوالديَّ من عذابٍ وذلٍ، كنتُ مؤمنةً بالنضالِ من أجل تحقيق مدينة فاضلة لأبناء جلدتي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والثمن أما حياتي أو هذي التفاصيل. وأنا سعيدة بفخر أبي بيّ.

كنتُ أنصت لقصص أبي الموجعة وهو يتعمق في الهول وكان دليله قلبه، أردف:

- تدرين يا بوية ما هّولْ ورعب تلك اللحظات، نهاية عام 1986 وكان قد مرَّ على غيابك أكثر من سنة جاءوا إلى البيت، جلسوا في غرفة الضيوف متصنعين الحزن ليقولوا وهم يظهرون صورة لفتاة حلوة تشبهك كأنها توأمك هذي بنتك "ناهدة" ألقينا القبض عليها وهي تحاول التسلل من مواقع العصاة في الموصل وأعدمت!

سكتوا وقتاً قصيراً وسألوني:

- هي بنتك لو لا؟

- أجبتهم بنعم لكن في قرار نفسي قلت ليست هيِ.

وها أنذا ألمسكِ وأسمعكِ وأراكِ فما أسعدني من أب يلتقي بابنته المناضلة.

نفثت "احلام" حسرةً طويلةً اخترقت قلبي الذي يعتصره الألم على انتهاك إنسانية رفيقتي.

ضاعَ إحساسي بالزمن. ليلي صار نهاراً، أروني نجوم الظهر، أذلوني، سحقوني، مسحوا كرامتي ببلاط غرفهم المظلمة، قذفوا حيواناتهم المنوية الدبقة على جسدي الطاهر، داسوا بأحذيتهم على رأسي، لم يحصلوا مني على أكثر مما يعرفونه من العملاء المندسين في أوساط تنظيمات الحزب وقيادته.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وفي أثناء إحدى حفلات التعذيب المسائية جاءني الطلق، صدرت مني صرخة كادت تعبر جدران زنازينهم الفاشية، لأذان الناس التي لا تدري أو تدري وتتعامى، أن هناك جهنم في بغداد يتعذب بنار جلاديها خيرة شباب وشابات العراق، شعرتُ برأس جنيني يحاول جاهداً اختراق قبلة الكون. توقفوا عن التعذيب ونقلوني في سيارة إسعاف إلى مستشفى ابن النفيس.

صحوت ويدي مربوطتين في سرير أركانه من الحديد البارد وشراشفه ألم، متروكة في غرفة معزولة تماما عن كل مرضى مستشفى ابن النفيس كان ذلك في شتاء عام 1988، غرفة باردة جداً، أركانها موحشة وفيها شباك واحد مفتوح، يطل على العراء، تدخل منه نسمات هواء باردة مسروقة من دنيا ضاقت بروحي المسحوقة، أرقد ممزقة الجسد لكن بكبرياء امرأة عاشقة للحرية والحياة ومتمسكة بحلم مدينة فاضلة بالرغم من أنها على حافة الموت.

سرير مهجور في غرفة مهجورة في ركن مستشفى مهجور هكذا رموني كي أموت وحيدة من النزف الشديد بعد إجراء عملية قيصرية بسبب تعسر ولادتي لوليدي الذي لم أعرف أين أخذوه.

بقيتُ أياماً لا اعرف عددها وجسدي يذوي ويذوي على السرير البارد جدا. غرقتُ بدمي الذي غطى شراشف السرير وصعد حتى ظهري. كنت أتنفس رائحة دمي البارد المسفوح على بلاط الغرفة والم شديد يعصرني في ثدييَ من تراكم الحليب بهما.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بعدها أعادوني إلى قاعة السجينات وجلبوا لي ابني الذي لم المسه وأشم رائحته وارضعه حليبي منذ لحظة خروجه من رحمي إلى هذا السجن الكبير وجدرانه المتآكلة بالرطوبة وشحة ضوء الشمس، شممتهُ وتمنيت لو أعيده إلى رحمي كي أحميه من هؤلاء الذئاب والقتلة. حاولنَّ زميلاتي النزيلات جمع بعض قطع الثياب الرثة لصنع ملابس لطفلي.

مرَّ الزمن بطيئا ثقيلاً ونحن أسيرات تلك القاعة غارقات في زحمة ضجيج المصائب والمصائر المجهولة تحفر في نفوسنا أثاراً لا يعلم بثقلها حتى الله وجبروته. لا وضوح، لا ضمانات تطمئن النفوس في ذلك الآسر، كنا نعيش في عصر البربرية وسلخ الجلود وانتهاك الأجساد من اغتصابات وإذلال لم نتصور في يوم ما أننا سنعيشها.

أيام وأسابيع وأشهر من الرعب والخوف والتوجس في أي لحظة وحسب مزاج السجان لأخذنا في حفلة تعذيب لا يصدقها العقل البشري.

نادوا على اسمي في صباح من صباحات الذلة، قادوني معصوبة العينين بعد أن أخذوا مني صغيري إلى عربة سارت بنا قرابة الساعة، أدخلوني قاعة كبيرة وهم ينعتوني بأقذر الصفات، رفعوا عصابة عيني قائلين:

- أنت بمحكمة الثورة

كان رئيسها المجرم "عواد البندر"

أعطوني صغيري في قفص الاتهام، وهنا التقيت بزوجي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

"محمود" كان يقف في قفص اتهام مجاور ناحلاً شاحباً، هيكلٍ عظمي وكـأنهم سـلخوا لحمـه في مسـلخة لـذبح الحيوانـات، مسحوقاً، ذليلاً بالكاد تعرفت على ملامحه، حاولت أن أرفع ولدي كي أخبره أني ولدتُ، فارتسمت ابتسامة بائسة على شفتيه الذابلتين.

نطق عواد البندر بقرار الحكم بعدما ادلى محامي الـدفاع المعين من قبل السلطات مرافعته "للدفاع عنا" فطالب المحكمة بإنزال أقصى العقوبات بنا ودون السماح بسماع أقوالنا، كان قرار الحكم عليّ بالإعدام حسب المادة 156 أ ورأفة بالطفل خفف الحكم إلى المؤبد وحسب المادة 175، وعـلى زوجي بالإعدام شنقاً حسب المادة 156 ب.

نقلت بعدها إلى سجن الرشاد خلف السدة، ما بعد العبيدي والحبيبية في مدينة بعقوبة، أرسلوني إلى القسم المغلـق مـع سجينات من حزب الدعوة وهذا يعني لا يحق لأفراد عوائلنا بالزيارة. وجدتُ نزيلات مضى على وجودهنَّ أكثر من عشر سنوات وخمسة عشر سنة عشت معهنَّ حتى 1999 عام صدور العفو العام الذي شملني فأطلق سراحي مع صغيري والـذي أسميته "وطن". تركتُ العمل السياسي وتفرغتُ لعائلتي وزوجي الذي شمله عفو خاص بمرسوم جمهوري من قبل الدكتاتور عام 1989.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ورشة الخياطة

في لجة انشغالي بتدوين سيرتي، أقضي وقتاً طويلاً في التأمل فاسرح لساعاتٍ منحدرةً إلى ذلك الماضي العنيف والتجربة القاسية أيام الثورة في الجبال، فأمسك بالأحداث الجديرة بالروي، وأدخل بحوارات متشعبة مع رفيق عمري وشريكي في تلك الأحداث قبل أن أدخل مناخ الكتابة فأجلس إلى الطاولة وأشرع في التدوين.

وفيما كنت أغوص في تلك الأيام الحارة لا بل الكاوية كالجمر، ناداني شريك الرحلة وهو مقبل من الغرفة الأخرى، فأجبته متسائلةً:

- ها أكو خبر جديد!

فهو يتابع كل شيء الصغيرة والكبيرة وخصوصاً مصائر من شاركنا في التجربة من خلال شبكة علاقاته وبحثه الدائم والمستمر، وفي السنوات الأخيرة كان أول من يبلغني بمن صعدَ إلى السماءِ من الرفاق، وفعلاً صَحَّ توقعي إذ قال وفي وجهه

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ألم:

- تذكرين "أبو خالد" الخياط؟

لم أربط للوهلة الأولى من يكون وأين فنحن نعرف عدة خياطين من أبناء مدينتنا أصدقاء زوجي، فانحسر تفكيري بهؤلاء فلم أتذكر هذا الاسم، ولما لبثتُ في صمتي و استغراقي أردف:

- أش بيك حبيبتي رفيقنا اللي عَلّمَكِ فصال وخياطة بدلة البيشمركة!

- نعم تذكرته!

- رَحَلَ إلى السماء قبل أربع ساعات!

كنتُ قد نسيته تماماً في لجةِ التشرد وحياة المنفى ومشاغلها، وها أنا أتذكره بقوة فسألته:

- ليش هو وين صفه بيه الوقت؟

أقتربَ مني بيده هاتفه المحمول وهو يقول:

- في هولندا!

وأراني الصورة التي نشرها الرفاق في موقع الأنصار بالفيس بوك، فتجَسّدَ حياً أمامي من جديد وكأننا فارقناه البارحة، كان من الرفاق الذين تركوا في نفسي أثراً طيباً في تلك التجربة القصيرة والأيام التي قضيناها معاً أنا ورفيقة اخرى في الورشة، والقصة سأرويها لكم:

حينما التحقت لم أكن متصورة طبيعة الحياة اليومية في

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القواعد بالرغم من أن زوجي كان قد التحق ومكث بين الثوار ستة أشهر قبل أن يتسلل إلى الداخل، في تلك الفترة صَوّرَ لي الحياة هناك وطبيعة المصاعب وسير اليوم لكنها الصورة بقتْ مضببه إلى أن عشتها، لم أجد في الخفارة الدورية لإعداد الطعام لرفاق الفصيل ونوبات الحراسة مهام كافية كعمل أساهم فيه، ففي تلك الفترة لم يعدن الرفيقات يُزَجّنَ في المعارك والمفارز المقاتلة المتنقلة أو مفارز البريد والتموين كما كنَّ في بداية تشكل حركة الأنصار وأقصد في مرحلة تأسيس القواعد الأولى واحداث خيانة وغدر حزب -الاتحاد الوطني الكردستاني (اوك) بقيادة الراحل جلال الطالباني عندما اتفق مع سلطة البعث في عام 1983في ضَرب الانصار الشيوعيين فكانت معركة بشت شان التي استشهد بها العديد من الرفاق والرفيقات كما روت الرفيقات القديمات قصصاً عن مشاركتهن بمثل هذه المفارز واقتصار تواجدهن بشكلٍ عام في المقرات مع الخروج في مفارز تثقيف ودعاية في القرى الآمنة والبعيدة وهذه نادرة، أحسست بالفراغ فالمهام محدودة خفارة كل أسبوعين وحراسة ليلية لساعة واحدة والباقي وقت فائض أتاح لي القراءة والحوارات مع الرفاق، لكن كل هذا لم يكن كافياً لأسباب عديدة منها طبيعة تكويني ونشأتي المحبة للعمل، كنتُ في طفولتي ويَفاعتي لا أعرف لحظة سكون أثناء النهار فأُساهم تطوعاً بمساعدة أمي في إدارة شؤون البيت من طبخ، وتنظيف، وتقديم الطعام وقت الوجبات وغسل ملابس العائلة الكبيرة وكل ذلك بعد عودتي من المدرسة وأداء واجباتي المدرسية مما جعل والدي يُمَيزّني من بين أخوتي وأخواتي إذ كنت أحضّرْ له كل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

شيء ملابسه وأُبَكّر بالنهوض لأعد له الفطور قبل ذهابه إلى العمل حتى أنني تعلمتُ عجن الطحين وإعداده وشويه كأرغفة، فبادرت وأخبرت الرفاق باستطاعتي العجن والخبز وبت أقوم بهذا العمل بمساعدة رفيق أسوة برفاق قلائل يستطيعون أداء هذه المهمة الحيوية كل يوم. لم أجد ذلك كافياً أيضاً، لدي قدرة وطاقة على تقديم الكثير لكن البيئة والأدوات محدودة، لم أكف عن التفكير في أوقات الفراغ بعمل أساهم فيه بدعم حياة رفاقي الثوار، في لحظةٍ برقتْ كخطفِ الضوء فكرت بمشروع الخياطة، وكما ذكرت كان رأسي لا يهدأ أعمل وأفكر في تعلم كل شيء، ومنها الخياطة إذ تولهت بها باكراً ومنذ الطفولة ولعبها فقد كنت أخيط للعبي الأثواب باستخدام المقص والخيط والإبرة، وكبر هذا الوله فتكلمت مع أمي برغبتي تعلم الخياطة، فرحت أمي بشدة قائلة:

- وتصيرين خياطة العائلة يمه!

ولم تتوانَ قادتني في اليومِ التالي، وكان ذلك في بداية عطلةٍ صيفيةٍ وكنت لتوي أنهيت المرحلة الابتدائية أي بعمر الثانية عشر، إلى تقاطع قريب عبرته إلى الشارع المشكل امتداداً لشارعنا وطرقت باب بيت "أم هالة" الخياطة التي رحبتْ بيّ في حفاوة، واظبتُ طيلة ثلاثة أشهر وهي مدة العطلة في تَعَلُّمْ الخياطة بتوجيهات "أم هالة" الطيبة، الجميلة، طويلة القامة ممشوقة القوام، وبشرتها البيضاء كالثلج عندما يكسو كوبنهاجن في أشهر الشتاء، كانت صبورة وخدومة جداً، زوجها شيوعي وصديق قريب من ابناء عمي "حاكم و محمود" اللذان أدخلاني عالم السياسة ودهاليزها التي قلبت حياتي وجعلتها رحلة مغامرة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

في طريقٍ محفوفٍ بمخاطر السجن والموت.

كنت اشعر بسعادتها وهي تجهد في تعليمي كيفية استخدام أحدث مجلات فصال المـوديلات الحديثـة في عـالم الأزيـاء باستخدام المقص والورق وتنفيذ مـا مرسـوم كخرائـط عـلى صفحاتها. أتقنت الخياطة بسرعة قياسية ولم أكتفِ بها، بـل تعلمت الحياكة ونسج البلوزات في نهمٍ لتعلم كل شيء وَسَّمَ طبيعتي منذ ذلك العمر وحتى الآن.

بعد أسبوع من نجاحي إلى مرحلة الإعدادية تَوقفتْ في باب بيتنا عربة عليها صندوق كبير من الكارتون تعاون على حملة اثنان من العمال وأدخلاه إلى باحة بيتنـا الداخليـة المسـقوفة فتجمعت العائلة حوله والعيون تتساءل عما يحتويه، خصصتني أمي التي كانت تقف و في وجهها نشوة وسعادة غامرة قائلة:

- نهودة تفتحْ الصندوقْ!

أزلت الغطاء وَقطع الإسفنج الحافظة فظهرت ماكينة خياطة ماركة الفراشة مثل عروس، لم تسعني الفرحة وأمي تقول:

- هذي هديتي لنهودة اللي راح تكون خياطة العائلة!

صرختُ من فرحتي وأشبعت امي عناقاً وتقبيلاً وشماً. ومن يومها أصبحتُ خياطةَ العائلة، أُفَصّـل وأُخيّـط ثيـاب أخـوتي وأخواتي، توسع نشاطي، بتُ أقدم خـدماتي لبنـات الجيران الفقيرات مجاناً مما وفرَّ لي فرصة ذهبية لم تتوفر لأخواتي، صرتُ قريبةً من صبايا ونساء محلتنا ومسـتودع أسـرارهنَّ فاطلعتُ على مقاساتِ ونحتِ الأجساد الخبيئة تحـت الملبـس

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المحتشم، منهن النحيفة مثل الغزالة والأخرى ممتلئة الأرداف والسيقان، وأغلبهنَّ كنَّ يبحنَّ لي بعشقهن المخفي للرجل، بعضهن في الخيال، وأخريات يهمسن بتجاربهن ضاحكات، يبُحنَّ بما يعشقه بجسد المرأة، كنتُ أشعر بمتعةٍ لا تضاهيها متعة، ويتواصل البوح إلى أن أُكْمِلْ فستان أو تنورة أو بنطلون لبناتِ ونساءِ محلتي فَتكشفت أمامي قصص شيقة تجري في الخفاء في ذلك السن المبكر. أسرار النساء في حياة مكبوتة ومجتمع صارم التقاليد.

ما سمعته من قصص بنات الجيران من نسج مخيلتهنَّ أو تجاربهنَّ الحقيقية كان يُعَدْ من الكبائرِ، كنتُ أنصت مدهوشةً للحديث الخافت إذ لم أسمع أحداً من أفراد عائلتي يتطرق لمثل هذه القصص، لا أمي ولا خالاتي ولا عماتي، بتُ واثقةً أن الهمس الخافت والبسبسة بين النساء يدور غالباً في هذا الجانب الذي بقي مظلماً في بيئة العراق ويخشى منه على الأطفال والبنات المراهقات.

أستعيد تلك التفاصيل في أوقات فراغي من المهام اليومية، الحراسة النهارية والليلية، المساعدة في جمع الحطب من الغابة القريبة، أو الخبز والطبخ للفصيل، فتبلورتْ فكرة الورشة وأنا ألاحظ معاناة الرفاق في تفصيلِ وخياطة بدلة جديدة، إذ يضطرون أما إلى عبور الجبل إلى قرية يوجد فيها خياط تبعد أربعة أيام قريبة متصلة بشوارع مبلطة والتي لا تخلو أبداً من المندسين والمتعاونين مع أجهزة السلطة القمعية، أو الذهاب إلى مقر قاطع أربيل الذي يقولون فيه رفيق خياط، بدأتُ أخطط لهذه الورشة كمشروع بصمت، حسبتُ تكاليف البدلة من شراء

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القماش من محلات القماش في القرى القريبة من المدن إلى ثمن الخياطة فوجدتها تكلف 35 ديناراً، وتكلمتُ مع الرفاق العارفين بأسعار البضائع المهربة وهل ثمة إمكانية شراء "طول قماش"، وما سعره، وكم متر تحتاج البدلة الواحدة مفترضةً وجود الورشة، فقدرت أنها لا تكلف سوى سبعة دنانير، وهذا يوفر الكثير للرفاق.

فاتحتُ رفاق الفصيل المستقل ففاتحوا القاطع، ورتب لي لقاء مع الرفيق مسؤول القاطع العسكري الرفيق "توما توماس"، قصدتُ مكتبه وعرضت عليه المشروع بالتفصيل شارحةً جدواه الاقتصادية والعملية حيث لا يضطر الرفاق لقطع مسافات طويلة وعبور شوارع مبلطة وكمائن وانتظار دورهم مما يؤثر على مهامهم اليومية، تحمس للمشروع ونادى بطلب ابنته التي كانت متواجدة بصحبة زوجها في الموقع وهي خياطة ايضاً و أشركها في الاجتماع، فسألني وهو الرفيق الذي كان لنا بمثابة أب رصين القرار والكلمة:

- رفيقة "بهار" ما تصوركٍ لإنشاء الورشة!

كان كل شيء جاهز في ذهني فقلت له على الفور:

- مع الرفيقة بنتك نحتاج إلى غرفة ومكائن خياطة، وأقمشة، ورفيق يعلّمنا فصال البدلة!

فبدلة الثوار هي الزي الشعبي الكردي المكونة من قميص وسروال عريض يناسب البيئة الجبلية، وفصالها خاص يحتاج خياط محترف.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أطرقَ مفكراً لدقيقة وقال بصوتٍ هادئ ميزّ شخصيته:

- بسيطة، سنوفر المكائن والغرفة والقماش وسنبعث بطلب رفيقنا خياط قاطع أربيل "أبو خالد" ليعلّمكم طريقة خياطة البدلة.

تعاونا جميعا أنصار ونصيرات في بناء غرفة ورشة الخياطة، وخلال أسبوع جلبت مفرزة من مفارز التموين ماكينتي خياطة محملتين على ظهر بغلين، نصبناهما في الغرفة وَنَجَرَ لنا الرفاق طبلتين للجلوس، كم كانت فرحتي كبيرة وقتها، كنت شديدة الحماس تواقة لما سوف أقدمه لرفاقي، لم يمر أسبوع على ترتيب الورشة وأطوال القماش الغامقة الألوان حتى وصل "أبو خالد" قادماً من قاطع أربيل، أقبلَ في صبيحة صيفية مشرقة نحو غرفة الورشة قاطعاً حوض الوادي الضيق بين قاعة الضيافة وبنايات المقر، كانت الرفيقة بنت -توما توماس- تقف إلى جانبي فأشارت نحوه، دُهِشْتُ حينما وقع بصري عليه، كان يشبه هنود أمريكا سكانها الأصليين؛ قصير القامة، أسمر البشرة، أنيق الملبس، عيناه واسعتان ضاحكتان، شعره فاحم السواد طويل جداً يغطي أذنيه وينحدر إلى كتفيه، مرتب بعناية، يتطاير مع حركة خطوه القافزة. كان عملياً بعد التحية والتعارف مباشرة بدأت الدروس، بقى يعمل معنا عدة أسابيع حتى أتْقَنّا فصال وخياطة البدلات، كان دمث الأخلاق ، قليل الكلام، هادئا مثل نسمة غروب نهار هادئ، ترك أثراً في نفسي لا يمحي كنموذج مخلص للعمل واحترام المرأة من دون كلام.

وطدَّ في الأشهر الأولى لالتحاقي صورة الشيوعي المثالي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

العفيف الشريف المقدس التي كنت أحملها قبل وصولي، مما دفعني للعمل اندفاعاً شديداً فصرتُ أنجز البدلات بوقتٍ قياسي، وأصّلح حقائب الرفاق القماشية وكل ما ينشق أو يفتق من ملابسهم، تعرفتُ من خلال هذا العمل والاحتكاك اليومي برفاق مقاتلين في السرايا الجوالة من شتى بقاع العراق ومن قوميات وأديان وطوائف مختلفة جمعتهم فكرة العدالة والمساواة، كانت نافذةً لوعيّ مضافة جعلتني أعمل بغبطةٍ دائمةٍ، ولم أتخيل أبداً ما سوف يتكشف أمامي رويداً.. رويداً عن طبيعة النفس البشرية التي توسمها تربية البيت والمجتمع، فتوارت فكرة الشيوعي القديس لصالح الشيوعي الإنسان ابن بيئته بسلبها وايجابها. سأسرد في الفصول اللاحقة من سيرتي تفاصيل التجارب التي عمقتْ رؤيتي وفلسفتي في الحياة التي تَنَقَتْ وعادت إنسانية مطلقة فخف تأثير الأيديولوجيا وبالتالي التقديس.

لم أعرف شيئاً عن "أبو خالد" منذ اللحظة التي وَدَّعنا فيها في ورشة الخياطة في صبيحة صيفية مشرقة وأنحدر في الوادي المؤدي إلى النهر مع مفرزة تقصد قاطع أربيل، ما عدا أن زوجي حصل على صورة له قديمة لا زال يحتفظ بها يظهر فيها وحده وبنفس هيئته التي ودعنا بها وهو ينزل على ممرٍ جبليٍ عريض كالحلزون يقود بغلاً محملاً.

إلى صبيحة هذا اليوم حيث أراني صورته ورثائهِ في صفحة الأنصار.

لم تستمر الورشة طويلا، سنة ونصف. انقصفَ مقر القاطع بالأسلحة الكيماوية التي جعلتْ الاستمرار في العيشِ في "زيوة"

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مستحيلاً، ستعصف بنا الحياة عقب القصف عصفاً شديدا وهذا ما سوف ارويه في الفصول القادمة.

آخر مرة وقفتُ فيها في غرفةِ الورشةِ المهجورةِ كان قبل الانسحاب إلى الحدود التركية هرباً من الجيش العائد من جبهات الحرب مع إيران. أطلت الوقوف متأملة ماكينة الخياطة الملفوفة بالنايلون المغطى بطبقة من الغبار شاعرةً بالأسفِ وذهاب تلك الأيام المتوهجة بالحماسة والبراءة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ليلة فقدت فيها الأمان

بعد ما ودعت زوجي ورفيقي -سلام - في يوم صيفي حار ذاهبا مع مجموعة من رفاقنا الأنصار في مفرزة بريد إلى مقر -لولان- (منطقة تقع في المثلث العراقي الإيراني التركي) وتركني في فصيل مقر المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي في قاطع بهدينان الواقع خلف العمادية على مجرى الزاب الأعلى. كنت وقتها حديثة الالتحاق، مذهولة بالأفكار والأحلام، قادمة من مدينة جنوبية –الديوانية- ترزخ تحت قبضة الدكتاتور وأجهزته. وقتها كنت أظن أن الحزب عائلتي ورفاقي أخوتي وعائلتي، وكنت أتصرف مع الرفاق في تفاصيل اليوم من هذا المنطلق الطبيعي المتناسق مع مسار تجربتي الحياتية بمجملها في ذلك السن.

بعد ليلتين من خروج زوجي، وفي مساء يوم صيفي صعدت إلى سطح قاعة الفصيل، فرشت فراشي، كنت أحلم بالاستلقاء بعد عناء يوم عمل مجهد.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كان يوم الثوار شاقاً على الرجال فكيف علي وأنا عشت في بيت مترف حتى أوج نضجي. كنت في الرابعة والعشرين من عمري. توسدتُ فراشي وحضنت وسادتي كحالي كلما سافر حبيبي مخدرة بدفء كلماته وعطر أنفاسه الحنون. كان فراشي جوار فراش رفاقي، أبو نصار وأم نصار، وهدى وأبو سيف.

خلدت إلى أحلام يقظتي اليومية راحلةً، وأنا في أول أيام فراقي لعائلتي و مدينتي وأهلي، حالمةً بحضن طفلي الحنون، الذي تركته دون وداع، فقد التحقنا سراً دونَ أن نخبر أحداً عدا –وصفي - ابن عمةً زوجي، ورفيقنا والمطلع على حياتنا الحزبية السرية. التحقنا في آخر لحظة فقد أعتقل الشهيد المعلم من أهالي الدغارة –جميل مگط- في شتاء 1984

وكنت على اتصال دائم معه والتنظيم الذي يقوده، إذ كنتُ حلقة الصلة بين التنظيم الذي أقوده وبين تنظيمه، وكان لصموده البطولي الفضل في تخليصنا أنا و زوجي من هول الاعتقال الذي خَبره زوجي وقسوته حينما اعتقل مرات عدة. أسمع صوته هامسا لي ناهدة

خلصنا حبيبة منهم ومن هول قسوتهم ووحشية زنازينهم التي لا يعرفها إلا من ذاق جحيم ساديتهم ومن تبرأت منه ملائكة السماء والأرض، ناهدة أنهم بشر بلا ضمير ولا قيم إذا تخلصنا منهم ونجونا سنكون أسعد الناس.

وتحقق ذلك ها أنذا أنام وسط الرفاق على سطح قاعة الرفاق وزوجي خرج بمهمة كنت سعيدة قبيل السقوط بالنوم رغم حزني لغيابه.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كنتُ على وشك النوم، وكانت ليلة حالكة بلا قمر، لكن نجومها متلألئة ناصية حتى كأني أستطيع مسكها بيدي، أو هكذا كنت أتخيل في تلك اللحظة حالمة، مغتبطة لوجودي بين رفاقي، لكن جاء من يفسد عليّ لحظتي في الحلم والتذكر، ويجعل من ليلتي وليالي السنوات الأربع التي تلتها، ليالي قلق ورعب وخوف مركب من رفاق الدرب، ومن قصف متكرر من طائرات ومدفعية سلطة الدكتاتور، ومن المندسين بين صفوفنا. شعرتُ في الظلام بشيء يسقط على غطاء فراشي ويصدر صوتاً خافتاً في السكون. شيءٌ جعلني انكمش تحت غطائي مترقبة، لحظات وسقط شيء أخر. أزحتُ الغطاء وبحثتُ حولي على ضوء النجوم، فعثرت على قطعتي حجر صغيرتين، وفيما كنت نصف جالسة سقطت الحجرة الثالثة فنهضت من فراشي مقتربة من حافة السطح وصرخت:

- من أنتَ؟

فلمحتهُ في الظلام وشعره الكث يسرع في التواري خلف بناية المطبخ. فكررت صائحة

- من أنت؟

بصوتٍ جعلَ أبو نصار النائم مع زوجته ينهض من فراشه ويسرع نحوي. سأعرفه صبيحة اليوم التالي رفيق يدعى –أبو نرجس- يعيش الآن في لندن. كان يحتك بي وينظر نحوي بطريقة بعيدة عن مشاعر الرفقة النضالية. اشتكيتُ لزوجي مرات عدة، فنصحني بتجاهله والتعامل معه بصورة طبيعية وبحذر أيضا. كنا في فصيل المكتب السياسي المشرف على

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تنظيمات الداخل والتنظيم المدني للحزب، و كنت مؤمنة ايماناً مطلقاً بالحزب والمعنى المطلق لعلاقات الرفقة، بسيطة التجربة، لم أدرك ولم أتخيل أن ثمة صراع داخل الحزب. صراعٌ مرير سيتكشّف لاحقاً. صراع بين جماعة باقر إبراهيم وعدنان عباس –أبو تانيا- مسؤول الفرات الأوسط، وبين جماعة سكرتير الحزب وقتها – عزيز محمد - وأبرز أطرافه – أبو ناصر- وكان يتوسط هذا الصراع ويخفف منه عضو المكتب السياسي –حميد مجيد موسى[1]. أتذكر وقتها كنت أرتجف من الغضب والرفيق أبو نصار يترجاني هو وزوجته:

اشاششششششش..... اسكتي لا تفضحين نفسك!

- ماذا؟

تساءلت بصوتٍ خافت وكأنني مرتكبة ذنباً كبيراً!.

- بهار؟ أنت ما تعرفين الوضع سيقولون هي من اتفقت معه وغيرت رأيها!

- ماذا تقول يا رفيقي؟!

- أسكتي للصبح أرجوك تحّلي بالصبر وبكرى تنحل المشكلة!.

[1]() حميد مجيد موسى أو أبو داود سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي أحد الكوادر الطلابية للحزب الشيوعي العراقي ترأس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي منذ المؤتمر الخامس مؤتمر التجديد والديمقراطية عام 1993 و الذي عقد في شمال العراق وتم فيه اعتماد مبدأ الديمقراطية كمبدأ أساسي في التنظيم الحزبي أعيد انتخابه في المؤتمر السادس عام 1997 الذي عقد في محافظة اربيل والسابع عام 2001 الذي عقد في اربيل العراق أيضا و في المؤتمر الثامن 2007 الذي عقد في بغداد بعد احتلال العراق.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كنتُ احترق وكل كياني يغلي لمأساة لحظتي البائسة وأنا وسط رفاقي وحلم حياتي في النضال وسطهم من أجل مدينة فاضلة!.

لم أنم ليلتها فقد أصبحت مرعوبة من الرفاق. سهرت حتى تباشير الفجر، وروحي تتحرق ألماً مما أصابني ليلة الأمس، من صدمة وحزن وعذاب وخيبة، حيث فقدت الأمان الذي كنت أظن أني بلغت ساحته، بنجاحي في الوصول إلى مقرات رفاقي الثائرين، وتخلصي من هاجس الاعتقال.

كانتْ ليلة تعادل ليالي العمر كلها، ماعدا تجربة أخرى سأرويها لاحقا، عن رفيق آخر، كادتْ أن تصيبني بالجنون، وجعلتني ألعن الحياة ولحظة التحاقي برفاق الجبل. كانت ليلة قاسية أقسى من ليلة قذفي بالحجر. ليلة مريرة طعمها أشّد من الحنظل. ليلة لا يعرف مدى مرارتها إلا من عاشها. سأكتشف لاحقا أن ما حصل لي ما هو إلا شيء روتيني حصل لكل رفيقات درب النضال الصعب.

في صبيحة اليوم التالي لم أتمكن من تناول الفطور، وكان الجو في الموقع مضطرباً. طلبتُ من الرفيق–أبو داود- كان وقتها مسؤول الفصيل، الحديث على إنفراد، فوجدتُ أن له علماً بالذي حصل، بدأتُ الحديث بقولي:

- البارحة بالليل وأنا نائمة على السطح رماني الرفيق –أبو نرجس- بالحجر.

فهز رأسه قائلاً:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- علمت يا رفيقة علمت!.

فقلت محتدمة بغضب:

- هذا اعتداء على إنسانيتي و وجودي وكياني

كم كانت فجيعتي وخيبتي مركبة عميقة، إذ وجدته يبرر فداحة الاعتداء، ويبسط الأمر وكأنه أمر هين ممكن تجاوزه، فقدم الكثير من الأمثلة مع رفيقاتي، وكيف تصرفنَّ، ثم شرح ما يتوجب عليّ فعله ليخلص إلى:

- رفيقة أنت تعرفين جيداً الحرمان الذي يعيش به الرفاق

أصابني الخرس، فتساءلت:

- هل الحرمان يبيح لهم الاعتداء على رفيقتهم وزوجها ذاهب في مهمة؟

أجاب مرتبكا:

- لا رفيقة لكن علينا معالجة الأمر بهدوء!.

- إي وماذا رفيق؟

- يعني أنت تعرفين كيف ؟

لم أستوعب ما كان يتفوه به "أبو داود". فوجدتني أخمن ما المطلوب مني فعله.

فقلتُ متسائلةً:

- إي رفيق ما المطلوب مني؟ هل تريدني أن اصمت؟

لم يكتفِ بذلك، بل أضاف:

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- كما اطلب منك عدم إخبار زوجك الرفيق "أبو الطيب" عن ما حدثَ لك!.

أثناء كلامه كان صوت المحبة يقول له مع نفسي طبعاً:

- أنت واهم يا أبو داود!. سأخبره بما حدث.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الضحك ممنوع

الضحك؟ هل يتهم بالضحك؟ أقصد الضحك الحقيقي الذي يتجاوز المزاح والسخرية والسخافة. الضحك باعتباره متعة عظيمة وعارمة بل كل المتعة.

كنت مولعة الضحك. ومنذ طفولتي وأبي يميزني من دون أخواتي الأربع من ضحكتي. حينما أضحك أشعر أنني أملك الأرض بسمائها وبحارها وكائناتها. أذكر مرة كنت جالسةٍ مع بنات جيراني على سطح دارنا قرب برج طيور أبي وتنور أمي.

الجدار المطل على الشارع والذي يحتوي على أكثر من عشر فتحات. ولأنني لم يكن لي أخ أكبر مني فأهل بنات جيراني كانوا مطمئنين. لا حب ولا عشق ولا خزعبلات. لا خوف على بناتهم. بيتنا كانَ عش نثايا.

بنات جيراني من عوائل كادحة، أحداهنَ كانت أسمها سعدية. أبوها حارس ليلي وأمها بائعة خضار في السوق. سعدية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كانت تجيد النكته والتمثيل. مثلت لنا مشهدا لإسماعيل ياسين الممثل المصري الكوميدي الشهير من فيلم /اسماعيل ياسين في الجيش/ يصور اصطحاب العسكري لياسين إلى الحمام. طلبت مني ان اجلب لها فانيلة وسروال داخلي من ملابس أبي. ارتدتها، وعملت مكياجاً مستخدمة قطعة من الفحم لتكبير شفتيها و وضعت قطعة اسفنجية بين الشفة السفلية والأسنان...وبدأت تصيح (ألحئوني يا ناس حينظفوني... صرخ به العسكري اسكت وادخل الحمام...اصلي انا عمري مادخلتش الحمام/ هي تمثل ونحن غارقات في الضحك والسعادة المطلقة ببراءة المشاعر التي تجمعنا.

حينما زرت العراق في نهاية عام 2003 وبعد فراق دام أكثر من أربعة وعشرين عاماً سألت عنها وصديقات طفولتي. جعلتني اخبارها اترمد حزنا وأبكي بصمت على مصيرها الدرامي. أخبرتني أمي أن سعدية وزوجها أعدما في انتفاضة 1991 تاركين سبعة أطفال منهما اثنان معاقان، وجريمتها انها كانت توزع طعاما وماء للمنتفضين.

كانت ضحكتي صاخبة، فريدة النبرة تبدأ خفيفة ثم تتصاعد بسرعة هائلة لتبلغ ذروتها فأكاد أتلاشى فرط البهجة.

كان الوقت غروباً والشمس تنحدر نحو حضن الفرات حينما سمعتُ أبي يسأل أمي حال عودته من العمل:

- وين نهودة

أجابته امي:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- على السطح مع أخواتها وبنات الجيران

ناداني بعلو صوته:

بوية نهوده أش لون ضحكة ترد القلب بس لو تنصيها، عالية وتوصل لراس الشارع.

أجبته بضحكة أعلى وقلت:

- عرفت ضحكتي بوية كلنا كنا نضحك

كنتُ أراه من حافة سياج السطح المشرف على باحة البيت الداخلية، أجابني ضاحكاً

- بوية حبيبتي أگدر أميز ضحكتك من بين العشرات

كان مبتهجاً يرفع ناظريه نحوي وأنا أعاود ضحكة من القلب.

لم أكن أضحك ضحكتي المميزة على ما ترويه زميلاتي وجاراتي من نكات وطرائف فحسب، بل كنت أحاول خلق الضحك خلقاً. فكنت أقترح على صديقاتي المقربات في المدرسة إقامة حلقة ضحك، فَنزوي في طرف الساحة البعيد لصق جدار المدرسة العالي المظاهر لمحلة أهل الشط وهم قوم هاجروا من الكوت بعد أن جف نهر قريتهم، و لبناية رعاية الأيتام. وأقول لهن لنبدأ، فتضحك واحدة منا ضحكة مصطنعة فتقلدها الجالسة بجانبها ثم الأخرى وتدور الحلقة. نضحك ونضحك حتى يحلّ الضحك الحقيقي فيجرفنا بسيله فتضج الساحة بضحكاتنا حتى أن التلميذات يتجمعن حولنا ينظرن بدهشة أول الأمر ثم سرعان ما يجرفهنَّ منحدر الضحك العاصف فيبدو منظرنا طريفاً وكأننا في مهرجان ضحك. ضحكات تنطلق من القلب متدافعة متزاحمة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صاخبة وعنيفة كعنفوان صبانا و أحلامنا بالحرية والمساواة في مدينة فاضلة.

في الاربع سنوات الاخيرة قبل التحاقي بصفوف الأنصار الشيوعيين خفتت ضحكتي وصارت نادرة القدوم وأنا أخوض غمار العمل السري مجازفة في فقد كل شيء أبني، وظيفتي وأهلي حتى أنني نسيت خفة دمي والطرق التي أتفنن بها كي أجلب الضحك لي وللقريبين مني.

وحينما يأتي أحيانا بغتة، أضحك بصخب فاقطعها متخيلةً لحظة القبض عليّ.

تفاقم وضعي حتى أن الضحك مات حينما سمعتُ بإلقاء القبض على رفيقي -جميل مكط-. صرت أتوقع القبض علي في أية لحظة.

وحينما نجحنا في الوصول إلى الثوار وحللنا في فصيل المكتب السياسي وشعرت بالأمان وسط رفاقي وقرب رفيق عمري انطلقت روحي الحبيسة وعادت ضحكتي مجلجلة أكثر صخباً وعنفاً.

كنت أظن أنني تخلصت من ضغط هاجس الاعتقال والقيم والأعراف الاجتماعية القاسية، وحولي مجتمع مثالي، من مثقفين مؤمنين بفكر واحد يبغي تحرر الإنسان والمرأة. فكنت أضحك من القلب على نكات الرفاق وقصص الأنصار ومفارقات الحياة.

لكن في اجتماع حزبي، كنا خمسة رفيقات ورفاق فاجأني مسؤول الخلية "أبو الجاسم" في آخر فقرة في الاجتماع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- رفيقة بهار عليك شكوى من رفيق ٠٠٠٠٠٠!

استغربت! لم أفعل أي شيء. وفي لحظات فكرت في مسار يومي. فلم أجد أي سلوك مني يستدعي الشكوى. انتظرت كي يكمل لاستبين الأمر. تلكأ في القول والتفتَ إلى عمق الوادي. كنا نجلس بعيدا عن بنايات الفصيل على صخور مرتبة كالمقاعد محاطين بسفحي جبل متين الشاهقين، حيث يصلنا ضجيج مجرى نهر "الزاب" الهادر في عمق الوادي.

لزمت الصمت أنتظر. حرك يديه ونطق متعثراً:

- رفيق "علي" يقول تكلموا معها كي تخفف من ضحكتها التي تثير الرفاق.

رددت على الفور:

- معقولة هذا الكلام رفيق.. معقولة!

نهضت وغادرت الاجتماع وأنا أغلي غضباً على كل مَن حولي وبصمت أنسكبَ دمعي غزيراً، وشعرت بالكون يتمادى في الغياب حزناً على دفن رنة ضحكتي وبهجتها

ووجه أبي وزوجي المستغرقين بالضحك كلما انفجرت بضحكي سأصبح وجلة في السنوات القادمة، احبس ضحكتي

إلى أن تشردنا في دول الجوار فرجعت إليَّ بكل زخم صخبها بعد أن تحررت من الجو الحزبي وعلاقاته الخانقة.

عاشقه للضحك منذ طفولتي وصباي وشبابي .ضحكتي التي كان يميزها أبي لخصوصيتها.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- بقيت ضحكتي وكأن ابي يهمس ويقول لي بوية نهودة اضحكي. انا وانت لا نملك سوى الضحك على الدنيا.

اضحكي يا ابنتي وأبقِ على فطرتكِ.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يوم الحشر

يوم 5-حزيران-1987 سيبقى محفوراً في ذاكرتي لهول ما حدثَ.

في ساعةِ غروب الشمس وقبل هبوط الظلام يسترخي الجميع ويشعر بالأمان فنادراً أو بأدق لم تقصفنا المدفعية والطائرات في هذا الوقت المتأخر قبل ذلك اليوم، أما في النهار فنكون مشدودين مستعدين للتواري في الملاجئ الشقية الحصينة المحفورة في المساحات الفارغة بين البنايات والتي جهزها الرفاق لتحمينا من القصف المتكرر.

كان حوض الوادي عميقاً حصيناً تحيط به قطوع جبلية وقمم كالسور يربض تحت إحداها موقع "الدوشكا" لمقاومة الطائرات.

الوادي محاذي لمجرى نهر "الزاب الأعلى" المنحدر من الأراضي التركية.

سكون وهدوء ذلك النهار مَنحَنا شعوراً بالأمان مع حلول المغرب وفوات مواعيد القصف المدفعي والطيران، كانت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الرياح ساكنة والأشجار المحيطة بالوادي أوراقها صامتة ساقطة في نوم عميقٍ وكأنها لا تودْ أن تكون شاهدة على تلك الليلة التي أدخلنا فيها الدكتاتور إلى ما يشبه يوم الحشْرِ وحافة جهنم.

في مساحة حوض الوادي المفروش الصينية، سعى المقاتلون إلى ترتيب حياة طبيعية، فمثلا قامت مجموعة من الأنصار بتسوية وتبسيط وتنظيف مساحة صغيرة منبسطة من الصخور، و ردم المنخفضات فأصبحت صالحة بعض الشيء لممارسة رياضة كرة القدم.

الساحة تتوسط المقر وتقع على بُعد بضعة أمتار من قاعاتِ نوم الأنصار والغرف المتناثرة للمتزوجين منهم. زوجي كانَ مدلهاً بكرة القدم وكان لاعباً في فرق المدارس التي حلَّ بها، وفي نادي الرافدين بالديوانية مطلع شبابه قبل أن ينشغل بالسياسة،.

تحمس لمشروع الساحة وساهم به، وكان شديد الفرح حينما دشنت الساحة الصغيرة بأول مباراة بين الفصائل، عادت الفرق تتبارى يومياً بعد الانتهاء من واجبات الحياة اليومية لاستعادة لياقتهم البدنية وللمتعة وتمضية ساعات العصر المثيرة للحنين.

في ذلك اليوم كان دورنا في استخدام الحَمام حسب الجدول.

في الوقت الذي ذهب فيه "أبو الطيب" ليلعب كرة القدم ذهبتُ بصحبة رفيقة لجمع الحطب من خشب الأشجار المتساقطة بسبب القصف العشوائي المتواصل، و أشعلتها في الموقد لتسخين قدر الصفيح محلي الصنع، عمله رفيق مختص يدعى "أبو حسن حبيب ألبي" الذي صنع لغرفتنا مدفأة معدنية مع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

انبوبها من تنكات دهن "الراعي" التي نستهلكها في الوجبات، كان يقوم بتصنيع العديد من الأدوات المعدنية والنحاسية التي نحتاجها في تمشية ضرورات حياة الجبل.

جَهزْتُ الماء الحار، تحممتُ وناديت على زوجي كي يأتي ويستحم، فبعد ربع ساعة ستحل الساعة السادسة وهو وقت العشاء، واللي ما يحضر تؤكلْ حصته وهي عادةً أما صحن شوربة عدس ورغيف خبز أو صحن بطاطا مسلوقة ومهروسة أو صحن لبن رائب، معنى ذلك أنه سينام في بطن فارغة.

جاءني فرحاً، حيويا وسعيداً كعادته، قطف من شفتي قبلةً خاطفةً وولجَّ إلى غرفة الحَمْامْ. أسرعتُ إلى غرفتنا لجلب منشفةً وملابس نظيفة له، كنتُ مغتبطة أشدَّ الغبطة لسعادة زوجي، ولوجودنا الدائم معاً والمشاركة في الحياة الصعبة بحلوها ومرّها، كنت أردد مع نفسي في الخلوات:

- نحن مع بعض لا حرب تسرقه مني، ولا رعب انتظاره بين الإجازات، ولا أخيلة جلبه بتابوت ملفوفا بالعلم العراقي كما يحدث يومياً طوال الحرب مع إيران، ولا هاجس خفافيش الظلام المحتلة لحظات شرودي و أخيلت خطفه في غفلةٍ كما خطفت أزواج العديد من الصديقات فأبقى في حسرته حتى الممات، هذا إذا نَجُوت من قبضة البعثيين.

كنا ننتظرُ حلول الليل وخلوتنا في غرفتنا المنزوية في أسفل سفح التلة الواقعة خلف العيادة الطبية للموقع. وفيما كنتُ عائدة حاملةٍ الملابس والمنشفة باغتني أزيز طائرات منقضة ودوي انفجارات مهولة، على يساري في مجرى الوادي وأمامي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وخلفي، كان القصف كثيفاً والسماء الساكنة تحولت إلى جهنم، ما أسردهُ حدث بدقائق معدودة، هببتُ راكضةً، كنتُ أفكر بزوجي والانفجار الذي أرى خيوط دخانه الصاعد في هالة نهايتها كرة قاتمة السواد، وصلت الحمام، رميت الملابس والمنشفة في المدخل بعد أن ناديته، لا أتذكر هل جاوبني أم لا، وانعطفت راكضة بأقصى ما أملك من قوة إلى أقرب ملجأ شقي، رميتُ نفسي فيه، هبطتُ على أجساد تتكدس على بعضها رعباً من هول القصف، نيازك تتساقط من السماء تنفجر حولنا وتتصاعد خيوط كثيفة من دخان أبيض راح ينتشر ويغطي الوادي.

كنتُ أشعر بصوت الطائرات وكأنها تحطُ على رأسي لشدة قربها، ضجيجها يخترق الجسد ويهزه هزاً، ظننا أول وهله أن القصف تقليدي ككل مرة ما عدا وقته وكثافة الدخان المنتشر، ولم نشك إلا بعد ساعات أن ما نزل علينا حمم سامة من السماء.

القصف، كما ذكرت، لم يستمر سوى دقائق معدودة لكنهُ أدخّلنا في ذلك الغروب المخادع بهدوئهِ إلى جهنم. سادَ السكون بعد تواري الطائرات، رفعتُ رأسي ودورتُ عيني حولي كان الدخان كثيفاً، والرفاق بدأوا بالظهور من الملاجئ بعد التأكد من توقف القصف تماماً، خرجتُ من الملجأ مثل مجنونة يدوي في صمتي سؤال:

- أش صار بسلام؟

ركضتُ لاهثةً نحو الحمام، رفعتُ الستارةَ، ناديتُ عليه، لم يَجِبْ، قَطعت المدخل المظلم ورفعت ستارة غرفة الاستحمام، لم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يكن موجوداً:

- أين صار يا ربي؟

أصابَ الوَهْنُ ساقيَّ، يا إلهي لم تكن سوى بضعة دقائق بين دخوله للاستحمام وذهابي لجلب الملابس النظيفة له والقصف.

- أين ذهبَ؟

- ماذا اصابه؟

درتُ بعيني بين الغرفِ والملاجئ، أركضُ لاهثةً مجنونةً تدورُ مع أنفاسي رائحته وهاجس فقده المرعب، بغتةً جاءني صوتهُ من خلف شجرة جوز معمرة تتوسط الموقع:

- بهار.... بهار

ينادي ويتمتم بصوتٍ مسموع:

- حمدا لله انكِ بخير!

حضنتهُ و تحسسته باصابعي، تأكدتُ من أنه لم يُصِبْ بمكروه.

قلتُ له:

- تَعالْ نشوفْ شنو اللي صارْ بالرفاقْ!

درتُ وجهي صوب أقدام تركض بضجيج، رأيتُ رفيقين مقبلين من مجرى الوادي يحملان رفيقاً جريحاً، إحدى قدميه تتدلى وتكاد تنفصل عن جسده، وجهه أسوّدَ، عيناه مفتوحتان فارغتان جمد فصيهما، تحلقان بثبات إلى الأمام، تعرفتُ عليه فهتفت بزوجي:

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- إنه "أبو فؤاد"!

أَلَّمَ بيّ حزنٌ شديد، إنسان شفاف كُلِفَ في أول أيام التحاقنا بإيصالنا من مقر الفوج الأول - گلى مراني- إلى "الفوج الثالث" فمقر القاطع.

قبل خروج المفرزة دعانا لتناول الغداء في بيته الصغير المكون من غرفتين والواقع على مبعدة خمسين متراً، وسط تجمع بيوت رفاق من أهالي القرى اليزيدية، هَجرتهم السلطات من قراهم ومدنهم للضغط على الثوار وحملهم على إلقاء السلاح والتسليم في عفو خاص مفتوح، كان خفيف الظل مرحاً، يُمازح زوجته و يلاعب أطفاله ، وبالعكس من ليونته بين عائلته وجدتهُ صلباً شجاعاً قادَ مَفرزتنا الصغيرة المكونة من خمسة أفراد في طرق وعرة مغطاة بالثلج. عبرنا شارع دهوك عمادية من تحت ربيئة تطلق بين الحين والحين قنابل التنوير، في الجانب الآخر وعلى مبعدة أقل من كيلو متر بلغ بنا الإنهاك حده، فأخبرنا أننا سنبيت الليلة في تلك القرية المتصلة بِشارع مُبلط يمر من تحت تلة ترابط قربها نقطة عسكرية، وأضاف:

- سَنبكر بالخروج قبل انبلاج الفجر!

كانَ رابط الجأش، توزع معنا في بيت واحد لتناول العشاء والنوم، ما أن دخلنا غرفة ضيوف البيت حتى تبادلتُ مع زوجي نظرات قلقة، متسائلة و صورة كبيرة لصدام حسين توسطت الجدار مقابل فراش جلوسنا، كان "أبو فؤاد" يتحدث مع صاحب البيت باسترخاء، لا يبدو عليه أية علامة قلق، كنا لَتونا نفدنا بجلدنا من اعتقال وشيك ولا نزال مرعوبين من هاجس الاعتقال

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الذي عشناها لسنوات في مدنٍ تَحولتْ إلى سجون كبيرة زمن الدكتاتور المطل على جلستنا بعينيه الصَلفتين، نهض صاحب البيت لجلب العشاء، التفتَ نحونا ضاحكاً فرأى جزع عيوننا المُحدقة برسم الدكتاتور تارة وبوجهه في أخرى، هَدئ من روعنا قائلاً جملة مختصرة بليغة:

- اطمئنوا أعرف القرية وصاحب البيت!

تَبين لنا لاحقاً أنه يعمل في التنظيم المدني للحزب، وفعلاً بكّرنا قبل أذان الفجر وواصلنا المسير، "أبو فؤاد" تعرض قبل عام لمحاولة اغتيال بالسم نفذها عميل دس الثاليوم في طعامه.

كانت السلطة تبث السموم في المواد الغذائية، علب دهن الراعي، قناني حليب النيدو وعِلب اللحوم لتنال من حياة أكبر عدد من الأنصار، تدهور وضعه فأرسل قبل عام للعلاج في إيران إلى أن تماثل للشفاء. ويوم امس وصل القاعدة قادماً من "لولان" على أمل أن يتابع المسير يوم غد إلى الفوج الأول للقاء زوجته وأطفاله المنتظرين على أحر من الجمر (سَتُغَيْبْ عائلته كاملةً بعد سنة ونيف من الأحداث التي أرويها، هي والمئات من عوائل الرفاق عند زحف الجيش العائد من جبهات الحرب مع إيران بعد توقفها في 8-8-1988 وتضيع إلى الأبد بمقبرة جماعية مجهولة حتى الآن).

اللقاء عاد مستحيلاً، أنفجر صاروخٌ جوار صخرةٍ كبيرةٍ ببطن الوادي كان مختبئاً خلفها فاستنشق هبة الغاز الأولى الكثيفة، فتفحم لونه وتحولت عيناه إلى حَجرتين أو فصين جامدين، فقد البصر تماماً، وظلَّ يقاوم حتى نزول الظلام متشبثاً

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بخيط الحياة، لم ينطق كلمة واحدة إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة ورأسه متدلياً من على كتفي حيث كنتُ أسنده في غرفة الطبابة الخالية من اللوازم الطبية، لم أتمالك نفسي، سقطتُ في نوبةِ بكاءٍ هستيري لحظةِ شهقته ورفع يديه نحو السقف وإسلامه الروح.

كان أبو فؤاد أول شهداء ذلك القصف.

نفضتُ أوجاعي بنوبةٍ من الصراخ انبثقت من كياني ممزوجة بالنحيب، هدأت بعدها فانتبهتُ إلى - أبو رزگار- المتكئ إلى الجدار على فراشٍ مجاور، هو الآخر غير قادر على الكلام، حمل مع "أبو ليلى" أبا فؤاد من موقع سقوطه إلى الطبابة ووضع رأسه بحضنه لساعة كاملة كان يكلمه فيها ويمسح شعر رأسه المحروق، فاستنشق المزيد من الغازات المنبعثة من الجسد الساكن بين يديه، بعد ساعتين انقلب لون بشرته الناصعة البياض إلى السواد وباتَ تنفسهُ عسيراً، وسقط في ما يشبه الغيبوبة.

تركتهم بعد أن سجينا جثة "أبو فؤاد" على فراشٍ من الإسفنج في ركن من أركان الطبابة منتظرين انبلاج النهار لدفنه في المقبرة الواقعة على فسحة في منتصف السفح.

حاولت لملمتْ قواي والتماسك أمام هول وشدة الحدث والموت الذي باغتنا في لحظة، كان الجميع مذهولا من قوة الضربة وتأثيرها الغريب على أجساد الرفاق، حتى تلك اللحظة لا أحد عرفَ ماذا نزل علينا من سماء الله. مع اختفاء الطائرات وسيادة الهدوء انتشرتْ رائحة كريهة، تفاح متعفن ممزوج

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بالثوم، لم أتحملها، بللتُ منديلي القماشي ووضعتهُ على أنفي، عرفتُ لاحقاً أن منديلي المبلل خفف من إصابتي التي لم تظهر أعراضها إلا في اليوم التالي.

عدلتُ وضع المنديل حول وجهي وخرجتُ من غرفة الطبابة باحثة عن زوجي.

انقسمت الآراء حول طبيعة القصف والظواهر الغريبة وما إذا كان كمياوياً أو لا، كان الجميع يعتقد بأنه تقليدي بمن فيهم ضباط الموقع ومسؤوله "توما توماس" إلا رفيق كان ضيفاً من أربيل ظل يصرخ ويحذر:

- رفاق هذا كمياوي ضعوا قطع مبللة على أنوفكم وغادروا الموقع!

لم يسمعه إلا القليل من الرفاق الذين سارعوا بالصعود إلى موقع الدوشكا والقمم فكان لهم دوراً فعالاً في مساعدة المصابين والاعتناء بهم.

الجميع كانَ مذهولاً ومصدوماً من هولِ الحدث.

تذكرت بالرغم من تلك الظروف أن يوم غد خفارة زوجي في طبخ الوجبات الثلاث، وبعد لحظات سيحل الظلام عندها لا نستطيع جمع الحطب لإعداد الوجبات، لم أظن في تلك اللحظة بأن هذا القصف سيقلب الأوضاع رأساً على عقبٍ ويُغّيرْ طبيعة الحياة فيه، ذهبت أبحث عنه، لم أجده لا في الفصائل ولا في ساحة الموقع. سألتُ أحد الرفاق فأخبرني:

- كُلِفَ مع رفيقين بإطفاء الحرائق الصغيرة المنتشرة في

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المقبرة.

رَميتُ بصري نحو المقبرة الرابضة على تل يصل منتصف السفح. دخان أبيض كثيف يتصاعد من أنحائها وينتشر هابطاً نحو الوادي، لم اتبين شيئاً، رجعتُ إلى الطبابة فقد تكون "أم هندرين" طبيبة الموقع بحاجة إلى المساعدة مع تزايد عدد المصابين، وجدتُ الرفيقة "كانياو" وهي من رفاق حزب "توده" الإيراني ممن لجأوا إلينا هرباً من قمع السلطات، فتاة عشرينية سمراء، رشيقة، بشرتها كأنها عُجِنَتْ بشمس الجنوب، خدومة، طيبة، تشع دفئاً، صوتها الناعم الخافت يمنحك الأمان عندما تتحدث إليك.

كانت منحنية تحاول مساعدة الرفيق -عباس رش- الذي حملوه من الفصيل المستقل إلى الطبابة. شظية فتحت جرحاً كبيراً في بطة ساق رجله اليسرى، عباس الأسمر النحيل، البصراوي الطيب، مطروحاً على إسفنجةٍ رثةٍ ممزق الشروال ينزف ويتلوى ألماً حابساً صراخه، ارتبكنا جميعا، نحملقُ بوجوه بعضٍ ولا ندري ما نفعل، فتشتْ الطبيبة عدتها وعثرت على خيط وإبرة، وخطت نحو "عباس" خطواتٍ وجلة، كانت مترددة فهي لم تواجه مثل هذه الحالات وليس لها خبرة بالجراحة، والأكثر هولاً ليس لدينا لوازم طبية تَفي لمعالجة المصابين، تعاونا في مسك وتثبيت ساق "عباس رش" الهزيلة، مسحتهُ بالشاش الطبي، وانهمكتْ بغرز الإبرة المعقوفة وشّدِ طرفيّ الجرح العميق النازل من تحت الركبة و حتى الكاحل بدون تخدير، كان شجاعاً، قوياً، صلباً كالصخر، لم يطلق آهةً واحدةً، يشد بقوة على أسنانه كاتماً ألمه، كانت تأمل وقف النزف

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بخياطة الجرح، عَقَّدتْ آخر غرزة، و لففنا ساقه بما توفر لدينا من شاش، بعد دقائق نَقَعتْ اللفافات وبدأ الدم ينزُ منها، سقطنا في الحيرة مرةً أخرى، حَملقنا في وجوه بعضٍ بانتظار شيء ما، كلمة، مقترح، مبادرة، لكن العجز التام أصابنا، في تلك اللحظات الحرجة، صعبة الوصف، انفتحت باب الطبابة ودخل علينا شابٌ غريب، قصير القامة، أبيض البشرة، خداه ينقطان ورداً أحمر، خمنتُ أنه في مقتبل الثلاثينات من عمره يتبعه أربعة شبان يحملون حقائب طبية، عَرفَ نفسه:

- أنا "نوزاد" طبيب أوك وهذا فريقي الطبي!

كأنه ملاك نزل علينا من السماء، كان يتحدث العربية بطلاقة، سنعرف لاحقاً أنه قَدِمَ من أرياف السليمانية في جولة لمقرات حزبه التي أسست حديثاً بعد اتفاق بين الحزبين الكرديين المتنافسين البرزاني والطالباني، لعلاج المصابين والمرضى، وأنه طبيب جراح في مستشفى السليمانية أضطر إلى الالتحاق بالثوار لانكشاف تنظيمه السري، ووصل البارحة وهذا من حظ "رفيقنا الجريح" إلى مقرهم المجاور. "عباس رش" يتذكر جيدا ذلك الملاك الذي أَنقذَ حياته في لحظاتٍ كأنها محض خيال، كان عملياً جداً، بعد أن عرف بنفسه وفريقه، تفحص الجرحى، تكلم مع طبيبتنا بالكردية مؤشراً نحو ساق "عباس" والتفت إلى طاقمه وأمرهم، فأسرعوا بفتح الحقائب السوداء، ظهرتْ معبأة باللوازم الطبية المختلفة، ودون تعليق ولا نقاش فتح اللفافات المنقوعة بالدم التي كانت تغطي عضلة الساق، فتدفق النزف غزيراً، نظف الجرح وعقمه و عامله بأدوية النزف وزرق ما حول الجرح إبراً قدرت أنها مُخدرة فاسترخت قسماته المتشنجة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

و تلاشى شّدْ الألم، عامّلَ الجرح بحرفية جرّاح ماهر ثم أعاد خياطتهِ بشكل سريع ودقيق فخف النزف حتى توقف نهائياً.

الملاك الذي هبط علينا وأنقذ "عباس" سيصعد بعد عام إلى السماء بحادث سيارة شمال إيران، والرفيق الجريح قضى بقية حياته في السويد سليماً معافى حتى وفاته قبل شهر.

بلغني سلام كعادته وأنا أكتب هذا الفصل.

ساعدت رفاقا إصاباتهم خفيفة، وخرجتُ من الطبابة بروح قلقة، حزينة، رميتُ بصري نحو المقبرة العالية باحثةً عنه، ومن الدخان الكثيف لمحتهُ ينحدر من التلة حاملاً على كتفه قطعة من ساق شجرة بلوط أسقطها القصف فغداً خَفارتنا كما ذكرتْ، هرعتُ إليه، كانَ متعباً، وجهه محتقن، وعلامات ضيق التنفس بدأت تظهر عليه، صاحبته إلى غرفتنا، قلتُ له:

- حاولْ الاسترخاء! سأعود إلى الطبابة يحتاجوني هناك!

وأنا في طريقي إلى الطبابة سمعتُ بعض الرفاق يهمسون بصوت خافت:

- يمكن هذا صدگ كيماوي! عيوني اشتعلت نار!

والآخر يقول:

- جسمي اشتعل وَنَفسي ضاق!

كانوا يتحدثون بصوت خافت جدا وبحذر، لا يريدون بث الرعب وإحباط معنويات الرفاق.

كان توقيت القصف محسوباً، يبدو أن عيون السلطة المُنبَثة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بيننا قد أبلغتْ بأن تجمعاً قيادياً كبيراً سيعقد مؤتمراً عسكرياً سنوياً، وتواجد عدد كبير من القيادات السياسية والعسكرية مع حماياتها، التوقيت ليس محسوباً فحسب بل مباغتاً وفي ساعة لا يتوقعها أحد فالظلام على وشك الهبوط، يضاف إلى ذلك أن السلطة لم تستخدم سابقاً في قصفها اليومي الأسلحة الكيماوية، لكل هذه العوامل كان الارتباك وعدم معرفة نوع السلاح إلا بعد ساعات حيث ظهرتْ آثاره على الرفاق، وكانتْ سبباً في خلافات شَبتْ بين الرفاق فبعضهم يؤكد أنها غازات سامة و الأخر يؤكد بأن القصف تقليدي.

كنا مشدوهين والصواريخ تمطرنا من سماء الله وتغمر حوض الوادي بأجمعه بالدخان السام والحرائق الصغيرة التي تشتعل لتبث الغاز، كنا من الناحية الاستراتيجية والتكتيك في وادٍ والسلطة في وادٍ، إذ لم ندرك عزم السلطة على القضاء علينا كحركة مسلحة تسبب ازعاجا لنقاط جنودها المنتشرة على سفوح الطرق الجبلية ونقاط التفتيش الموزعة على كل مخارج ومداخل مدن العراق الشمالية.

همستُ في أذن طبيبة الموقع عَما سمعتهُ من الرفاق المُتهامسين عن الأعراض التي ظهرتْ فردتْ بقلق:

- أعرف جاء بعض الرفاق وشكوا من عِسر التنفس، ومن حروقٍ بسيطةٍ في مواقع حساسة من أجسامهم!

صَمَتَتْ قليلاً لِتبلع ريقها وأضافت بصوتٍ قريب من الهمسِ ونبرة حزن وأسى وعجز كُلي ظهر على ملامح وجهها:

- أعتقد انضربنا كيماوي!

منشورات «ألف باء Alfyaa»

كنا نقفْ أمامَ باب الطبابة والليل نزل داكناً فبدت النجوم المضيئة خفيضة تكاد تعانق القمم المتلاشية حوافها بالظلام، أضافت:

- والرفاق توزعوا على فصائلهم منتظرين التعليمات من القادة العسكريين المجتمعين لوضع خطة طوارئ للانسحاب فيما إذا ثبتَ أن القصف بأسلحة كيماوية.

نغزني قلبي فعدتُ مسرعةً إلى حبيبي الراقد في غرفتنا، لأخفف عليه إحساسه بضيق التنفس وحرقة العيون، وجدتهُ يتلوى ألماً وضربات قلبه في زيادة يشعر بجسده يحترق بأجمعه، واسياخ من النار تنغرز في أحشائه كل لحظة، فيشب فرط الألم.

هَدَأتُ من روعهِ وتذكرت كيفَ كنتُ مُتماسِكَةً حينما سقط قدر دهن مغلي على جسد أخي الصغير "علي" ابن التسعة أعوام، كنتُ طالبة في الصف السادس الإعدادي، رأيتهُ يخرج من المطبخ ملتاعاً مثل طيرٍ مذبوح، ينتفضُ من شدة الألم. أبي أنهار وراح يضرب رأسه في الجدار الحديدي لسلالم السطح، نائحاً بصوتٍ مذبوحٍ:

- يا بوية.. يا علاوي راح تروح مني!

وأمي فقدتْ تماماً أعصابها فهبت راكضة إلى الشارع وحاولت أن ترمي نفسها تحت عجلات باص نقل ركاب عمومي كان يقطع الشارع الفاصل بين بيتنا ومستشفى الطوارئ القريبة، كنتُ أصرخ بصوتٍ عالٍ طالبةً من الناس نجدتي ومساعدة أمي المنهارة، لم أدرك ما أصاب أمي وفقدانها لعقلها إلا حينما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

صرتُ أماً تتمنى لو تصاب بالمرض بدلا من ولدها، فَكيفَ بأمي التي شهدت شواء جسد صغيرها، منعها الجيران وأمسكوا بها.

خَلْعُت ملابسه التي كانت تغلي من الدهن، لففتُ جسمه ببطانية وحملتهُ راكضةً إلى المستشفى لقربها من بيتنا، أنقذتُ حياة أخي الذي مكثَ لأكثر من شهر في المستشفى.

أمي وأبي بقيا يتذكران الحادثة و يعيدان روايتها في كل مناسبة مفتخرين بقوة تحملي في ساعات الشدة دون خوفٍ، و إيجادي حلول فورية لمواقف حرجة يغيب فيها العقل غالباً، بالحقيقة كنت أخفي خوفي وخشيتي عميقاً في نفسي وأتصرف.

ساعدتهُ بخلع ملابسه كي أرى ماذا أصابَ جسده، كان يصرخ من ملامسة أصابعي، لم يعد باستطاعته فتح عينيه لشعوره بحرقة وثقل شديدين فيهما، هتفتُ به:

- حبيبي حاول أن تفتح عينيك!

- لا أستطيع.. لا أستطيع! خناجر نار تضربني من أفتحها!

جهدت كي أهدئ من روعه وأشد من أزره، ناديته باسمه الصريح:

- سلام.. سلام حبيبي!

رجوتهُ أن يتماسك و يكتم ألمه.

- يا روحي الموت واحد، الفرق كبير بين اللي من يموت صامتاً كاظماً ألمهُ واللي يصرخ من الهلع اللي راح يتفسر جبناً إذا نجا فيصبح موضع هُزء من الآخرين.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

قلت ذلك دون قناعة ففي حقيقة الأمر كنتُ مفزوعة قلقة على حافة الانهيار خوفا من فقدانه.

خرجتُ مسرعةً كي أُخبرْ طبيبة الموقع والمسؤول العسكري بما أصاب زوجي. صَارَ الزمنُ ثقيلاً وكل دقيقة قرناُ والمسافة التي تبعد بين غرفتنا والطبابة تضاعفتْ بشكلٍ غريب، كنتُ أبذل ما لدي من جهدٍ إذ شعرتُ بخطواتي ثقيلة وبطيئة، وأخذتني الهواجس والأفكار السوداوية في سورة مجنونة سلبت طاقتي الروحية وقوة عزمي وتوازني التي استند عليها، وحبيبي تركتهُ ينوء بجسدهِ المشتعلْ ألماً، وبعينيه اللتين لا يستطيع مواجهة حتى ضوء الفانوس الخافت.

- يا إلهي هل سأفقده، ومن لي في هذا العالم العنيف القاسي والمضطرب الذي لا أفق فيه؟

فبعد أن نجونا من مصيدة السلطة وأجهزتها القمعية التي أوشكت أن تطبق علينا، وفزتُ به حياً وفتياً دون أن يصبح رقماً في عداد ضحايا حرب القادسية المشؤومة، ها هو يكاد يفلت من بين أصابعي.

- يا إلهي أنقذه من أجل حبنا، من أجل طفلنا الذي تركناه!

هواجس ومخاوف تتزاحم في ذهني وتثقل خطوي، وأسئلة تتزاحم:

- لماذا لم يرحنا القدر يوماً، لماذا عاكسنا طوال الرحلة ونَصَبَ شراكهِ لنا في أزمنة صعبة وتجارب مريرة، كان الخطر فيها يتربص بنا في كل حين.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وصلتُ إلى الطبابة بعناء شديد بعد أن شحذتُ قواي الروحية بطردِ الأفكار السوداوية صارخة في وجه الظلام والدخان:

- سينجو وأنجو ونكمل المشوار.. نعم سننجو.. سننجو!

دخلتُ الطبابة، وجدتُ الطَبيبة تَعتني بجرحى جدد حملوهم من الفصائل. من أقصى الطبابة أتى أنين "أبو رزگار" الخافت متواصلاً كمعزوفةٍ حزينة، كان يسبح في عالمٍ أخر، ممداً على إسفنجة رثة في الزاوية المقابلة لجثة الشهيد "أبو فؤاد" الساكن في أبديته.

همستُ بإذن الطبيبة عن حالة زوجي ومعاناتهِ، نَهضت فورا من جوار جريح و علامات الحزن والإرهاق والعجز واضحةً على قَسمات وجهها الأسمر الدائري، وعلى عينيها السوداوين الغارقتين في بحرٍ من الدمعِ المحبوس، صاحبتني إلى غرفتنا، لم تصمت ولا حتى ثانية واحدة طيلة مسيرنا في الممر الضيق الصاعد إلى غرفتنا حيث يتضور زوجي بعذابه. حدثتني عن مخاوفها وتدهور الوضع قالتْ:

- "بهار" تعرفين الوضعْ خطير جداً وصعب، حالات الرفاق المصابين بدأت تزداد سوءاً، ما عِدْنا لوازم طبية، الآن ظلام، لا نعرف ماذا سيحدث غداً، قد يقوم الجيش بإنزال أما يأسُرونا أو يقتلونا، فمن يقاتل! وهذا حال الرفاق الكل تقريباً مصاب. ومصيبتي يا "بهار" مصيبة بنتي "نداوي" أشلون أتحمل ذنبها، عاشت محرومة من الطفولة وبراءتها ولعبها بسبب خيارنا أنا وأبوها في الالتحاق بالأنصار.

كانت تفضي همها الدفين ومخاوفها بنبرةٍ مُتهدجةٍ، حَمْدَتُ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الملائكة في سري على قرارنا بالرغم من قسوته ومرارته بتركْ ابننا الوحيد ابن الثلاث سنوات عند أهلي حفاظاً على حياته.

"نداء" بنت الست سنوات عاشت وسط مجتمع أغلبه من الرفاق الرجال في حياة بدائية لا علاقة لها بالمدنية. (الآن نداء محامية مشهورة في السويد وتزوجت من سويدي ولديها بنت وولد لم أزل متواصلة معها في وسائل التواصل الاجتماعي)

- بهار تعرفين، والله سأقتلْ نفسي قبل أن يمسوا بنتي.

وصلنا إلى الغرفة، دفعت درفة الباب، وقع قلبي بين قدميَّ حينما شاهدتهُ يتلوى من سعير الألم المنتشر في كل قطعة من جسده، فَحصتهُ، قاستْ ضغطه ونبضه وقالت بصوتٍ مكسورٍ:

- "بهار" أصعدي به إلى فصيل الإسناد، فجميع الرفاق أبلغوا بذلك!

وخرجتْ مُسْرِعَةً عائدةً إلى غرفة الطبابة.

حاولتُ أن أبدو قوية لأُخففْ عليه، فليس لدينا سوى المعنويات للمقاومة بانتظار المجهول:

- سأجمع وثائقنا وأصعد به!

قلتُ مع نفسي لأقويها، ألبسته الحذاء، عَلقتُ بندقيتينا على كتفيَّ وتحزمتُ بصف المخازن، علقت حقيبة القماش التي تحتوي الوثائق والضروريات من اشيائنا على ظهري. ألقيتُ نظرة وداع على غرفة خلوتنا وأحلامنا وخططنا و عراق المستقبل الذي ظننناه دانياً وفي متناول اليد، عراق حر ديمقراطي تسوده العدالة الاجتماعية والأمان، وحُلمنا بالعودة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

إلى مدينتنا وصغيرنا الذي تركناه في لوعةٍ ومليون سؤال عن اِختفائنا المفاجئ من حياته.

كنتُ على يقينٍ بأننا لن نعود، أمسكتُ بيده و أنهضته بعناء، كان يجد صعوبة في الحركة:

- يا إلهي ماذا حلّ بحبيبي؟

- أي امتحان وضعتني فيه؟

وجودنا معاً هوَنَ علينا حياة الجَبل القاسية، البدائية، القاحلة جداً، وأعوام فراق صغيرنا "كفاح" وتريد يا إلهي اليوم أن تنال مني بحبيبي؟

- أتوسل إليكَ يا رَبَ الأكوان والأنهار أن ترأف بحاله وتخفف من الحُمى التي حَلَتْ بِجَسَدِهِ.

خَطَرَتْ في ذهني دَعَوات امي في لحظات ولادتي لبكري "كفاح"- تُبسمل وتدعو الله وملائكته والصالحين كي يسهلوا المخاض وآلام الطلق التي تشبه غصة الموت، يخففوا عليَّ ويجعلوني ألد بسلامة. تضرعتُ إلى ربَّ المحبة للرأفة بحبيبين قاوما شتى الصعوبات الاجتماعية والسياسية وتحملا فظاعة مشاعر الرعب من جلاوزة الدكتاتور، ترجيته كي ينقذنا من المخاض العسير والمصير المجهول.

- "بهار" بعد ما أشوفْ!

- حبيبي.. حاول تفتح عيونك.

- ما اگدر افتحهن، گزاز بيهن!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- طيب حبيبي.... تحَمل شدّة وتزول، ساعدني بالمشي راح نصعد لفصيل الإسناد، تتذكر الطريق اللي يصعد بمحاذاة صف أشجار البلوط المعمرة بنهايته الفصيل وغرفة السجن.

أكلمه طوال الطريق، كان يسير بصعوبة مباعداً ما بين ساقيه، المسافة لا تتعدى الخمسين متراً. تَمَّسْكَ بيدي جيداً فشعرتُ بألم روحه يتسرب إلى مسام جسدي وينال مني، أصابتني غصة وجع غريبة وأنا أشاركهُ وأقاسمهُ ألمهِ، كان يتشبث براحة يدي كغريق يتشبث بقشة وسط بحرٍ من الظلام، هل كانت الأصابع المتشابكة تخفف عليه أوجاعه، لحظتها وثقتُ بذلك.

ساد سكون غريب على الموقع، سكون وتوجس من يوم غد، التحضير لدفن الشهيد "ابو فؤاد"، مصير الرفاق الجرحى، إصابات متزايدة، حروق، فقدان بصر، عسر تنفس، أعراض بدأت بالتزايد وتظهر على جميع الرفاق ممن بقي في الموقع.

أقود زوجي وسط الصمت والهدوء بحذرٍ شديدٍ، أخوض في الظلام والسكون بقلبٍ يَضّجُ بالرعبِ وهاجس فقدان حبيبي وسندي في الحياة، يخطو بعناء، يتلوى ألماً، لم أكف عن كلام شد العزيمة ورفع المعنويات، وحبيبي صار مثل طفلٍ سَلّمَ أمره إلى أمه معتقداً بأنني منقذتهُ وهو لا يدري بما أصابني في اليوم التالي من عذابٍ وألمٍ. فما أجلَّ ظهور الأعراض عليَّ وساعدني كثيراً هو المنديل الذي نقعتهُ بمجرى النبع ووضعته على أنفي وفمي، ليس لمعرفتي بطبيعة القصف الذي ضُربنا به، بل لفرط حساسيتي من الروائحِ الكريهةِ كما ذكرتْ.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وصلنا بعناء إلى فصيل الإسناد، هالني المشهد؛ الرفاق متحلقين حول موقد نارٍ كبير جداً يتوسط ساحة خلف بناية السجن وقاعة الفصيل، الحلقة دائرية، يجلس متربعاً في طرفها المقابل لوقفتي الرفيق "توما توماس" صامتاً يحملق في ألسنة النار المتصاعدة من لهبِ جذوع أشجارٍ كبيرة شبكتْ أطرافها فوق الموقد، سأفهم لاحقاً أن النارْ والدخان المتصاعد يطرد الغازات السامة المنتشرة في الحوض الواسع، كان الجميع يجلس بصمتٍ وكأنهم يحيون طقساً بدائياً من طقوس القبائل البدائية، صمتٌ يقطعه سعالٍ مخنوق أو صوت رفيق يتقيأ، كان حضور "توما توماس" الشخصية اليسارية المخضرمة الطاعنة بالسن في صدر المشهد وما علقت به من قصص نضال تقترب من الأسطورة عن مقاومته السلطات الدكتاتورية إذ كان أول من لجأ إلى الجبال المجاورة للقوش مدينته في انقلاب 8 شباط 1963 الدموي وشرع ببناء قواعد الأنصار الاولى، وفعلها مرة أخرى حال انفراط عقد الجبهة الوطنية 1979 وشن السلطة حملة شرسة لتصفية الحزب الشيوعي، فهو أول من حمل السلاح وهيأ قواعد لاستيعاب الملتحقين من داخل مدن العراق.

والآن في هذه الليلة المشؤومة يمنح وجوده الرفاق قوةً وعزيمةً في تحدي مصاعب القصف وكأنه بوجهه الأبيض المحمر ولباسه العسكري وهدوئه الأب الروحي الذي يمنح الجميع فيض ودفء حنانه بجلال هيبته وشعره الطويل الأشقر المخلوط بالرماد النازل أسفل كتفيه، انتبهت من سرحاني على صوتٍ مخنوقٍ يشهق لتلقف الهواء يأتي من الطرف الآخر من حلقة النار. ساعدتُ زوجي بالجلوس جوار الرفاق المتحلقين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وركضت صوب مصدر الشهقات فوجدتُ "أبو ماهر" ساقطاً على الأرض وهو في شبه غيبوبة، ينتفض سعياً وراء الهواء. قلت مع نفسي:

- يا إلهي اختنق "أبو ماهر" راح يموت!

"أبو ماهر" هو "ثابت حبيب العاني" عضو مكتب سياسي وصاحب امتياز جريدة الحزب الشيوعي العلنية "طريق الشعب" زمن الجبهة الوطنية 1973-1979، جمده الحزب عن العمل الحزبي في إحدى مؤتمراته، لا نعرف الأسباب فمثل هذه من أسرار الحزب تُكْتَمْ عادةً، لكنه رفض مغادرة الثوار إلى الخارج وأصرَّ على البقاء بينهم، فحلَّ في غرفة صغيرة في فصيل الضيافة، كان مريضاً بالقلب، عاش وسط الأنصار، شخصية متواضعة جدا، محبا للجميع ويحبه الجميع، مثل أبٍ حاني حريص على سلامة أولاده، كسب حُب واحترام أغلب الأنصار لسعة قلبه واستيعابه وجهات النظر على اختلافها.

الصواريخ التي قضت على "أبو فؤاد" سقطت على مبعدة عشرين مترا من غرفته، ومن حسن الصدف أنه كان داخلها في دقائق القصف، انحنيت عليه، كان يتنفس بصعوبة، وقَسماته محتقنة كمن يوشك على لفظ أنفاسه، رفعته من رقدته وأسندت رأسه بكتفي ثم أدليته إلى الأسفل فشهق شهقةً قوية وبدأ يتقيأ، لفحتني رائحة خليط التفاح المتعفن والثوم نَفثها مع سوائل القيء، صار هاجس فقدان زوجي أكبر وودتُ لو أسرع لأرى كيف صارَ وضعه؟

بقيت أسندْ رأسه بوضعٍ يجعل من تنفسه أسهل إلى أن جاءت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الطبيبة التي لا حولَ لها ولا قوة.

رجعتُ إلى زوجي فوجدته يئنُ أنيناً مريراً يختلط بأنين الرفاق وهذيان الألم من شدة الحروق، فقدان البصر، عسر التنفس، يهذون بأصواتٍ باكيةٍ متحولين إلى أطفالٍ تستنجد بأمهاتهم وآبائهم، والأكثر جزعاً يتوسلون الموت للخلاص من نار جهنم التي صُبت علينا في غروب ذلك المساء.

أمسكتُ يده بيدي، ومَسَّدْتُ وجهه بأنامل يدي الأخرى وتمنيتُ أن أُقاسمهُ ألمه وأخفف من أوجاعهِ، كان يهذي متألماً بأصواتٍ مبهمةٍ، قربت شفتي من إذنه، وَتوسّلْتُ إليه للكف عن التأوه بصوت عالي مكررة:

- حبيبي أرجوك كُن قوياً.. تماسك!

كَمْ كنتُ مثاليةً في محاولتي منع شكواه من عذاب جسده المحترق كَم؟ كان مستعراً بنار جهنم وأنا أنطق جملاً جاهزة عن الشجاعة والصلابة، أتذكر الآن وأنا أكتب جملتي وأتعجب من نفسي:

- حبيبي الموت حق ولا بد منه، والفرق شاسع وكبير بين من يودع الحياة كاظماً آلمه وأخر يجهر بضعفه!

عذري؛ أنني كنتُ في مقتبل الحياة والتجارب.

صارَ الوقتُ ثقيلا، ساعة الزمن تعطلتْ، تفاقم شعوري بالعجزِ التام، فهجمتْ هواجس الفقد من جديد وَبَدَأتْ تتمكن مني وأنا أشاهد رفاقي يتصارخون و يتطوحون في جلساتهم، ينادون امهاتهم وآبائهم، السماء والرب كي يخلصهم من أجسادهم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

اللائعة، ينهكون فيسقط بعضهم في غيبوبة قصيرة ويشب متألماً من جديد في دوامة لا ضفاف لها.

شقَ الفجرُ أول خطوطهِ في سماء الله الصافيةِ، وقطراتُ ندى الصباح بللتْ أوراقَ الأشجار وروحي المعذبة لمصاب زوجي ورفاقي.

اجتمع بنا أحد ضباط الموقع وأبلغنا بضرورة إخلاء المقر لتلوثه بالغازات السامة، وكلف غير المصابين مساعدة الجرحى في الصعود إلى موقع "الدوشكا" القريب من أعلى قمة والذي لم يصبه التلوثْ. وأخبرنا بأن هذا قرار قيادة القاطع، يحتاج الوصول للموقع أكثر من ساعة صعود في طريقٍ وعرٍ وممرات ضيقة، شُكِلَتْ فوراً فرق عمل كنتُ من ضمنهم.

ذهبتُ إلى زوجي الراقد مع الرفاق المصابين وأخبرته بالقرار، وبأن الرفاق خصصوا ثلاثة بغال لنقله ونقل الرفيقين "أبو ماهر" وأبو رزگار لعدم قدرتهم على المسير، حاولت إنهاضه، كان لا يستطيع تحريك جسده من الاسفنجة، استعنتُ بأحد الرفاق، فساعدني على إيقافه على قدميه وإصعاده على ظهر البغل، حبيبي يلوب من ألمه وأثناء صعوده همسَ في أذني:

- أحس نار تشوي لحمي!

كنت أشّد من عزيمته وأصّبْرهُ على أمل أن تأتي لنا نجدة ومساعدات من الحزبين الكرديين المتواجدة مقراتهم القريبة من مواقع مقراتنا الأخرى.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

رافقني في قيادة البغل رفيقان واحد كردي من أهالي "العمادية" أكنُ له احتراماً شديداً وآخر عربي غير مريح بحركته ونظراته وصمته المريب، وعينيه المتلصَصتين، كان يثير ريبتي ولا أعرف بالضبط لماذا؟ اسندنا أنا ورفيقي الكردي زوجي من الجانبين خوفا عليه من السقوط، كان قد فقد البصر تماماً، يتمايل في جلسته ويئن أنيناً يفطر القلب، بينما الرفيق الآخر يسحب البغل. تسلقنا الطريق الوعر بمشقة وبطء شديدين، فبين عدة خطوات أخرى يميل ويكاد يسقط فَنتوقف ونعدل جلسته، كانت الشمس ساطعة وقوية والسماء شديدة الصفاء والزرقة، الأشجار المحيطة بالوادي أصيبتْ أيضاً وبدأت أوراقها تفقد خضرتها وتكتسي بلونٍ أحمرَ أسوّدتْ حوافه، شعرتُ بها تشاركنا النزف والألم في مخاض الليلة الجهنمية هي والقاعات والغرف التي صارتْ جزءا من ذكريات حياتنا.

في منتصف المسافة شعرتُ بحرقة في عينيّ وصعوبة في مواجهة ضوء النهار الساطع، ثم أنتشر الألم والحرقة إلى المناطق الحساسة في جسدي مع حشرجة ببلعومي وكأن شيئاً صلباً سّدَ حنجرتي، كنتُ أقاوم وأسأل حبيبي المتأرجح في جلسته القلقة عن حاله، أصبره، أدعوه للتحمل فما بقي إلا القليل وَنَصلْ، متناسيةً ألمي، كان لا يردّ بكلمة، سقط في صمتٍ فزَادَ من قلقي وشعرتُ أنني أُذبَحْ وأنينه عاد أخفت وغير مسموع.

فجأة فقدتُ البصر، لم أستطع تكملة المسير قلت لرفيقيَّ:

- وصلوا "أبو الطيب" وأني أبقى أنتظر هنا لما تجي مجموعة أخرى تساعدني!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

اختلف الرفيقان حول من سيبقى معي، أصرَّ "العربي" على البقاء معي وطلب من الرفيق الكردي قيادة البغل ومواصلة المسير، رفضَ "أشتي" وهذا أسمه وأصرّ على البقاء ومساعدتي، فتمتم بصوت خفيض سمعته إذ كان قريب مني:

- اللعنة.. كردي راسك ناشف، غير تروح!

وشتمه بصوتٍ خافتٍ، فتيقنت من سوء نيته، ناديت على "أشتي" وطلبتُ منه قيادتي قائلة:

- سأمسك بيدكَ.

واصلنا المسير، أي ثقلٍ في الخطوات، وأي عناء، وأية مشقة، صار بلوغ الموقع حلماً، كأننا نسير على درب الجلجلة والآلام، الطريق الذي سلكه المسيح من باب الأسباط إلى كنيسة القيامة عندما قام اليهود بتعذيبه وصلبه.

الآلام بدأت تشبُ في جسدي، عينيَّ أشعرُ بهما قطعتي جمرٍ، كلما حاولتُ فتحهما يهجم عليّ حشدُ من الدبابيس، لا أدري ولا أتذكر كم ظللنا بالطريق وكيف وصلنا إلى "الدوشكا"، هاجمني الخوف والخشية من قادم اللحظات، من قصفٍ قد يباغتنا في أية لحظة، محنة فقداني البصر، آلامي التي انتشرت بأنحاء جسدي، وحبيبي الذي باتَ عاجزاً تماماً والمتحول إلى كتلةٍ مشتعلة بالألم.

استقبلنا الرفاق صارخين:

- إلى المجرى.. إلى المجرى!

وأمرونا:

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- غطوا رؤوسكم بعيون مفتوحة في الماء!

- اغسلوها قدر المستطاع!

باعدتُ أجفاني فهب الألم، قاومتُ فرأيت صفاً من الرفاق منبطحين على بطونهم ويغطون وجوههم ويخرجونها، يغطونها ويخرجونها، كُنّا نتأمل في الماء خلاصاً دون جدوى. يَخفت الألم لحظة غمر الماء الجاري العينين المفتوحتين ويستعر حال سحب الرأس من المجرى، لا أدري أين ذهبوا بزوجي، سألت الرفيق الواقف بجواري والذي يعطي الأوامر، طمأنني:

- أخذوه إلى القاعة الكبيرة.

رافقتني رفيقة مكلفة بالعناية بيَّ، ابتعدت عن ضجيج الرفاق وصعدت بيّ قليلا مقتربة من حوض النبع، ساعدتني في غمر وجهي به، لم أكفْ عن غطس راسي فيه كنتُ أظن بالماء خلاصي وهو يبرد حدقتي عينيَّ المشتعلتين للحظة.

كنا غرقى في عالم الظلام والألم نتشبث بأبسط قشة نظنها تنجينا من هول ما كنا فيه.

مَرّتْ الأيام قاسية وثقيلة تضورتُ فيها بألم الحروقْ وضيق التنفس وحرقة العينين، وعدم معرفتي بحال حبيبي، أسبوع لم ألمس يده، لم أسمع صوته، كنت أطمئن عليه من خلال الرَفيقة الحانية عليّ التي كانت تُطبب جروحي وتساعدني في قضاء حاجتي، تأخذني إلى الحمام وتجلب لي الوجبات الغذائية وتساعدني في تناول الطعام.

في اليوم الثامن خفت الآلام في عيني فتمكنتُ من فتحهما

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ومواجهة ضوء النهار قليلا.. قليلا، هرعتُ أبحث في أنحاء الموقع عن زوجي، لم أجده في القاعة الكبيرة، سألتُ الرفيق المسؤول فأخبرني أنه عُزل لخطورة وضعه مع الرفيق "أبو رزگار" تحت "كله" في فسحة خلف القاعة، ركضتُ نحو ما أشار. وَجدتهُ ممداً يئن على إسفنجة رثة وإلى جواره يرقد "أبو رزگار" تحت خيمة سوداء من القماش المخرم، يرتديان اللباس الشعبي العراقي "الدشداشة" لشدة حروق جسديهما، تلمست جسده قطعة.. قطعة، سمعت نبض قلبه تأكدتُ بأنه لم يزل حياً حضنته وقلت:

- يا حبيبي

حال سماعه صوتي بدأ يئن ويلصق وجهه بيّ. كان "أبو رزگار" يستلقي على ظهره ساكناً لا يصدر عنه صوت كأنه يسبح في عالمٍ أخر.

قلت بحزم للرفيق الذي كان يُتابعهما:

- أخذ "أبو الطيب"!

- رفيقة ما يقبلون الرفاق!

صرخت به:

- ما عليّ بما يقول الرفاق راح آخذه يعني اخذه!

قلتها بقوة وحزم، توسل قائلاً:

- رفيقة أعرف شعورك لكن وضعه خطر ويحتاج أكثر من رفيق يعتني به، خليه تحت عيوني اخاف يصير شي!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

صرخت هذه المرة بصوتٍ سمعه الجميع:

- قلت اخذه يعني اخذه!

كنت أشعر بغبطته وهو يسمع اصراري على أخذه معي والعناية به، حضنته، وساعدتهُ على النهوض، تشبث بيدي، لم يزل غير قادرٍ على فتح عينيه، صعدتُ بهِ وأنا أشير عليه أين ينقل موضع قدمه فَالمسلك متعرج وضيق يؤدي إلى "كَبرا" (عبارة عن مساحة صغيرة تتسع لإسفنجتين أرضها مستوية و مرصوفة بالأحجار والصخور الجبلية، سقفها من أغصان أشجار البلوط المورقة، يرتكز على أربعة أعمدة من سيقان الأشجار قوية، تأوينا من وهج حر الصيف) تجاور النبع وتطل عليه، وهي معزولة عن الموقع وهادئة.

جاءتنا مساعدات طبية من رفاقنا في الفوج الأول، ومن قاطع أربيل مما سهل معالجة الرفاق ذوي الإصابات الخطيرة ومنهم زوجي بإعطائه مضادات حيوية قوية جدا عالجت الالتهابات في جسمه والمجرى التنفسي والبلعوم، كما توفرت مواد التعقيم والشاش الطبي وأدوية الحروق.

في صبيحة من صباحات تلك الأيام العسيرة، والرفاق المصابون ينتشرون بارجاء الموقع يسعلون سعالاً متقطعاً، بعضهم يئن وبعضهم يهوع وكأنه يود نزع أحشَائهِ، ومع نزول الظلام سمعتُ رفيقاً يصرخ محذرا الرفاق نصف العميان بالابتعاد عن مجرى النبع فثمة شجرة معمرة شاهقة الطول راحت تطقطق بالرغم من سكون الجو، ازداد ضجيج تكسرها فقفز الرفاق هاربين بعيداً عنها، هوت وارتطمت بالأرض

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بصوت كأنه انفجار، وقع قلبي من الفزع والخوف على رفاقي لكن لم يصب أحداً، ووقتها لم يحققوا بالحدث لانشغالهم بالرفاق المصابين، الآن وأنا أستعيد تلك التفاصيل وأكتبها أفكر بتوقيت انهيار تلك الشجرة العملاقة، أتساءل:

- هل كانت بفعل فاعل؟

أكاد أجزم أنها بفعل مندس في صفوفنا، سعى لقتل أكبر عدد ممكن من الرفاق، كأن السلطة لم تكتفِ بما أصابنا، أو علمت بِتشبُثنا بالحياة وتكاتفنا في مواجهة الجحيم الذي صبتهُ علينا في ذلك الغروب المخادع بهدوئه؟، فأوعَزت إلى عميلها ليسقط الشجرة التي لولا التحذير لقتلت العديد من الرفاق.

كانت أيام ثقيلة، لياليها يصعب فيها النوم، فالجميع يعاني من صعوبات في التنفس، كان زوجي ينام جالساً، لا يستطيع الاستلقاء إذ يختنق، كنتُ أتلَمسهُ مستيقظاً وغافياً، وأتَسمع تردد أنفاسه ونبضه وأقول مع نفسي:

- المهم نجونا وسنواصل الحياة معاً!

في صبيحة مشرقة أطل علينا صديق زوجي القديم "أبو خولة" -إبراهيم عبد الحسين- بوجهه الأسمر وهدوئه، لازم زوجي وساعدني في العناية به، كان يجلس صامتاً جواره لا يتكلم إلا نادرا بالضرورة، ويقوده إلى الحمام كل يوم ليغسل حروقه، شعرتُ بسعادة زوجي وانفراج مزاجه بالرغم من عماه وَحروقه لحضوره ووجوده قربه طوال الوقت. "أبو خولة" لما سمع بإصابة زوجي قدمَ من موقعٍ يبعد ثلاثة أيام مسير ليعتني به.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بدأ وضع الرفاق المصابين بالتحسن ببطء وكنتُ أذهب بين الحين والحين حينما يسقط زوجي بالنوم للاطمئنان على الرفيقة "أم بدر" زوجة طبيب أسنان الموقع، كانت حامل، تنتظر المخاض لكنه تأخر من الهول والرعب، وحينما أتاها أسرعتُ لأكون مساعدة للطبيب المختص "أبو تضامن" الذي جهد لتوليدها، لكن الولادة تعسرت، وضغطها صار صفراً، وكادت أن تفقد حياتها، فالجنين ماتَ في بطنها، ولا تتوفر إمكانية إجراء عملية قيصرية.

كنتُ أخرج من خيمة التوليد فَيستقبلني زوجها الذي اوشكَ على الجنون، كنتُ أطمئنه متظاهرة بالتماسك وأنا أكثر رعباً منه. كنت أخرج لأشم الهواء لتهدئة أَعصابي من مشهد حيرة الطبيب الذي يحاول دون جدوى، فيتوسل بها كي تبقى متيقظة، كانت مهمة الطبيب صعبة جدا، استخدم ملاعق أكلٍ بعد أن وسع بالمشرط حتى فتحة الخاتم وسحبَ رأس الجنين الميت، ناولني المولود كان جميلا جداً، وضعته على فراش صغير بينما سقطت "أم بدر" بغيبوبة طويلة.

كم كانت تحلم بالأمومة وتتخيل لحظة شمه وضمه، لكن حلمها وَأدهُ القصف.

بعد مرور سبعة أيام أستشهد "أبو رزگار" متأثراً بجروحه، زوجي بدأ بالتحسن البطيء، وبمرور الوقت بدأت صحتي تتدهور وتظهر عليَّ علامات الإرهاق، شحب وجهي وأصفّرَ، و"زوجي" أصبح وضعه الصحي هشاً، يصاب بالتهاب الرئة على فترات متقاربة وخصوصاً أيام البرد القارص. بعد مرور

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ثلاثة أشهر تفاقمت معاناتنا الصحية، هزلتُ وفقدتُ من وزني الكثير، ألحَّ زوجي كي أفاتح الرفاق عن تدهور وضعي، فتقرر أرسالي إلى إيران لأجراء فحوصات لمعرفة سبب فقداني الوزن وتدهور صحتي، سيتضح في السنين اللاحقة بـأنني مصـابة بالسل الرئوي، وبأمراض تنفسية عديدة، وأكتشف بأني أعيش بكلية واحدة والأخرى ضامرة، أما زوجي فسوف يتبين أن الغازات أتلفت رئتيه وسيعيش كل عمره بثلث رئة.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عالم ملغوم

كان يوماً مشمساً، وعقب الفطور تجمعنا لسماع نشرة الأخبار يتلوها الرفيق المكلف، وفي حديث عرضي ذكر ليّ رفيق بأن مفرزة صغيرة ستخرج لتجربة الطريق إلى مقر قاطع "بهدينان" المقطوع منذ أشهر ستة لشدة هطول الثلوج في ذلك الشتاء القاسي، لم أتمالك نفسي، ابتعدتُ عن الرفاق، تَسلقتُ السفح حتى نبع الماء، وهنالك جعلتُ أصرخ فرحاً وأردد مع نفسي بصوت مسموع:

- وأخيراً سأكون في حضنك يا زوجي الحبيب!

عدتُ وتوجهتُ إلى المسؤول العسكري للفصيل، وعلى جنبٍ أخبرتهُ بعزمي على الذهابِ مع هذه المفرزة. رفضَ طلبي قائلاً:

- رفيقة المفرزة صغيرة والطريق غير مضمون، مناسيب مياه الأنهار مرتفعة، وأنتِ لا تعرفين العوم، لا نريد أن نغامر بكِ.

فضلت المغامرة على البقاء أيام إضافية، جادلتهُ مصرةً فهو

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يعرف تفاصيل ما حصل لي هنا:

- رفيق أنت خير من يعرف لماذا؟، سأذهب معها بالرغم من خطورتها، المغامرة أهون عليّ من العذابات التي عشتها هنا!

ختمت حديثي بلهجة قاطعة.

بعد مغادرة زوجي عائداً إلى مقر قاطع "بهدينان" في "زيوة" خلف العمادية، عبرتُ سراً إلى إيران في شتاء 1987 للعلاج، إذ تدهور وضعي الصحي بعد إصابتي الشديدة بقصفٍ بالأسلحة الكيمياوية "غاز الخردل" في الخامس من حزيران 1987، ثم عدتُ منها إلى مقراتناالثلاثة المتقاربة في وادي "خواركوك" التابعة للمكتب السياسي وهي؛ دجلة، بيرِنان، وأرموش العليا - قسم الضيافة- الذي بقيت فيه.

المواقع جميعها تقع في المثلث الحدودي العراقي-الإيراني-التركي وبسبب تساقط الثلوج الكثيفة، انقطعت الطرق تماما واصبح من المستحيل العودة إلى حيث "زوجي" في قاعدتنا.

كنتُ المرأة الوحيدة وسطهم، لم آبه أول الأمر فقد كنتُ أعدّهم أخوتي أو أكثر، إذ كنت غضة وأحمل لشخصية الشيوعي تبجيلاً خاصاً نتيجةً لتربيتي الأسرية، لكن لم تمضِ أيام قليلة حتى شعرتُ بعيونهم المتلهفة تنهبُ جسدي وتحاصرني، لَبَسّني الرعب وأنا ألاحظ انفعالاتهم وارتباكهم حينما أبادل أحدهم الحديث، وعيونهم المتوحشة تجردني من ملابسي العسكرية الفضفاضة فبتُ أخشى وأرتبك وكأنني محاصرةً في غابةٍ، ووحوش مفترسة تنتظر الفرصة لمهاجمتي، أصبحتُ حذرةً، أضعْ مسافةً في الحديثِ والحركةِ عنهم، كنتُ أستَجْمعْ ما بيَّ من

منشورات «ألف باء AlfYaa»

طاقة كي أتماسك وأبدو قوية في بحر النهار، أقاوم الوهن والارتباك الذي يصيب مفاصل جسدي وأنا أتصورهم خلفي وأراهم أمامي كيف ينظرون لحركةِ جسدي أثناء تأدية ما عليَّ من واجباتِ يوم الجبل القاسي.

أرتبكَ وضعي البشري تماماً، ففي ساعات حراستي وخصوصا في أوقات الليل المتأخرة كنت ألمَّ شجاعتي بالرغم من الخوف الذي كان يجري في عروقي ويهز كياني. ذعرٌ مطلقٌ مدفون ومغلف بشجاعة مُقَنَعة، لا من الأعداء المحتمل تسللهم لضرب قواعد الثوار بل من رفاقي. أصبحتُ وَجلة بحركاتي وتصرفاتي خلال ساعات النهار بعدما سمعتُ همس ووشوشة بعضهم، كلما تحدثتُ مع أي واحد منهم عن همي وقلقي على زوجي البعيد أو أي حديث عن يوميات حياتنا الأنصارية، سأكتشف لاحقا، أن الجميع يظن لا بل يعتقد بأن كل رفيقة تنفرد مع رفيقٍ في حديث بعيداً عن البقية، لديها ارتياح ورغبة بعلاقة غرامية به.

لم يمر على مكوثي في هذا الموقع أكثر من ثلاثة أسابيع، وفيما كنتُ في واجب حراسة بعد منتصف ليلةٍ شديدة البرد والثلج يغمر الأرض بارتفاع أكثر من مترٍ، وفيما كنتُ مراعية التعليمات التي من شروطها أن يَكمن الحارس دون كلام ولا يستخدم المصباح اليدوي إلا بالضرورة. جاءني أحدهم متسللا بكل هدوء، وبالرغم من حلكةِ الظلام تَمَكَنْتُ من سماع حفيف خطواتٍ تقترب من مكاني فصحتُ:

- "چي زلم" باللغة الكردية وتعني "من هذا"؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لم يرد عليّ، سحبت أقسام بندقيتي ولقمتها طلقة، اقترب وبصوتٍ خافتٍ مرتبكٍ أجابني:

- "أنا رفيقك "ص"!

استغربتُ وجوده في هذه الساعة المتأخرة، فهو شخصية ملتبسة ومرتبكة، الجميع يعرفه، كان يائساً، جرب التسلل إلى إيران فقبض عليه الحرس الثوري، وقضى عاماً في سجن "إيفين"، أطلقَ سراحه فرجع ملتحقاً بالثوار للمرة الثانية، صار مذعوراً، لا يفضل البقاء في موقعٍ يتعرض للقصف فكان يجوب مع مفارز البريد غير المقاتلة ولا يستقر في موقع. خشيتُ منه لكني تماسكتُ وسألته بقوة:

- ماذا تريد؟ ولماذا أنت هنا؟

ردَ مرتبكاً ومرتجفاً أنه يهواني ويريدني، صرختُ به بصوتٍ عالٍ كي يسمع من لم يأته النوم من الرفاق، موجهة فوهة بندقيتي نحو صدره،

- سأقتلك يا ساقط!

هربَ كالفأرة مرعوباً.

لم أنم ليلتها، ومع خيوط الفجر قصدتُ المسؤول العسكري للموقعِ وأخبرتهُ ما حدثَ لي. اقترحَ عليّ الانتقال إلى غرفة مكتب الفصيل التي ينام فيها ثلاثة؛ المسؤول العسكري والإداري والسياسي، إلى حين استعادة شعوري بالأمان. صدقتهُ بقلبٍ طيبٍ، وانتقلت من قاعة الفصيل الكبيرة التي فضلتها أول الأمر، إذ قدرت أنها أفضل من غيرها لتواجد جميع الرفاق،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كانت تتسع لأكثر من عشرة أشخاص. اخترتُ الزاوية المواجهة لباب القاعة المكون من بطانيتين، عازلةً فراشي بصفيحة دهن "الراعي" النباتي عن باقي أفرشة الرفاق. مرتْ الأيامُ ثقيلة متوترة، أُكَمِل واجباتي اليومية من جمع حطب، طبخ، وفي وقت الفراغ عدتُ أنزوي لأقرأ، كان الكتاب مُنقذاً وخلاصاً من عبء الوقت، ووسيلةً تبعدني بتحاشي الحديث والاحتكاك بالرفاق. كنتُ أسهر الليل ولساعات طوال مبحرةً في كتابٍ على ضوءِ الفانوس حتى أسقط في نومٍ خفيفٍ قلقٍ، ذقتُ جحيم الشك والريبة بمن حولي، ومع كل حذري وتغيير تعاملي مع الجميع لم أسلمْ من ألسنةِ وعقول السيئين منهم وتصرفاتهم.

بحثوا عنه في المواقع، لم يعثروا عليه، اتضح انه هربَ لوحده قاطعاً الطرق الجبلية الوعرة المغطاة بثلوج كثيفة ووصل قاعدة "زيوة" خلف العمادية، مستعيناً بمهربي المواد الغذائية والتبغ وبأهل القرى المتناثرة في الوديان والسهول التي تسيطر عليها الأحزاب الكردية، لم يسأل عليه رفاق الموقع، إذ كان ضيفاً دائماً كما بَيّنتْ، كان حائراً بروحه.

بعد عام من هذه الأحداث التي أرويها سيلقي حتفه في نفس موقع "زيوة" ومن الصدف أن يكلفْ زوجي أبو الطيب "سلام إبراهيم" مع أربعة رفاق لاستطلاع ما جرى للمقر بعد ليلة قصف كثيفة، فتبين أنه قتل مختنقاً بغاز الأعصاب، فدفنوه مع رفيقين آخرين على عجل كما سيخبرني زوجي حال عودته من المهمة، كان ذلك بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية في شهر آب 1988، وزحف الجيش العائد من الجبهات على مناطق الثوار.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

هجرَ النومُ عينيَّ وَلَبَسَني هاجس الخوف من رفاقي منذُ تلك الليلة القاسية التي اهتزت بها كل قناعاتي.

بمرور الأيام اكتشفتُ النوايا الدنيئة للمسؤول العسكري بعدما ضبطتهُ ينام في فراشي المنزوي المكون من إسفنجة وبطانية رثة، صُدِمْتُ أول وهلة ولزمت الصمت، فهو حينما يراني ينهض مرتبكاً ويخرج من الغرفة، كررها مراتٍ عدةٍ، أصابني الانكسار و جرفتني موجة من الغضب ممزوجة بالرعب، فانفجرت بوجههِ صارخةً صراخاً مجنوناً، جعلهُ يهرب مذعوراً.

هؤلاء الرفاق المساكين لا يعرفون عن حياتي الماضية قبل الالتحاق، وحُبي لشريك حياتي وابني الذي تركته خلفي عند أهلي.

سقطتُ في الحيرة والأسئلة وصرتُ أحدث نفسي وأسألها عن هولٍ ومبلغ الخرابِ والتشوه الذي أصاب رفاقي:

- هل هي العزلة والعيش لسنواتٍ طوال في بيئةٍ مغلقةٍ، أم من يسلك هكذا سلوك مندس بالأنصار والحزب، اخترق التنظيم وعاد يرفع سلاح الثورة بيد علناً ويده الأخرى تضع "الثاليوم" السام بحباب الماء ودهن الراعي لقتل أكبر عدد من الرفاق؟

- هل يعود ذلك إلى حرمانهم من دفء العائلة ومحيطهم الاجتماعي الطبيعي في مدنهم القريبة المستحيلة أم اليأس وخفوت حلم الانتصار والعودة إلى الحياة الطبيعية؟

- هل من قسوة حياة الجبل البدائية بتفاصيلها، كأننا نعيش في العصر الحجري وليس في ثمانينيات القرن المنصرم؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لا أدرى

لا أدري

لا أدري لماذا يحصل ليَّ كل هذا؟

غرقتُ في أسئلةٍ وأسئلة تناقض بعضها، ظلّتْ تدور في رأسي دون إجابات تهدئ روعي وقلقي وشعوري بعدم الأمان الذي أصبح مركباً! من العدو، ومن رفاقٍ تشوهتْ أخلاقهم ومبادئهم فَصارَ الشر والتآمر ومحاولة تخريب العلاقات الزوجية سلوكهم؟ عرفتُ لاحقاً أن هناك عددا من النصيرات وَقعنَّ في شباك هؤلاء ودفعنَّ الثمن غالياً في خراب حياتهن الزوجية وتشوه أصاب سلوكهنَّ وأخلاقهنَّ.

لقد كنتُ في ضلال وعليّ الآن أن أفكر مليون مرة قبل الحديث مع أي رجل أو مَن يدعى الرفقة واحترام المرأة لكنه بياع كلام ليس إلا. علمتني التجربة أن أغلق باب بيتي ولا افتحه إلا لمن يطمئن له قلبي.

لم أعد أطيق البقاء في الموقع، فطلبتُ من مسؤول الموقع الانتقال إلى موقعٍ تتواجد فيه نصيرات أو عوائل رفاق، جادلتُ مكتب الفصيل وأشرتُ بشكلٍ مباشر إلى المضايقات اليومية التي أتعرض لها، في مساء اليوم نفسه خرجت مع مفرزةٍ صغيرةٍ قاصدةً موقعٍ مجاورٍ، كنتُ أسير مهمومةً، شاعرةً بالأسى والقهر على ما أصابني من رفاقٍ أشاركهم الكفاح والحياة القاسية. شعرت بالرفاق المتحرشين جلادين لا يختلفون عن جلادي البعث حينما تقع شيوعية في قبضتهم، كانت التجربة فاجعة بالنسبة لي جرحتني جرحاً عميقاً.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

وصلتُ إلى مقر "دجلة" القريب، كانوا يعرفون ما جرى ليّ في موقعِ "أرموش" فعرضوا عليَّ خيارين: أما مشاركة الرفاق القاعة الكبيرة أو النوم في غرفة مهجورة، رطبةَ جدا، جدرانها مغطاة بقطع نايلون، سقفها من أغصان الأشجار، حينما دخلتها شعرتُ بها كثلاجةٍ في وسطها ساقية ماء صغيرة، فضلتُ الغرفة البائسة الرطبة حيث سأكون وحدي، رتبتُ المدفأة المصنوعة من صفائح دهن الراعي، وهرعتُ في صبيحةِ اليوم التالي لجمع الحطب من الغابةِ القريبةِ.

قضيتُ فيها أشهر الشتاء القاسية، تراجع شعور الرفقة وأحتلَّ نفسي إحساس غريب جداً؛ كنتُ أشعر أحياناً أنني سجينة في قبو رطب من أقبيةِ السلطةِ محاصرةً في عشيَّ البارد بجلادين قساة.

احتدم الصراع في داخلي بين الشعورين فأدخلني في دوامةٍ من الأفكارِ والأسئلةِ فاضطربتْ المعاني واختلفتْ. كنتُ اقضي ساعاتٍ أناجي الطبيعة وأسالها الرحمة بيَّ وبوضعي الذي عادَ بائساً بعدما جرى ليّ ما جرى، فأستفحل شعور الاغتراب والتنافر مع بيئة رفاقي التي اخترتها مضحيةً بتعليمي الجامعي الذي بقي حلماً يراودني في صحوي ومنامي ولم أحققه إلا في محطة حياتي الأخيرة في الدنمارك بعد رحلة عذابٍ بين معسكراتِ اللجوءِ في تركيا وإيران، تركت ولدي الصغير ابن الثلاثة أعوام عند أهلي، تركتُ مدينتي الحبيبة التي غامرتُ فيها بالعملِ في تنظيم سري مخاطرةً بحياتي وعائلتي وأوشكتُ أن أُعْتَقَلْ، كدتُ أموت نزفاً بعد أن أَجريتُ عملية إجهاض بالسرِ معرضةً حياتي للخطرِ كما سردتُ تفاصيلها في فصل سابق.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أجلس على فراشي جوار المدفأة في الليالي وحيدةً، أحملقُ ساهمةً بساقيةِ الماء الصغيرة وسط الغرفة، بالجدرانِ والسقفِ، بلهب النارِ، أناجي الطبيعة وثلجها، أترجاه أن يذوب كي تُفتَحْ الطرق فأعود إلى حضن زوجي الدافئ فيعود إليّ الشعور بالأمان، تُلَوعّني الأماني والأخيلة فانهض نحو فتحة الباب وأرفع البطانية ناظرة إلى السماء تأخذ روحي المعذبة نجمة تائهة، تحملني إلى بيت طفولتي، حضن أمي وأبي ، يرشقني عبق طفلي الصغير، أراه بوجههِ الضاحكِ، أضمهُ إلى صدري، تهلكني الوحشة والأشواق فيتلاشى في تلك اللحظات كل شيء: النضال وغلاظة الرفاق، المستقبل، وتشتعل رغبة واحدة مخلصة؛ هي العودة إلى رحمي الاجتماعي والخلاص من بؤسِ التجربةِ ، عذاب الفراق والخيبة.

لم أكن أتصور يوماً، بأنني سأكون بهذا الموقف، محاصرة برفاق النضال، إذ كنت أظنهم أطهر الناس سلوكاً لكن اكتشفت أنهم لا يختلفون عن الرجال العراقيين العاديين في النظر للمرأة كفريسة وأداة متعة.

قتلوا عفوية سلوكي البريء، فتحولت إلى امرأةٍ من رخامٍ، ورخامي قاوم رمال الصحارى و سنوات النضال الصعبة المُخَرّبة، كمْ كنتُ نقيةً واثقةً بالمحيط، طفلةً مسالمةً ألعب مع الطيورِ والفراشاتِ، أحدقُ بعينين مفتوحتين في الشمس، أبتسمُ في وجهِ كل من يمر في طريقي، وأساعد كل محتاج، فكان حضوري يمنح الآخرين فرحاً إذ يشعرون بقلبي المفعم بحب الناس، أخطو واثقة بسلوكي وتعاملي الموزون مع الرجال، هذا السلوك نشأ في نفسي من خلال أبي الذي كان يصحبني معه إلى

منشورات «ألف باء AlfYaa»

دكانه في سوق الجزارين وسط الديوانيـة، فـاجلس معـه في طفولتي المبكرة.

لكن هذا البناء تداعى وتهدم بفضل رفاق النضال.

كانت المفرزة مكونة من ثلاثة رفاق أتوا قادمين من قاطع "بهدينان" ونجحوا في فتح الطريق ووصلوا قبل أيام حاملين البريد وأنا وشابين غير مسلحين في أوائل عشرينياتهما التحقا بمقرات الأنصار قادمين من إيران، و يبغيان العمل في الفوج الأول في قاعدة "مراني".

اجتمعَ بنا دون الملتحقين أمر المفرزة الرفيق "أبو إدراك" شاب عشريني بشرته السمراء الداكنة معجونة بالشمس، ومن لكنته حزرت إنه من الجنوب، مقاتل شجاع جداً، مهذب في تعامله مع الرفاق. كان قلبي يطمئن له وأخلاقه، عرفته منذ أكثر من ثلاث سنوات كنا معنا في القاعدة.

أختلى بنا، بعدَ أن حَضّرنا مستلزمات الطريق من المؤونة؛ شاي وسكر وبعض الأرغفة من الخبز وَعِلب لحم مرتديلا، زمزميات الماء، وَخَلّفنا هذه المرة بغل المفرزة لعدم حاجتنا له. أخبرنا بتفاصيل الطريق وخطورته، فهو مجهول حتى بالنسبة له، إذ سَيُسلك لأول مرة، سنضطرُ لدخولِ الحدود التركية في مناطق ملغومـة بمواقـع عسـكرية، نتفـادى كمـائن الجندرمـة الأتراك، ونعود إلى الأراضي العراقية في مناطق مزروعة بالربا يا العراقية، وسنعبر ممراً مائياً خطراً بعض الشيء في الربيع، التفت نحوي وسألني:

- رفيقة "بهار" ما تعرفين السباحة مو؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- نعم رفيق ما أعرف!

كما رفع أحد الحاضرين صوته قائلاً:

- وأنا أيضا لا أعرف السباحة.

فرد قائلا:

- ما عليكم سنجد حلا!

أخفض صوته مضيفاً:

- الشيء الأكثر أهمية سيكون بصحبتنا ملتحقين قادمان من إيران مشكوك في أمرهما، لم يزكيهما أحدٌ، وأصّرا على العمل في مناطق الفوج الأول كونهما مسيحيان يودان العمل في مناطق ألقوش وسهل الموصل بين أبناء جلدتهم، لذا يجب التصرف بحذرٍ شديد معهما ودون جلب انتباههما.

أخذني تحذير الرفيق "أبو دراك" إلى تلكَ اللحظة التي أذهبتْ الثقة المطلقة بالرفاق التي كنتُ أحملها من محيطي المحصور بمدينتي الديوانية؛ بيت أهلي ومكان عملي، والخطوط التنظيمية الخيطية السرية التي أقودها من نساء أعرفهن عن قرب، زميلات دراسة وموظفات وصديقات وأقارب، لحظة لا أنساها أبداً، كانَ ذلك في أول أيام التحاقي بين الثوار، كنا في فصيل المكتب السياسي المستقل بمقر "زيوة"، يومها حَمِلتُ جسدي من فراشنا المشترك بتثاقل عند سماعي صوت "النصيرة" المنتهية نوبة حراستها الأخيرة في الساعة السادسة صباحا وهي تنادي:

- رفاق نهوض.

أيقظتُ زوجي، لبستُ حزام الرصاص، لففتُ شعري بالكوفية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المرقطة، تنكبتُ بندقيتي وانتظرت قليلا جوار باب غرفتنا التي لاتسع إلا للفراش ريثما يتم "أبو الطيب" ترتيب وضعه، ثم انحدرنا على الممر القصير المؤدي إلى الساحة المحصورة بين بنايات الغرف والمطبخ والحمام، مكان تناول الإفطار.

أنتشر الرفاق في الفسحة الكبيرة يتحلقون كل ثلاثة حول صحن من اللبن الرائب وبأيديهم أرغفة خبزٍ، أنهمك البعض في الأكل وتوقف البعض ينظر إلى رفيق يصطحبُ رفيقاً حُجِزَ البارحة في غرفة أُفرغتْ كسجنٍ دون أن نعرف السبب، كان يتجه نحو المرحاض المتطرفة بعيدا عن البنايات، جاوزنا فانتبهتُ إلى شروالهِ كانَ يرتديه بالمقلوبِ، مددتُ يدي بقطعة الخبز إلى صحن اللبن وهممتُ بوضعها في فمي، في تلك اللحظة جمدتْ يدي وهبطت من هول المفاجأة، والرفيق المحجوز يقف وسطنا ويهتف بحياة "فهد" و "وسلام عادل" والحزب الشيوعي عدة مرات ثم يضيف بصوتٍ متألم يفطر القلب:

- تقبلون رفاق.. تقبلون.. الرفيق "باء" يطفي الجگاير بصدري، ليش ليش مو أني رفيقكم ليش تسّوونْ بيه هيج؟!

ورفعَ قميص بدلتهِ مشيراً إلى أمكنةِ الحرق المنتشرة بأنحاء صدره، كانَ قريباً جداً من موضعِ جلستي، مترين أو ثلاثة أمتار فتجسّدتْ الحروق طرية وسط شعر صدره الكثيف، انصعقتُ من المشهد، غصصتُ بلقمتي، هَوْعّتُ، كدتُ أتقيأ، بصقتها من فمي وتحشرجَ صوتي، لا أعرف ماذا أصابني؛ غثيان ودوار، نفضتُ يدي من الأكل، فبالأمس كان رفيق درب ومشروع

منشورات «ألف باء AlfYaa»

شهادة واليوم عميل وعدو لي ولرفاقي ومصدر موت لنا.

قبل أن أترك الفطور وأغادر الساحة صاعدة إلى غرفتنا همست بأذن زوجي:

- هاي شنو صار؟

لم يهزهُ ما حدث، ظّلَ متماسكاً محتفظاً بهدوئه، توقفَ عن الأكلِ، قربَ وجهه مني وقال بصوت خافت:

- اصبري راح نعرف بعدين.

خلدتُ في غرفتنا ذلك النهار، لم أقرب الأكل، لم تنفع توسلات زوجي، نفسي انسدت تماماً، كانت الصدمة أقوى مني، أول مرة أواجه واقعاً صلباً، واقعةً طردتْ ما تبقى من رومانسية مشاعري ونظرتي للنضال والرفاق، فمن ناحية أحسست بأن لا أمان لنا حتى وسط الرفاق في مواقع ظننتها آمنة لا تصلها السلطة، ومن ناحية أخرى هالني اكتشاف أن رفاقي يمارسون التعذيب كرجال الأمن تماماً فما رأيته وسمعته وأنا صغيرة في بيت أهلي عن قصص الناس وما جرى في الثلاثة وستين في أقبية "الحرس القومي" ومن زوجي الذي تعرض لاعتقالات متكررة وَعُذِبَ. ظلَ صدر العميل العاري المكوي بالسجائر يتجسد أمامي بين لحظةٍ وأخرى ممتزجةً بجسد زوجي وهو خارج لتوه من جلسة تعذيب كان يصفها بدقة في لقاءاتنا بعد إطلاق سراحه.

كانَ امتحاناً قاسياً لحواسي وأفكاري جعلني أفكر بشكلٍ أعمق بمخاطرِ حياة الثوار التي كنت أظنها أول الأمر تأتي من قصف

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الطائرات والمدفعية الدوري للمقر، أو محاولات التسلل وكمائن الطرق المبلطة والممرات الجبلية التي تسلكها مفارز المقاتلين.

خلدتُ ذلك اليوم في غرفتنا أفكر في الخطر المستتر الذي نط من وسطنا، فارتسمَ في هيئة "أبو بهية" اسمه الحقيقي (فالح حسن) أمامي بقامتهِ المتوسطة وجسده المائل إلى السمنةِ، واسع وجاحظ العينين، اسمر البشرة كأن الشمس رمت جّمَ لهيبها عليه، عرفتُ لاحقا أنه من أهالي البصرة. كان تواجده بالفصيل متقطعاً، إذ يختفي لشهور عدة ثم يظهر بغتةً، كان يتسرب سراً إلى بغداد والمدن الأخرى كصلة وصل بين تنظيمات المدن السرية والمكتب السياسي.

قبلَ ثلاثة أيام كان في خفارة مشتركة معي حيث يتوجب علينا طبخ وجبات اليوم الثلاث وغسل الصحون لأكثر من أربعين رفيقا. لم أكن أرتاح له أخبرت زوجي بملاحظاتي عن سلوكه الساخر من تفاصيل اليوم والحياة العسكرية الصارمة حرصا على سلامة حياتنا، سخرية مختلفة لا تشبه سخرية رفاقي الخفيفة وهم يحاولون بالتعليقات الطريفة تخفيف عناء حياة الثوار البدائية، تعليقات تثير الضحك والبهجة والمرح فأشاركهم الضحك والتعليق، كنتُ أشعر بسخريته تقطر حقدا مبطنا لطبيعة حياتنا وتفاصيلها، فمثلا لم يناديني برفيقة بل "خوية" كأنه يحتقر المفردة ويستهزأ بحياة الرفقة.

يومها كان خفراً معي يساعدني في طهي وجبة الغداء المكونة من فاصولياء يابسة ورز، كان يناولني قطعة خشبٍ يابسة من كوم الحطب كي القم النار أقترب منا ثلاثة رفاق بوجوه متجهمة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

حاملين بنادقهم ومتأهبين وهم؛ ملازم آزاد "عماد كريم" وهو من مدينتي والده صاحب مقهى "اللواء" الشهير الذي يرتاده المثقفون واليساريون، وأخته "مواهب" صديقتي المقربة جداً أُعدِمَ زوجها مع مجموعة من شباب المدينة الشيوعيين عام 1983، عملنا معاً لفترة وجيزة في التنظيم السري وانقطعت الصلة عقب التحاقي، والرفيق الثاني هو "أبو برافدا "علي عودة" المسؤول العسكري للفصيل مات قبل أعوام قليلة بحادث سيارة على طريق كركوك، أما الثالث فهو "أبو طالب" مستشار الفصيل السياسي، والأخير تنقل وأرتقى أرفع المسؤوليات في حياة الأنصار، إذ هرب إلى الخارج في حملة 1978، وتسلل إلى الجبال عبر الحدود التركية وساهم ببناء قواعد الأنصار الأولى، وقاد مفارز ثم سرايا، إلى أن تسلم مسؤولية "الفوج الثالث" في وادي الخيول، وكان يشرف على عمليات تسريب الرفاق والرفيقات إلى داخل المدن، وبقيّ حتى الأنفال ولجؤنا إلى دول الجوار 1989، وفي تسعينيات القرن المنصرم تَسّرَبَ من مناطق كردستان إلى بغداد، وراح يعود بين فترة وأخرى في مهام حزبية إلى مقر الحزب في "شقلاوة" بأربيل، إلى أن وفرَّ بيتاً سرياً ليكون مقراً للجنة المركزية الشابة الصاعدة إلى قيادة الحزب وقتها، وفعلا تسلل الرفاق وأصبح المقر الفعلي في بغداد، لم يفطن أو يرتاب أحدٌ من الرفاق المتحمسين وقتها أبداً فقد كان الترتيب محكماً، ولحسن حظهم وجود ضابط مخابرات كردي كبير جداً من المشرفين على هذا البيت الذين أَعدتهُ المخابرات وسلمته لعميلها المخضرم "أبو طالب" وكان مزروعاً بكاميرات خفية تصور كل شيء، معنى ذلك أن

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المخابرات تشاركهم كل اجتماع.

الضابط الكبير كان عميلاً مزدوجاً فأخبر بسرية تامة "مسعود البرزاني" الذي كانت علاقته في تلك السنين قوية بالسلطة التي ساعدته في استعادة أربيل من الجلالين، وبسريةٍ تامةٍ أخبرَ "مسعود" سكرتير الحزب "حميد مجيد موسى" فوضعت القيادة خطة محكمة وذكية جداً، تداول القادة الشباب في اجتماع بذاك البيت وأعلنوا عن مؤتمر عام للحزب سيعقد في اربيل ويتحتم على الجميع الحضور، فطمعتْ المخابرات بانتظار معلومات دسمة ستكون بين أيديهم بعد العودة من المؤتمر، ولم تعترض التحاق الجميع وكان "أبو طالب" من المندوبين، وحال وصوله إلى "شقلاوة" جرى اعتقاله والتحقيق معه، فتبين أنه ضابطاً كبيرا جداً بالمخابرات زُرِعَ من أيام الجبهة الوطنية في عقد السبعينيات.

ناداه "أبو طالب" ثم خاطبه بصوتٍ خافتٍ، فأسرعَ بتعديل ملبسه، تتبعتُ الأربعة وهم يصعدون على المسلكِ الجبلي إلى أن اختفوا في غابةِ السفحِ، مع غروب الشمس وحلول المساء عادوا، أفرغوا غرفة صغيرة من الرفاق وقفلوها عليه، في الصبيحة كان المشهد الذي رويتهُ وَسَدَّ نفسي عن الأكل.

والقصة هي أن عنصرا كرديا من الاستخبارات العسكرية يعمل في سيطرة رئيسية بسهل الموصل تَمَكنَ التنظيم المدني من تجنيده كعينٍ ينقل للحزب ويسّهل مرور الثوار، أخبر الحزب بأن أحد الرفاق المتسرب إلى الداخل متعاون مع السلطات، إذ شُكَ في أمره فأوقفته السيطرة، طلب الضابط

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المسؤول فأختلى به لساعة ثم أطلق سراحه ليواصل طريقه إلى بغداد، وقام بوصف شكله فحامت الشبهات حول "أبو بهية"، كان الوقت قبيل انعقاد المؤتمر الوطني الرابع للحزب، فاستدعي ليلتحق كمندوب لتنظيمات الداخل، وحضر المؤتمر الذي عقد في مقرات "لولان"، وهناك جردوه من السلاح وأجرى التحقيق معه عن واقعة توقيفه من قبل السيطرة والحجز فانكر مستهزئا بكل الحدث جملة وتفصيلا وأصرَّ بأنه لم يتعرض إلى أي مشاكل.

عادوا به إلى مقرنا وظل مجرداً من السلاح مراقباً، وبقي لأيام لا يكلف بالحراسات الليلية التي تتطلب أن يكون مسلحاً لحين ترتيب الأمر مع عنصر الاستخبارات المجند، والمفرزة التي خرجت مهمتها تحقيق ذلك، سَيُهْمَسْ بما جرى فيها، أخذوه إلى قرية قريبة من العمادية وصلوها بعد مسير أربع ساعات، وفي بيت فلاح متطرف جلسوا في غرفة الضيوف يحتسون الشاي، كان "أبو بهية" متوتراً قلقاً، في اللحظة التي رفع فيها استكان الشاي إلى شفتيه دخل "المجند" ليشير إليه قائلاً:

- هذا هو!

سقط استكان الشاي من يده من هول المفاجأة إذ لم يتوقع أبداً أن من كان في سيطرة التفتيش التي أوقفته يعمل لصالح الحزب.

في الأيام التالية نراهم بعد الفطور يأخذونه معصوب العينين ومكبل اليدين إلى عمق وادٍ جاف، يتقدمهم عضو اللجنة المركزية أبو زكي "حميد بخش" العامل الشيوعي المخضرم، محرر كراس "مناضل الحزب" وبصحبة "أبو طالب" ورفيقين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أخريين، (فتخيلوا "أبو طالب" من مشرفي التحقيق، بمعنى كل ما جرى في التحقيق يصل إلى السلطات أولاً بـأول)، ولا يعودون إلا مع حلول الغروب إلى أن أكتمل التحقيق فأودع في سجن الإسناد مع بقية السجناء، تبين أنه ضابط أمن برتبة عقيد مدسوس من زمن الجبهة الوطنية، واعترف بدوره في الإيقاع بعشرات من الرفاق والرفيقات الذين تسللوا إلى المدن وجرت تصفيتهم تحت التعذيب وإعداماً، ولغم تنظيمات الداخل بشبكات من رجال المخابرات والأمن، وبقى في السجن إلى أن أخذت العدالة مجراها، سنكتشف في قادم الأيام المزيد من المندسين والعملاء والخونة، فَتَصَلَبَ قلبي وأنا أرى رفيق الأمس يصبح عدواً.

نهضنا قبل طلوع الفجر، تناولنا وجبة إفطار سريعة، أمعنتُ التحديق بالمشبوهين اللذين سيكونان برفقتنا، أحدهما قصير القامة، وجهه يكاد ينفطر من شدة الاحمرار و نصاعة بياض بشرته، قدرت أنه في بداية عشرينياته، الثاني بشرته حمصتها شمس الصيف العراقي، طويل ورشيق القامة، هادئ الملامح ويبدو أكبر سناً وأكثر خبرة من زميله.

انطلقنا متوجهين نحو المجهول، نتقدم ببطء نحو أفقٍ مغلقٍ بقممِ الجبال الشاهقة، التي كان يضيئها بياض الثلج في أول لحظات انبثاق الفجر وتصاعد خيوط فضية من أبخرة دخان تنانير الخبز المَسجورة في القرى المتناثرة على سفوح ووديان الجبال، وزقزقة العصافير المستيقظة لتوها وهي تستقبل يوماً آخر. مشينا على طرقٍ وعرة جداً، قطوع جبلية حادة، ظلام دامس، حافات تتسع بالكاد للقدم نسير فيها متماسكين بأيد بعضٍ،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

مع كل خطوة، كان الموت يحوم حولنا فأي زلة قدم من أحدنا تودي بالجميع، وصلنا بعد مسير أكثر من أربعة عشر ساعة متقطعة باستراحات قصيرة جداً إلى أول قرية كردية آمنة، قضينا بعضا من ساعات الليل في جامع القرية نتناوب في إغفاءة قلقة بينما يبقى الخفر يراقب بطرفٍ خفي المشبوهين اللذين غفيا بعمق دون أدنى قلق وكأنهما تناولا منوماً.

كانت تبدو على ملامحنا أنا والرفاق علامات التعب والإرهاق من المسير الطويل على مسالك جبلية وعرة مغطاة بثلج مطلع الربيع الهش في وديان عميقة، وسفوح حادة وقمم شاهقة، والعبور الليلي من تحت الربايا التركية والعراقية، بينما لا يبدو على المشبوهين أمارات التعب بل بالعكس كانا حيويين مبادرين متحمسين لإكمال الطريق دون استراحات ننتظرها بشغف يقترحها أحياناً قائد المفرزة.

مما أثار استغرابي ودهشتي، كانا يبالغان في احترامي، ويسلكان سلوكاً مهذباً حتى بدأت أشك ب أنهما مندسين، ظللتُ أقلب الأمر، فخطرتْ في بالي جملة يكررها الدكتاتور صدام في خطاباته وأحاديثه عن التفاني والتحّملِ والتضحيةِ:

- عدنا جنود مجهولين يعيشون حياة قاسية جداً و يخاطرون بحياتهم في كل خطوة في سبيل خدمة العراق والأمة العربية.

إذن.. ذاك الذي كنت تشير إليه عن حراس الوطن المجهولين يا دكتاتور بتوريتك تَجَسّدَ بين يدينا، يشاركنا المغامرة ويتحمل الصعاب بصبر.

شابان مدربان تدريباً متقناً في السلوك والتثقيف للعيش وسط

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بيئة الشيوعيين، جنديان من جنودك المجهولين وقعوا في قبضتنا مثلما وقعت قبل عام "حياة" الفتاة البغدادية الجميلة بقسماتهما المتناسقة المبتسمة طوال الوقت، ممتلئة، قوامها ممشوق وشعرها الأسود طويل ينزل حتى الخصر، كان التحاقها غامضاً، أدعت أنها من عائلة شيوعية (وهي فعلاً كما أدعت) تعرضتْ للمضايقاتِ من قبل أجهزة السلطة القمعية فهربت لتتخلص من بطشهم واعطتهم اسم أبن خالتها الموجود معنا، دققوا الأمر فتبين أن لها فعلا أبن خاله موجود في مقرات "لولان"، لكن لجنة التحقيق، ارتابت بقصتها ولم تقتنع. شكت بوضعها فبدأت في التحري وتكرار جلسات التحقيق، وجرى تكليفي بطرف من عملية التحري مع رفيقة ثانية للتقرب منها وصداقتها في محاولة لكشف الغرض الخفي من التحاقها، وفعلا صارتْ قريبةً لنا فبدأت تفضي قليلا قليلا مع تشعب العلاقة والأحاديث، فأفلتتْ بعض الكلمات فاتحة باب عالمها المغلق الذي تحاشت الخوض فيه أول أيام التقارب، أصبحتْ لدينا أسرار نتشاور بها بعيدا عن الآخرين في غرفةِ الضيافةِ التي تنام فيها مع بقية ضيوف القاطع من رفاق السرايا المقاتلة، وفي جلسةٍ معزولةٍ وسط أحجار الوادي استرسلت بالحديث عن الحياة في بغداد وكيف تعيش الناس في القصور والرفاهية التي يتمتع بها المواطن، ولا أحد في تلك القصور الفخمة التي وصفتها وقالت أنها تَحّل فيها ضيفة تسهر وتمرح، لا أحد يشعر بالحرب التي كانت تطحن العباد.

تلفتتْ حواليها، لم يكن أحد قريب من جلستنا، أشرت كي نُقَرّبْ أذاننا منها، ثم توقفت عن الكلامِ مترددةً، حثثتها، فهمستْ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بصوتٍ خافتٍ:

- تدرون تره بالقصور يعرفون كل شيء عنكم!

سألتها هامسةً:

- أش يعرفون مثلا!

تلتفت مرة أخرى ودنتْ من وجيهنا ونطقت جملتها الطويلة:

- كل شيء.. كل شيء. ما أگدر أحچي، بس الله يخليكم لا تگولون لأحد!

وسكتت، لم تنجح محاولتي في جعلها تفصح أكثر، بلغتُ فوراً الرفيق المسؤول عن الأمر، فطلبوا منا أنا والرفيقة " تفتيش حقيبتها تفتيشاً دقيقا، وحينما ترددت قائلة:

- رفيقي لم أفتش حقيبة ليست لي في حياتي!

أقنعني بقوله إنها مهمة حزبية وحياة رفاق تتعلق بها، وأرشدنا إلى كيفية التفتيش، وفعلاً قمنا بالمهمة في الوقت الذي أُستدْعيتْ فيه للتحقيق، عثرنا على أوراق مخفية فيها عنوانين غير واضحة في بغداد وطهران وسوريا، وأوراق فيها رسوم كالشفرات أو هكذا ظننا لامتلاء بعضها بالخطوط المشتبكة وأشكال هندسية وتخطيطات لوجوه بشرية. الأوراق كانتْ مخفيةً في جيوبٍ سريةٍ في بطانة الأردية، سلمناها فسهلت التحقيق، اعترفت بأنها مرسلة من المخابرات العراقية وأدعت أنهم أجبروها على التعاون، سُجنت في غرفة بقسم الضيافة وكلف الرفيق "أبو الوسن" بالأشراف المؤقت لحين البت بأمرها، وفي تلك الأسابيع المعدودة وقع في غرامها، وأبو

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الوسن تجاوز الأربعين ولم يلمس امرأة، كان يفضي لزوجي شكواه فيخبرني زوجي مبتسماً، فاعتنى بها وعاد مرابطاً جوار باب سجنها يلبي متطلباتها، ويشتري لها أحياناً من المهربين العابرين ما تطلبه من احتياجات إلى أن بُتَّ في أمرها، فأرسلت مع مفرزة "بريد" إلى المقرات الرئيسية في "لولان" وهناك سيتقرر مصيرها، يومها كاد أن يُجَنْ حسب وصف زوجي، وظلَّ حزيناً يحكي له، عن طيبة قلبها وحنانها ورقة مشاعرها ويؤكد براءتها من التُهمْ، بعد شهر من أرسالها، جاءني زوجي إلى الغرفة مبتسماً ثم أنخرط في ضحكٍ عاصف قبل أن يروي لي ما يجعله يضحك من أعماقه، أسمعي القصة:

- أبو الوسن إنكبسْ هههههههههههه، قتلته الأشواق لـ "حياة" فكتب رسالة غزل وشوق طويلة يُذّكرها بأيام سجنها وكيف ساعدها سراً، تفاصيل كان يخفيها على الرفاق، عن أحاديث بينهما كان ينقل لها ما يقال عنها، ويؤكد بأنها بريئة ورفاقه ظلموها، وأبدى غضبه من الحزب الذي شك فيها فوصفه بأوصاف فيها سخرية اقتربت من الشتم، طواها حتى عادت بحجم طرف الاصبع وغلفها بورقة فارغة ولصقها بالشريط اللاصق وسلمها سراً لرفيق يثق به سيخرج في مفرزة بريد إلى "لولان" ليوصلها لمحبوبة القلب. والمسكين لا يدري بأن كل الرسائل تُفْتَحْ قبل بعثها للمرسل إليه، سلم الرفيق رسالته للحزب، فبعثوا بطلبه، اختلى به "أبو هندرين" (المحقق القانوني والجنائي) في غرفة مكتب القاطع.

وهنا غرق في ضحكٍ عاصف، أشعل فضولي، فسلام قصاص ماكر يعرف متى يتوقف عاملا من أصغر حكاية قصة،

منشورات «ألف باء AlfYaa»

انتظرتُ قليلا ريثما تهدأ نوبة ضحكه وسألته:

- منين عرفت؟

- أبو هندرين صَوَرَّ المشهد بتفاصيله، تدرين رفيقنا المسكين "أبو الوسن" عمل المستحيل حتى يصعد من عضو بالحزب إلى عضو قاعدية دون جدوى إلى حد قبل ثلاثة أشهر بلغوه أن طلبه يدرس واحتمال كبير أن ينالها، فظل بمزاج رائق، ذهبَ تجهمه وظلَّ يغني طوال الوقت منتشياً بدرجة القاعدية وبحب "حياة" التي سُفِرَتْ.

كان يطيل من لهفتي للمشهد باللف والدوران فقلت له:

- "أبو الطيب" سولف لي أش صار؟

نهض من جواري وَمَسرّح اللقاء، كيف دخل فجلس على الفراش بعد التحية، يفصل بينه والمحقق منضدة خشبية قصيرة القوائم عليها فانوس، سكن منتظراً، فهاجمه "أبو هندرين":

- رفيق تسوي علاقة من ورانه بوحدة مشبوهة، مو بس هذا تحچي ع الحزب، ما تستحي ما تخجلّ!

أنكر كل شيء، واعتبر هذا تجنيا بحقه، فرد "أبو هندرين":

- يعني أنت ما مسوي هذه الأشياء!

فأكد المسكين":

- لا ما مسوي

وحلف بالمبادئ والشيوعية، وما أن أكمل أخر كلمة من سيل إنكاره حتى أخرج رسالته ونشرها على المنضدة أمام عينيه

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وقال بغضب:

- وهذه من كتبها؟

ما أن قرأ أول سطر حتى انهار فلطم على جبهته لطمةً قوية صارخاً:

- يا بوييييييييييه راحت القاعدية! هههههههههههههههه!

فيقول "أبو هندرين":

- كدتُ انفجر ضحكاً لكن تمالكتُ نفسي بعناء.

طلب منه المغادرة وما أن خرج حتى انفجر بالضحك حتى كادت أنفاسه تتقطع حسب وصفه.

انخرطنا انا وزوجي بضحكٍ عاصفٍ.

"أبو الوسن" سيصاب مرتين بقصف بالأسلحة الكيماوية على مقر "زيوة" في الأولى 5-6-1987 نجا هو وزوجي من إصابة مميتة، وفي الثانية 21-8-1988 قضى، وقام "زوجي" والرفاق المكلفين بدفنه مع رفيقين قضيا معه على عجلٍ قبل الانسحاب إلى الحدود التركية ثم اللجوء إليها.

أكملنا المسير مع أول خيوط الفجر، كان ذلك اليوم عسيراً جداً، إذ سنعبر نهراً ضيقاً شديد الخطورة لوعورة التضاريس وسرعة جريان ماء الربيع الهادر، وأنا التي يرعبني نصف متر من الماء.

تقدمنا رفيق تركي خبير بالمنطقةِ وتضاريس النهر، قادنا إلى مكانٍ معينٍ وأنشغل بأعدادِ قارب عبور خشبي مكون من ألواح

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خشبية متراصة مع بعضها، مربوطة بحبالٍ قويةٍ تزيد من تماسكها. بدأ المهرب بشرح تكنيك وكيفية العبور محذراً من خطورة تراخي الرفيق الذي سيربط إلى القارب الخشبي كي لا يجرفه التيار، كنت متماسكة بالرغم من الخطر، تواقة للمغامرة أطمئن نفسي واصبرها مرددة مع نفسي:

- بأن هذا الموت أهون من الندوب التي تَرَصّعَ بها قلبي من سوء سلوك بعض الرفاق الأنصار.

عبر المهرب بالقارب إلى الجهة الأخرى بطريقة سحرية، دون ربطٍ، نام فوقه وفي لحظة قدرها هو أمرنا بدفعه دفعةً قوية، صفقنا له حال تمكنه من مسكِ جرف المجرى، رتبَ الحبال ودفع القارب بحركة محسوبة جداً حيث أمسكه الرفيق "أبو إدراك". رُبطَ الرفيق فرهاد وأسمه الحقيقي "مؤيد كريم" ابن مدينتي كان صلتي السرية، ألتقي معهُ في بغداد، وأعددنا معاً خطة التحاقنا بالثوار، كنت مع زوجي سلام على وشك الاعتقال والوقوع بقبضتهم، رافقنا من بغداد حتى الموصل ثم سهل الموصل ونجحنا بأعجوبة في الوصول إلى أول قرية لا تسيطر عليها السلطات في سفح جبل ألقوش، وقتها ظننا أننا بلغنا برّ الأمان.

انبطح على بطنه معانقاً خشب اللوح الملامس حافة الماء الهادر، وشدَّ بحبال غليظة شداً قوياً إلى الألواحِ الخشبيةِ ثم دُفِعَ بقوة إلى الجرفِ المقابل حيث الرفيق التركي القابض على طرف الحبل الآخر، ثم عَبّرْنا المشبوهين.

جاء دوري للعبور كنتُ أبدو صلبةً كالحديدِ ظاهراً لكنني

منشورات «ألف باء AlfYaa»

اختضنُ رعباً من الداخل، أتموج في أملٍ وبهجةٍ حذرةٍ تغذيها خيال الوصول إلى حضن زوجي ورفيق حياتي الآمن.

كنتُ في حومة مشاعر متناقضة بين الإحساس بخطر الموت الذي أراه وأشعر به بجريان ماء المجرى الصاخب المصطدم بالصخور وبين العزم على العبور والوصول إلى الضفة الأخرى حيث حبيبي والحياة، كنتُ مثل غارقةٍ تتشبثْ بقشةٍ للنجاة من قسوة التجربة والحياة.

احتضنتُ بندقيتي متشابكة مع ألواح الخشب وحبالها التي قد تذهب بيَّ إلى المجهول أو توصلني إلى بر الأمان، وحينما بدأ الرفاق الممسكون بخشبة الخلاص بالعد، واحد أثنين ثلاثة أغمضتُ عينيّ وكأنني عانقتُ حبيبي، لم أشعر إلا بالرفيق التركي يسحبها إلى الضفةِ ويفلّ الحبال الملتفة حولي، نهضتْ مبتهجةً وكدتُ أصرخ فرحاً مرددةً مع نفسي:

- سأحضنكَ قريباً

كانتْ ملابسي تقطر ماءً. استمرينا بالمسير لأكثر من خمس ساعات في أول استراحة آمنة، أشعل الرفاق ناراً وخلعوا ملابسهم لتجفيفها، إما أنا فبقيتُ بملابسي حتى جفت على جسدي، صحيح نحن كرفاق متساوين بكل شيء في بيئة الثوار بالجبل، لكن تبقى المرأة تثير رغبات وغرائز الرجل، وخصوصاً في حياتنا المتأرجحة بين الموت والحياة في كل لحظة، وما عانيته في وحدتي وسطهم في "لولان" خير دليل على هشاشة معنى الرفقة لدى الكثير منهم.

كانت تلك المفرزة نقطة من النقاط الفارقة في حياتي، إذ لم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أواجه ظروف مسير قاسية مثلما واجهت حتى ذلك الوقت ولم أكن أحزر أن ظروف أشّدَ قساوة تنتظرنا في الأيام القادمة، كان نجاحنا بالوصول إلى مقر القاطع يعني الالتئام من جديد بنصفي المفقود، استغرق المسير سبعة أيام بلياليها، وبالرغم من مرور أكثر من خمسة وثلاثين عاماً لا زالتْ تلك الأيام عالقةً في ذهني بتفاصيلها، محفورة في ذاكرتي عابقةً بشذى ورد الربيع ورائحة الأرض المقبلة على الخصب، المغامرة وتجاوز صعاب الطبيعة وتضاريسها أعادتْ ليّ الثقة بالنفس التي هزّها تحرش الرفاق، أتذكر كل شجرة أسقطتها الرياح القوية وتعثرت بها، كل نبعٍ تفجّر للتو مررنا به وشربنا من مائه العَذِبْ، كل خرير ساقيةً عبرتها وزقزقة العصافير المتنقلة بين شجرة وشجرة وسط غابات السفوح، تحط وتطير منشدةً لحناً تودعُ به النهار.

لم تكن المفرزة سهلة، عبرنا الحدود التركية عدة مرات وتفادينا كمائن الجيشين التركي والعراقي المنصوبة في الممرات التي يسلكها الثوار بالمرور في طرقٍ يصعب على البشر السير فيها، احتمينا من ضياء قنابل التنوير التي تطلقها الرايا الرابضة على قمم الجبال الشاهقة، كنا نختبئ في النهار مختفين في الكهوف من تمشيط المروحيات التي كانَ يرعبني صوتها ولحد الآن ما زلت أجفل وأشعر بالفزع كلما سمعت صوت يشبه صوتها حتى هنا في الدنمارك، رافقني الفزع ومشاهد حومانها وصيدها للعديد من مفارز الثوار، كانت رسل موت تجوب سمائنا تُفرغ حمولتها من قنابل وصواريخ تنثرها على القرى في الأودية وقمم الجبال. كنا نتوقف عن المسير وننتشر كلما سمعنا صوت قصف مجاور، ولا نواصل إلا بعد توقف القصف، تسلقنا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

سلاسل جبلية بدت لا نهاية لها مستغلين ستار الليل حيث لا ترى شيئا نستدلُ بنجومٍ باهتةٍ تضيء ليلنا وتصبرنا.

ثلاثة رفاق مسلحون و مشبوهان، كانت مهمتنا عسيرة بسببهما، ساعات الحراسة قُسْمَتْ علينا نحن الثلاثة في أوقات الاستراحة والمبيت في جوامع القرى، اتفقنا على أن تكون ساعات حراستي في أول الليل، ولكم أن تتخيلوا التعب والجهد إذ قسمنا الحراسة على غير المألوف من ساعة واحدة إلى ساعتين لينام الرفيق أربع ساعات ويأتي دوره في النوبة الثانية، كانت تصيبني هواجس مرعبة حين يأخذ التعب نصيبه مني في ساعات الحراسة

متذكرةً حادثة قيام مندسٍ في وقتَ نوبة حراستهِ في ليلةٍ تشبه هذه الليالي، كانَ قمرها بدراً تشعر فيها بالنجوم قريبةً عليك والجبل يريد حضنك، بتصفية خمسة رفاق وهم في عمق نومهم وسط باحة جامع قرية، وهرب ليلتحق بربية عسكرية قريبة تابعة للجيش.

كانتْ كلُ حَواسيَّ منصبةً على أدنى حركة تصدر من المشبوهين وهما يتقلبان في نومهما، كانَ الوقتُ ثقيلاً والمسؤولية التي أحملها على عاتقي جسيمةً في حماية رفيقيّ ونفسي من احتمال غدرهما. حتى في ساعات نوبة رفيقيّ، كنتُ أسقط في نومٍ خفيف متقطع، أفزّ لأدنى صوتٍ ناظرةً إلى مكان رقدتهم القريب، فأجدهما غاطين بنومٍ يبدو عميقاً، فأظن أنهما يمثلان فيزداد شكي، كم كانت شاقة تلك الليالي نفسياً، ففي السنوات الأخيرة اكتظت المقرات بالملتحقين الجدد وأغلبهم أما

منشورات «ألف باء AlfYaa»

من عوائل شيوعية، أو شباب صغار السن كالذين معنا، وفي فترةٍ معينةٍ لوحظَ أن غالبية الشباب منهم يصرّونَ على العمل في مناطق "الفوج الأول" فَجرت معهم تحقيقات مطولة دقيقة أدت إلى اعتراف بعضهم بأنهم رجال مخابرات معدين أعداداً دقيقاً بدنياً ونفسياً وثقافياً ليمارسوا دور النصير الشيوعي، وكانت نية السلطات السيطرة فعلياً على الفوج الأول عن طريق رجال مخابراتها الشباب مما خلط الحابل بالنابل، وأوقع الرفاق المحققين بالارتباك، فجرى معاملة بعض الملتحقين الأبرياءَ بقسوةٍ، لا بل حتى بعض الملتحقين من عوائل شيوعية دون تزكية من تنظيمات الداخل ومنهم رفاق ظلوا معنا حتى نهاية التجربة مع نهاية الحرب العراقية الإيرانية، بعضهم استشهد في المعارك والقصف، والباقي توزع في المنافي كحالنا.

أجلس إلى ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ أستعيد وأتأمل تفاصيل التجربة وانهض أحياناً منفعلة وصارخة:

- أي عالم ملغوم عشت به؟

- أي عالمٍ عسير؟

- أي عالمٍ مرعب؟

رعبٌ داخلي يَهزْ النفس ورفاق يتحرشون بزوجة رفيق ما أن وجدوها وحيدة وهو بعيد عنها لانقطاع الدروب بالثلج، آخرين يظهر انهم عملاء، رعب القصف اليومي، رعب كمائن الطرق والشوارع المبلطة، رعب في رعبٍ في رعبٍ.

أكتب واتعمق في الأنباء التي تواردت في السنوات اللاحقة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

عن ظهور المزيد من العملاء حتى قادة في الحزب، فأبو حكمت مثلاً عضو لجنة مركزية، وشغل مناصب عسكرية في مواقع عدة وأصبح مسؤولا ومفاوضا للإيرانيين تبين أنه كان متعاوناً مع مخابرات الدكتاتور، و "أبو هيمن" الذي كان يشرف على نزول الرفاق من قاطع السليمانية كما أخبرني زوجي بأنه هو من سلمه نموذج الإجازة في قاطع السليمانية عند تسلله إلى مدن الجنوب في عام 1983 ظهر أنه عميل وفلت من الاعتقال والآن هو مقيم في السويد ولا دليل عليه.

العالم الملغوم يفسر لي لم أُعْتُقِلَتْ أغلب الرفيقات والرفاق الذين تسللوا إلى الداخل، ولمَ رفض زوجي أن تكون له صلة حزبية مباشرة في فترة عودته سراً واختفائه، تَجَنَنَ حينما أخبرته بأن لدي صلة بالحزب وأصرّ حتى عرف من هم شخصياً فأطمئن، وكان تقديره دقيقاً، فهو لا يثق إلا بمن يعرفه شخصيا وَخَبّرَهُ، وهذا الحال كان مع "مؤيد كريم" الذي كان دليلنا في الالتحاق بالثوار، ومع رفيقنا أبو فريد "جميل مگط" الذي قُبِضَ عليه فكتبت له بذلك وسألته ما العمل طمأنني وكتب لي:

- اطمئني سيموت تحت التعذيب ولا يعترف علينا!

و هو ما حصل.

كم من المندسين والمتعاونين سراً مع السلطات فلتوا بسبب حملة الأنفال والنزوح الجماعي لمعسكرات اللاجئين في إيران وتركيا، كم من هؤلاء يتمتعون الآن بالعيش الرغيد في المنفى، ويمارسون حياتهم الحزبية أو تقاعدوا كمناضلين شرفاء.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كم من هؤلاء؟ بس الله يدري ومخابرات الدكتاتور التي تفككت عقب الاحتلال.

وصلنا مقر قاطع "بهدينان" مع غروب الشمس، كنتُ منهكة جداً جداً لحدِ اللعنة، لا أشعر بجسدي من شدة التعب والإرهاق. وجدتُ كل شيءٍ قد تغيّر، توزع القاطع بأماكن جديدة، كان نصيب فصيلي في وادٍ بقريةٍ مهجورة تسمى "بندري"، تفرقَ أفراد المفرزة، كل نصير التحق بفصيله، "أبو إدراك" مع رفيقين من المقر توجهوا إلى موقع في وادٍ مجاور مستصحبين المشبوهين لتسليمهما لقيادة القاطع الذي كان مسؤوله الرفيق "توما توماس". سمعتُ لاحقاً أنهما اعترفا بعد جلسات تحقيق طويلة بأنهما يعملان في المخابرات العراقية والتحقا لتنفيذ مهامهما في الفوج الأول في خطة كانت تبغي السيطرة على الفوج بلغم سَراياه المقاتلة برجال المخابرات، كان الوضع مضطرباً عقب القصف الكيمياوي، فجرى أرسالهما إلى السجن المركزي الذي انتقل بدوره من القاطع حيث كان يشرف عليه فصيل الإسناد إلى الفوج الثالث في وادي الخيول خلف قصبة "بامرني"، ستجرى بعد هذا التاريخ الأحداث متسارعة مع نهاية الحرب العراقية الإيرانية في 8-8-1988 وزحف الجيش العائد من الجبهات على المناطق التي يسيطر عليها الثوار، فجرت حسب ما سمعت لاحقاً من رفيق كان مع فصيل الإعدام عن تصفية كل من كان في السجن من رجال المخابرات قبل الانسحاب إلى الحدود التركية وحرق المقرات والوثائق.

أية لهفة جارفة عصفت بيّ وجعلتني أكاد أطير في المسافة بين المقر المهجور والجديد الذي يبعد نصف ساعة مَسير!

منشورات «ألف باء AlfYaa»

كنتُ أسير وحدي بعد أن افترقت عن باقي المفرزة التي واصلت إلى موقع آخر قريب أيضاً.

أية لهفة وأية أشواق عاصفة غمرتني في ذلك الغروب الشفيف وتلك المسافة بين ضفة النهر وذراعيّ حبيبي.. ضفة روحي التي كادت أن تضيع.

وأخيراً سأحضنك يا زوجي الحبيب، سأحضنك يا من كدتَ أن تستحيل حلماً، سأخلد بحضنك الدافئ الذي أنقذني وينقذني في العواصف التي مرّتْ بحياتنا.

انحدرتُ مثل طائرٍ على المسلكِ النازلِ إلى عمقِ الوادي وغرف الموقع الجديد، وعلى سطح قاعة لمحتهم منتشرين يتناولون وجبة العشاء، كنت أقترب بجذل طيرٍ يعوم في السماء، ومن البعيد رأيتهُ ينهض من جلسته جوار رفيقين حول صحن العشاء، ويهرع راكضاً، لا أدري كيف وصلتهُ طائرة أم سائرة، تعانقنا بِشّدة ورحنا نتلمس بعضٍ بجنون تحت عيون الرفاق المدهوشةِ والأفواه التي توقفتْ عن مضغ الطعام، كنا نستعرُ بحضن بعضٍ كلما تقدمت الثواني، همس بخفوت:

- بنيت غرفة بغيابك!

وقادني إليها.

عدتُ إلى فسحة الأمان التي كانت منفذ خلاصي من الانهيار، أخبرني عن انشغاله لأشهر في بناء هذه الغرفة، كيف كان يهدئ روع الفراق برصفِ الحجرِ متأملا عودتي من العلاج قبل هطول الثلوج وانقطاع الطرق، بالرغم من مرور ستة أشهر

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وهي مدة فراقنا وظروف النقل والبناء والمشاق وجدته يحتفظ بكل أشيائي الصغيرة من المشط الخشبي إلى عود الكحل الذي منحتني إياه إحدى نساء قرية كنت أزورها ضمن حملات التوعية لنساء القرى الكردية اللواتي كُنَ لا يعرفنَ عن أجسادهن الكثير.

لم نستقر سوى أشهرٍ لتعصف بنا ظروف أشدَّ وأقسى رمتنا إلى الحدود التركية ومعسكرات اللجوء.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الانسحاب إلى المجهول

مَرتْ سنة وثلاثة أشهر بين الضربة الكيماوية الأولى والثانية تقريبا، في هذه الفترة تدهورت صحتي، وكما ذكرت في فصل سابق أرسلتُ إلى إيران لإجراء فحوصات لمعرفة أسباب نقصان وزني وتداعي ووهن قواي. حاصرتني ثلوج ذلك الشتاء القاسي ستة أشهر كاملة في مقرات "لولان" عشتُ فيها فراقاً مركبا، لوعة فراق زوجي وأبني الذي صار عمره ستة أعوام. افتقدت الدفء العائلي، انحرمتُ من حضن زوجي، وملمس أبني البعيد في مدينتي الجنوبية، غامرت بحياتي من أجل لقاء حبيبي فخرجتُ مع مفرزة صغيرة فكانت مجازفة بمعنى الكلمة، نجوت ووصلنا فشعرتُ لحظة حضنه وامتزاج أنفاسنا ونبضنا كأني خُلِقْتُ من جديد وشعرتُ بالأمان والسلام الداخلي بعد المعاناة والاضطراب النفسي الذي عشته في فترة فراقنا.

انتقل المقر بعد القصف الكيمياوي الأول، بكافة فصائله إلى أمكنة أخرى أبعد وأكثر أماناً، وَتُرِكَتْ مجموعة صغيرة من الرفاق لحراسة الموقع المضروب لحين نقل محتويات المقر

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المتبقية، كنا أنا وزوجي من ضمنهم.

في يوم 5-6-1988 الذكرى الأولى للقصف قبل الغداء بقليل وصلت مجموعة من ثلاثة رفاق مسلحين وامرأة ترتدي الملابس الكردية الفضفاضة قادمين من الفوج الأول، المرأة الجميلة كانت صامتة واجمة حزينة ترمقنا بشجن وفي عينيها ألم ولوعة وسؤال، لم أتّعَرَفْ عليها للوهلة الأولى، لكن تذكرتها قبل أن يفصح إحدى الرفاق القادمين قائلاً:

- أم فؤاد جاءت تزور قبر زوجها!

شعرتُ بأسى لا يوصف وحزن دفين وعميق، كم تخيلت لوعتها قبل عام، كانت تنتظر وأطفالها الزوج الراجع بعد غياب عام قضاه في إيران للعلاج من محاولة اغتيال بالسّم، لكنه قضى في القصف بغازات الكيمياء في مثل هذا اليوم ودفن هنا. اعتذروا عن تناول الغداء معنا قائلين:

- لازم نرجع للفوج قبل الظلام!

كان الجو مربكاً، حزيناً، الكُل يخشى مواصلة الكلام إلى أن قالت بصوتٍ مرتجف:

- أين قبره؟

- ...

لم يجب أحدٌ، ظلَّ الرفاق يحملقون بوجوه بعضٍ بصمت، كررتْ السؤال بصوت يقطر ألماً وأضافت بالكردية:

- أخذوني له!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

- ...

كسرتُ الصمت وقلت لها:

- "أم فؤاد" تعالي معي!

وَسحبتها من ذراعها، فانقادت بيسر، قطعنا حقلاً صغيراً ونزلنا على منحدرٍ من عدة أمتار يفضي إلى فسحة مستوية دُفِنَ فيها الرفيقان "أبو رزگار" وزوجها، قدتها نحو القبرين كان عليهما باقات زهور نقطفها من الحقول بين آونة وأخرى، أشرت نحو قبره، كنت أقف جوارها، بدأت بالتمتمة غير المفهومة لدقيقتين ثم هوت على ركبتيها جوار تراب القبر والزهور، كنت أشعر بقتامة وكآبة مشهد زوجة فقدت أعز وأحب الناس إليها، خطفه بغتة هازم اللذات ومفرق الجماعات. كنت أتجلد بعناء وهي تهيل التراب على رأسها نادبةً بصوت شجي، حزين، خافت يكاد لا يسمع، يفطر القلب، تناديه وكأنه مازال حياً، تتغزل وتقص وتنوح وتغني، وتخبره بما جرى لها والأطفال بعده، تصورتُ نفسي بمكانها فكدتُ انفجر بالنحيب، لكن تماسكت، مسحتُ دموعي التي تفجرت بصمتٍ رغماً عني. كانت الشمس ساطعة والسماء زرقاء صافية، والطيور تهدل على الأشجار، وهدير مجرى "الزاب" يختلط بنحيب الأرملة المفجوعة، حينها شعرتُ بحتمية الموت وسط طبيعة ستبقى خالدة بجمالها غير أبهة بأوجاعنا ومصائبنا نحن البشر المساكين.

كنت أسمع نحيب الرفاق الواقفين خلفها على بعد أمتار وَالمطلين من تلة الفصيل، كانت تقبض بكفها المضمومة حفنة

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

من تراب القبر تكلمها بحرقة وَتهيلها على عصابة رأسها وكأنها تريد أن تخلقه وتعيده من العدم.

وتعود تقبض من جديد على حفنة أخرى تكلمها بعتب وَتهيلها، تخيلتها تراه في التراب تمسك يديه تقبل جبهته تشم رائحته وتعانقه في الحفنة النازلة من أم الرأس إلى حضنها مجسّدةً أشواق الأرملة المستحيلة بملامسة جسدٍ حميمٍ حُرِمَتْ منه إلى الأبد. نامت على طولها حاضنة تربة القبر، وخفت همسها وهي تلامس بشفتيها ذرات التراب.

- هل كانت تبثه أشواقها؟

- هل تسمعه يكلمها؟

تخيلت ذلك وأنا أراها تسكت وتتسمع وتعاود الهمس. يا إلهي أي حزنٍ وخسارة في فقدان زوجٍ حبيب؟ تساءلت وتفقدت موضع وقوف زوجي مطلاً على مكان القبرين. وَجّعتْ لي قلبي وجعاً لم أعرفه سابقاً في حياتي المدنية قبل التحاقي، إذ لم أحضر أية مراسيم عزاء:

- يا ألهى أي حزن وقهر يحل بالمرأة التي تفقد شريك حياتها؟

اقتربت منها، جلست جوارها، لتوها فرغت من نوبة صراخ مجنون، أُطيب خاطرها بجميل الكلمات عن الصبر، سحبتها فجلستْ، أحطت بخصرها وساعدتها على النهوض، كانت منهكة تماماً في مواجهة الموت الذي خطف في غفلة شريك حياتها وسندها في الحياة.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المشهد ذاك جَسّدَ لي معاناة العائلة البسيطة التي لا ذنب لها، لكنها تتحمل تبعات خيار أحد أفرادها موقفاً مناهضاً لِسلطة الدكتاتور، وأي ثمن باهظ تدفعهُ، تهجير وتشريد من مدنهم وبيوتهم كباراً وصغاراً، نساء وأطفال، شيوخ وعجائز طاعنين في السن إلى أماكن الثوار الخطرة وسط حومة الحرب المشتعلة.

كم غبطت نفسي على نجاتي من ذلك المصير المأساوي، وعدم فقدان حبيبي وزوجي ورفيقي في طريق النضال الصعب.

أعادني المشهد إلى لوعة تلك الأيام حينما سيق إلى جبهات الحرب كجندي احتياط، وخاض معارك مجنون في قاطع البصرة، كم تخيلته يأتي ملفوفاً بالعلم العراقي، وكم عشت لحظات أتخيل فيها نفسي أرملةً، وكم فرحت حينما ترك جبهة الحرب، لِنلتحق بالثوار مغامرين بِحياتنا في توقيت باغَتَ أجهزة السلطة التي كانت على وشك القبض علينا. كم عشت قلقاً شبيهاً بقلق "أم فؤاد" في انتظار عودة زوجها من إيران، قلقٌ كان يجعلني الوب في كل مرة يذهب فيها بمفرزة البريد إلى مواقع بعيدة تستغرق حوالي أسابيع في طرقٍ وعرةٍ وأخرى مبلطة يعبرون فيها كمائن منصوبة، ومجاري أنهار خطرة وجبال شاهقة مزروعة بالرابيا ومعسكرات الجيش، آخرها ما حدث له في قصف العام الماضي الكيمياوي فكانت إصابته خطيرة جداً، كاد أن يرحل ونجا بأعجوبة.

بدأت تتسرب أخبار بأن الحرب العراقية الإيرانية على وشك التوقف أو احتمال إعلان وقف إطلاق النار، فتولدت المخاوف

منشورات «ألف باء AlfYaa»

على مستقبل حركة الكفاح المسلح، إذ توقعنا زحف الجيش العائد من الجبهات على أماكن الثوار، وهذا ما سوف يحصل بعد شهرين من تاريخ زيارة "أم فؤاد" قبر زوجها.

في أواخر تموز 1988، خرجنا أنا وزوجي بصحبة رفيق من أهالي المنطقة "أشتي عمادية" توطدت علاقتنا به مؤخراً، في إجازة مفتوحة هي أول وآخر إجازة في حياتنا بين الثوار. عبرنا سلسلة متين وشارع عمادية – ديره لوك من معابر أمينة، قاطعين ممرات وطرق وعرة باتجاه قرية "هفنگه" الصغيرة التي تقطنها عوائل الرفاق المهجرة من مدينة العمادية، فكرة الإجازة طرحها رفيق توطدت علاقتنا به جدا يدعى "هوار" خريج أكاديمية الفنون الجميلة يعمل بالتنظيم المدني وَهُجرت والدته بسببه، فبنى بيتاً في القرية سكنت فيه، قال لنا:

- تعالوا بإجازة تقضوها في بيتي وستعتني أمي بكما وتحسون بدفء البيت!

فِعلاً، كنا في حاجة لِمذاق الدفء العائلي الذي افتقدناه منذ التحاقِنا قبل سنوات ثلاث، استقبلتنا أمه بوجهها الدائري الأبيض المضيء كأنه القمر يوم اكتماله وَأغرقتنا بدفء وحنان أمومتها فأحيت أحاسيس خفتت من قسوة حياة الثوار العسكرية الصارمة، كنا نجلس في طارمة البيت فَتترَامى أمام ناظرنا شبكة الوديان المنحدرة نحو الشارع المبلط و قلعة العمادية الشاهقة.

تسألني في ساعات النهار أكثر من مرة أن كان ينقصنا شيء، طبخت لنا أطيب الأكلات التي نسيناها وألغيت من قاموسنا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الغذائي في تقشف ظروف النضال المسلح، زرنا العديد من بيوت عوائل رفاقنا الأكراد المنتشرة في المنطقة، ونلت حصة الأسد من الاهتمام والرعاية لكوني امرأة مقاتلة، كنَّ يتعجبن من تحملي حياة البيشمرگه، فأغلب زوجات أو أخوات الرفاق الأكراد المهجرات لا يَعْمَلّنَ بالسياسة.

قضينا أياما دافئة وممتعة بين تلك العوائل الطيبة والتي فتحت قلوبها وضمتنا أياماً لا تنسى.

سنلتقي في قادم الأيام في مرحلة التشرد بمعسكرات اللجوء الإيرانية بعض من تلك العوائل التي نجحت في الهرب إلى إيران وسكنت بعض مدنها الشمالية الصغيرة.

قررنا قطع الإجازة والعودة إلى القاعدة، ففي مساء هادئ صخب الوادي بانفجارات قذائف المدفعية الممشطة للوادي القريب، وقنابل التنوير من الربايا والمعسكر القريب فيما يشبه المهرجان، هرعنا إلى المذياع فعلمنا أن الحرب مع إيران توقفت، كان ذلك يوم 8-8-1988، قادنا "أشتي" في الصبيحة التالية في رحلة العودة إلى القاعدة القديمة شبه المتروكة غارقين بمزيج من المشاعر المتناقضة؛ نشوة من الدفء العائلي، وقلقٌ مما تضمرهُ لنا الأيام القادمة.

شغلت المجموعة الصغيرة التي كنا ضمنها موقع فصيل الإسناد، والمكونة من: "أبو سعد" و"ابو جواد" و"ابو الوسن" و"سلام مروگي" و "منذر" و"عمودي" و "ابو نادية الفوج الثالث" و" ابو الطيب" زوجي و"بهار" كاتبة هذه السطور، بالإضافة إلى رفيقة وزوجها كانا ضيوفا من الفوج الثالث، أُثبت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أسماء المجموعة التي ستواجه نصيباً تراجيدياً وتتوزع بين شاهدٍ وشهيد.

نلتقي كل مساء في ساحة صغيرة أمام القاعة الكبيرة بعدَ أن نقضي واجباتنا اليومية، نسرد على بعضنا الذكريات والمواقف الهزلية التي مررنا بها خلال حياتنا، نَتبارى في رواية النكت والطرائف، نصيد السمك من النهر، نقرأ، والبعض يلعب الورق لتزجية الوقت الثقيل في تلك الأيام الموحشة.

كان نهار يوم 20-8-1988 هادئاً مشمساً ساكناً، وبدأ الهدوء مبالغاً به منذ عدة أيام، لا قصف مدفعي ولا طيران ينقضُ فعشنا مستمتعين نصيد السمك ونشويه، ننصتُ لطيور الغابة، لهدير النهر، للنسمات وكأننا لسنا في حربٍ، مما ولدَّ لدى بعضنا هواجسَ من السِكون المريب والغامض فتساءل أحدهم مستغرباً وكان جنديا في جبهة الحرب قبل إلتحاقه:

- الله يستر أشو هذي الأيام هدوء يخوف!

- ...

- كنا من يصير هدوء بالجبهة وما كو قصف أيام يصير هجوم كبير فجأة!

لم يؤخذ هاجسه بجدية، لكن عند العصر وفيما كنا نعد وجبة العشاء لمحنا رفيقاً من التنظيم المدني مقبلاً من جهة النهر، شاركنا العشاء، وَجلسة شرب الشاي، كان يجلس صامتاً ومسحة أسفٍ وحزنٍ في نظراته الساهمة، فبدا بعيداً لا يسمع سَيل المزاح والنكات وموجات الضحك العاصف.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وفجأة باغتنا بجملةٍ أذهبت المزاح وَأسقطتنا في سورة من القلق:

- رفاق ليش باقين هنا، وجودكم ما له معنى، سكان القرى كلهم نزحوا إلى الحدود التركية، والجيش يجوز بكري لو بعده يوصل للموقع.

قال جملته وهو يهم بالمغادرة إلى مقصده.

صمتنا جميعا من هول الخبر وعواقبه، لم نعرف ماذا نفعل؟ فليس لنا وسيلة اتصال لا سلكي بالمواقع الجديدة التي انتقل الرفاق لها والتي كانت في طور البناء، ظللنا نحملق بوجوه بعضٍ نفكر في مخرج ما، إلى أن كَسرَ الصمت صوت المسؤول العسكري الرفيق "منذر" (يعيش الآن في "أوسلو" بالنرويج) بقرار فوري قائلا:

- هسه العوائل تغادر الموقع!

كان كلامه حازماً، بقامته القصيرة، و وجهه الأبيض المستدير الذي حلت بِقسماته صرامة أذهَبت بشاشته وغيبت بسمته الدائمة وتعليقاته التي تخلق جواً من المرح يخفف متاعب اليوم.

كرر قراره طالباً مغادرتنا فوراً:

- رفاق الوضع خطر تخرجون الآن إلى موقع القاطع!

ليلتها كنت أشعر بوعكة وإجهاد جسدي، ترجيته أن يتركنا نَبات الليلة ونغادر في الصباح، لكنه أصرّ على قراره ناطقاً بلهجةٍ قاطعة وهو يتجنب النظر بعينيّ:

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- بلا نقاش العوائل تتحرك الآن!

جَمعّنا وثائقنا وحاجتنا الضرورية الصغيرة في حقائبنا القماشية وخرجنا مسرعين قبل نزول الظلام، نزلنا على مسلكٍ ضيق يؤدي إلى ضفة النهر، أصابني شجنٌ مباغتْ وشعرت بأني أودع المكان إلى الأبد، مررنا بشجرة الجوز العملاقة التي ياما جلستُ تحت ظلها ظهاري الصيف، وبساتين الرمان والعنب والتوت والمشمش والتين المنتشرة على السفوح والمرتفعات المنبسطة المطلة على المجرى، تذكرت سجادة ورد شقائق النعمان المفروشة على السفوح والوادي مطلع كل ربيع، مررنا بِنبع المياه المعدنية التي كنا أنا و الرفيقة "هدى" نجلس جواره في نزهات ونغني غناءً حزيناً وشجياً يشبه نواعي امهاتنا.

خنقتني العبرات وعينيّ تلقي نظرة وداع لتلك الأماكن التي شَاركتنا همومنا وأحزاننا، ضحكاتنا ودموعنا، بكائنا ساعة مواراة شهيدٍ في حفرته، أحسستُ أني أودع ثلاث سنوات تعادل حياة كاملة، تعلمت منها الكثير وأكسبتني خبرة فاقت خبرة الأربعة والعشرين عاما التي عشتها في المجتمع قبل التحاقي بالثوار.

وصلنا ضفة النهر، وتوجهنا نحو "الترافيك" وهي عربة مصنوعة من الخشب ومعلقة على سلك من النحاس الغليظ يربط بين الضفتين، يعلوه سلك آخر يسحبه الراكب كي تسير العجلة على سكة السلك في اتجاه الضفة الأخرى، ساعدنا بعضنا بالعبور، وواصلنا المسير بمحاذاة المجرى في مسلك ضيق وعر حتى وصلنا شارعا مبلطاً مليئا بأفواج من النساء والأطفال

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

والشيوخ الفارين من الجيش المتقدم والقصف المستمر الذي دمّرَ حقولهم وقراهم، حاملين ما استطاعوا من ضروريات الحياة على ظهورهم وظهور البغال متوجهين إلى الحدود التركية.

مشينا بخطى بطيئة على الجادة الملتوية كخيطٍ رفيع يختفي في عمق الوادي، قطعنا مسافة كيلومتر وسط الهاربين وعند مفترق طرقٍ، انفتح وادي جانبي ضيق مَسالكه وعرة يؤدي إلى موقع فصيل المكتب السياسي فصيلنا حين التحاقنا قبل نقلنا لفصيل الإدارة، توقف زوجي فَتحلقنا حوله خاطب الرفيق الآخر وزوجته بأننا سنصعد إلى فصيل م. س، لم يوافق الرفيق وزوجته وفضلا مواصلة السير نحو مقر القاطع الأبعد. انفردت وزوجي فَتوغلنا في الوادي الضيق العميق وصعدنا مسلكاً حاداً ما يقارب النصف ساعة اختصاراً لِلفة طويلة. وصلنا إلى الموقع.

كان الاضطراب والتوجس والقلق واضحا على جميع الرفاق، وكأنهم مهيئين لترك المكان دون الإعلان صراحة عن ذلك. لم نجد قادة الحزب المتواجدين عادة في الفصيل، سنعرف لاحقاً بأنهم نقلوا إلى موقع "لولان" في المثلث الحدودي التركي الإيراني العراق لحمياتهم وتسهيل الانسحاب في حالة تطور حملة الجيش العائد من جبهات الحرب بأعداد هائلة، ما تبقى هم رفاق كبار السن مرضى وجرحى ومعوقين من معارك سابقة أتذكر منهم "أبو نصار - "جابر هيجل" الذي أصيب في معركة وقطعت ساقه اليمنى من أعلى الركبة مع زوجته "أم نصار" وطفلتهما "لهيب" بنت الشهرين، كنت حاضرة لحظة ولادتها كمساعدة للطبيب يوم 18 حزيران 1988، اعتنيتُ بها موظفةً

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خبرتي بأبني البكر، عَلمتُ والدتها كيفية غسل جسمها الطري والطريقة الصحيحة في تلبيسها دون أن تؤذي يديها الطريتين، حضرتُ خليط الماء والسكر وسقيتها عوضاً عن الحليب الذي جَفَّ في صدر أمها من سوء التغذية وهول القصف الدائم، والقلق على المصير.

كنت أغني للهيب التنويمة العراقية الشهيرة:

" دللول يالولد يبني دللول، عدوك عليل وساكن"

"نامي والنومة عوافي" التي كنتُ أدندن بها لابني "كفاح" الذي مرت ثلاث سنوات على فراقه حتى ذلك الوقت، وللأسف عدوي وعدو أبني ولهيب وعدو الحياة معافى وقوي ومن سَكَنَ الچول وذاق الويل هو نحنُ.

نجونا واستقرت عائلتها بعد ترحال طويل وقاسي في السويد، "لهيب" كبرت رشيقة القامة، برونزية اللون، ذات شخصية قوية ومتماسكة وذكية جدا تعمل الآن في مؤسسة دولية تهتم بشؤون الدول الساخنة ومن ضمنها العراق، التقيتها في مدينتي الديوانية وشاركتْ معنا في تظاهرات تشرين 2019، وجدتها تعرفني وتكُن لي مشاعر خاصة وتعتبرني أمها الثانية، فَوالداها قصا عليها أدق تفاصيل عنايتي بها منذُ ولادتها وفي الانسحاب الكبير، ذكرتني في اللقاء بتفاصيل كانت غائمة في ذاكرتي ومنها مثلا كيف تعاونا على حملها طوال ذلك الطريق الوعر والخطير حتى دخولنا الأراضي التركية.

بعد ساعات من وصولنا الموقع بَدَأتْ أصوات القصف المدفعي والطيران السمتي تقترب من آذاننا، ثم هَزّتْ المكان

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القريب من موقعنا رشقة راجمة صواريخ عنيفة وكثيفة ومتقاربة، كنا نستطيع أن نرى لهب الانفجارات وصوتها القادم من عمق الحوض الذي تركناه قبل سويعات.

دخلنا في إنذار وهاجس الرحيل وترك الموقع لاح وشيكاً دون إفصاح. ساد الصمت بيننا، كان الجميع خائفاً من التصريح بشيء مخافة أن يفسر قوله أو رأيه انهزاماً وجبناً.

حسم الموقف "أبو الجاسم" مسؤول الموقع، طالباً من الجميع العودة إلى أماكنهم وأخذ قسطاً كافياً من النوم استعدادا لما يخبئه الصباح، وكالمعتاد نظمت قائمة الحراسات الليلية.

"أبو الجاسم" رفيق هادئ، وشخصية متماسكة، محبوب ومقبول من الكثير من الرفاق، ستظهر صفاته كقائد واثق من قراراته في قيادته لعملية الانسحاب، يقطن الآن "مالمو" السويدية بعدَ ما جمع شَمل عائلته التي تركها في مدينة الحلة حين اختار طريق النضال.

كانت ليلة عصيبة جدا عليّ ورفاقي، لا أعرف كيف سقطتُ في نومٍ عميق ليلتها، لاستيقظ مفزوعة على أصوات عويل وصراخ قادمة من خارج القاعة الكبيرة التي قضى الرفاق ليلتهم الأخيرة فيها، خرجتُ مسرعة فوقعت عينيّ على الرفيق "أبو نادية" و "سلام مروكي" اللذينَ كُنا معهم ليلة الأمس.

كانا منهارين، يَتنفسان بصعوبة، وَيهذيان بكلامٍ غير مترابط، يضربان جباههم براحة كفيهما مثل امرأة فقدت للتو عزيزا، ثم بدءا بالصراخ و عيونهم زائغة ملؤها الفزع لا تركز بوجوهنا إلى أن نطقا بجملة واضحة:

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- راحوا رفاقنا!

حاول "أبو الجاسم" بكل ما يتمتع به من ضبط أعصاب تهدئتهما والاستفهام عما حدثَ لهم في ليلة الأمس دون جدوى، كانا في حالة فزع وانهيار تامين، لم يتَوقفا عن النوح وضرب أفخاذهم وهما جالسان على الأرض و يسندان ظهريهما إلى جدار القاعة كأنهما في مأتم، إلى أن تفوها بجملٍ متقطعة لكنها مفهومة

- ضربونا كيماوي.. يمكن غاز الأعصاب..

- أصبنا بحالة هستيريا، ردنه نقتل نفسنا

- دَخلنا بكوابيس وصرنا مثل المجانين كل الليل!

- ما نعرف رفاقنا وين صاروا!

هدأ قليلا وأخبرنا بقية القصة:

- إطَشَرنا كل رفيق ركض في جهة لا على التعيين، احنه ركضنا باتجاه الزاب وسحبنا "أبو سعد" عبرنا للضفة الثانية قلنا له واصل المسير لمقر القاطع وركبنا الترافيك راجعين نشوف بقية الرفاق، سمعناه يصرخ مثل المجنون:

- لا.... تترْكوني وحدي ترى اقتل نفسي، سحبنا السلك عائدين، وفي منتصف النهر سمعنا صوت طلقة مكتومة، ما ندري كان الظلام دامساً هل أنتحر لو أغمى عليه لأن لم يصدر صوت من جهته بعد ذلك.

إذن كانوا في دوامة رعبٍ وجنون مميتة وكوابيس ورؤى سوداوية أطلقتها غازات الأعصاب فجعلتهم يتمنون الانتحار

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خلاصاً.

شكرت الرفيق "منذر" مع نفسي على قراره الحازم، وإصراره على خروجنا الفوري أنا وزوجي من الموقع في غروب البارحة، فهو في حقيقة الأمر أنقذ حياتنا من كارثة تؤدي إلى حتفنا لأن وضعنا الصحي كان هشاً أثر أصابتنا الشديدة بغازات الخردل في الضربة الأولى قبل عام.

عدت من شرودي أنصت لبقية القصة:

- رجعنا نبحث عن بقية الرفاق، لم نتمكن من سحبهم كانوا في حالة هستيريا وجنون، أخرجنا كل أبر بنادقهم وَأخفيناها مخافة أن يتكرر ما حدث لأبي سعد!

لم يطلب أي رفيق منا توضيح أمر وصُولِهما سالمين، ولم يكن لدينا وقت ولم يعد ذلك مهماً، الأهم هو نجاتهما من موتٍ محققٍ.

كان "أبو الجاسم" رابط الجأش ينقل نظراته بين وجوه الرفاق إلى أن وجه سؤالا للجميع:

- نحتاج مجموعة صغيرة تنزل للمقر القديم تبحث عن بقية الرفاق!

ساد الصمت لدقائق ولم يجب أحدٌ لا جبناً لكن الغالبية من كبار السن و المرضى والمتعبين، بادر "زوجي" في التطوع لحقه "فرهاد" "أبو حاتم" و رفيقان من تودة الإيراني هما "كاميران" و "شمال". وتهيأ الرفاق الخمسة على الفور للنزول إلى الموقع المضروب والبحث عن بقية الرفاق ومحاولة إنقاذهم

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أو معرفة مصيرهم.

أخذتُ زوجي جانباً وهمست في أذنه:

- كُن حذراً. ضَعْ قطعة قماش مبللة على أنفك وفمك للوقاية!

ما أن غاب مع المجموعة في عمق الوادي حتى أخذتني الهواجس وكأنني أودعه الوداع الأخير، أنا الملسوعة في قصف العام الماضي الذي لوعنيّ وأراني الويل ووشم جسد حبيبي ببقع حروقٍ لا تمحي، ومعاناته من التهاب الرئتين المتكرر في كل الفصول، وترك عجزاً عطب حياته العملية بقية العمر لحد لحظة كتابة هذه السطور.

كان السكون تاماً والشمس تتلألأ ساطعة وأرض الوادي مغطاة بأوراق الخريف، جمال آسر مزعج لا يتناسب أبداً مع قسوة ما يجري وحجم الكارثة التي حلّتَ علينا، والمصير المجهول الذي ينتظرنا.

شعرتُ بجبروت الطبيعة وقوتها وضآلة الإنسان اتجاهها،

لا أدري كيف انقضى النهار ذاك بقيتُ أضرب أخماساً بأسداسٍ. المخاوف أخذتني بعيداً فَتخيلتُ حالي فيما لو لم يعد حبيبي سالماً؟ سأُجن بالتأكيد، وأنا التي أخاف عليه من الهواء، وفجأة تَرامى صوت قصف مدفعي ضرب مكاناً قريب من المقر الذي توجهتُ له المجموعة، كنا نطل من موقعنا العالي على سلسلة الوديان وحوض النهر، صار الوقت أثقل من الرصاص من كثرة الهواجس والقلق عليه، بتُ أسال نفسي:

- ماذا لو لم يعد؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

جعلني السؤال أقفز كمن لُسِعَ!

- بالتأكيد سأبقى هنا ولا أترك المكان، أعرف نفسي عنيدة وأحبه حد الجنون!

صرتُ أناجي الأشجار والعصافير وأوراق الأشجار المتساقطة والشمس والطرقات كي تحمي حبيبي وترجعه سالماً، مَرّتْ ساعات النهار ثقيلةً كأنها قرون.

بعد وجبة الغداء بحوالي ساعتين سمعت رفيقاً يصرخ:

- وَصلوا الرفاق!

هرعت إلى حافة المسلك فلمحتُ حبيبي يصعد وخلفه مجموعة من الرفاق، بالرغم من الفجيعة وقسوة ما يجري رقص قلبي فرحاً لعودة زوجي سالما، كان بصحبتهم رفيقان "عمودي" و "منذر" اللذان تمكنا من الوصول إلى مقر الديمقراطي الكردستاني القريب فقدموا لهما المساعدة، أما البقية وهم رفاق ثلاثة؛ "أبو الوسن" و "أبو جواد" و "أبو سعد" استشهدوا، فَدفنوهم على عجل على أمل العودة بعد هدوء الأوضاع ودفنهم دفناً يليق بِتضحياتهم.

في مساء نفس اليوم، وبعد الفشل في الاتصال بقيادة الحزب قرر الرفيق المسؤول تصفية الموقع وحرق ما به من وثائق غير ضرورية ومؤن زائدة والانسحاب باتجاه الشريط الحدودي التركي.

أضرموا النار في القاعة الكبيرة التي آوتنا جميعاً الليلة الماضية، وفي أحلامنا و أحزاننا وهمومنا الكِثار، حرقنا المطبخ

منشورات «ألف باء AlfYaa»

وكل ما يَدلُ على تواجدنا. جَمعّنا ما هو مهم من الوثائق وبعض مؤنة من السكر والشاي والخبز اليابس وعلب اللحم المُعَلبْ للطريق المجهول حملناها على بغلين أما ثالث بغال الموقع فخصص لحمل الرفيق المعوق "أبو نصار".

شعرتُ باسفٍ وحزنٍ شديدين وأنا أشاهد تصاعد ألسنة النار ومعها حلمنا في الحريةَ وطي صفحة من كتاب حياتي وحياة الرفاق كنا نظن فيها أننا سنحقق حلم الناس بوطنٍ حرٍ وشعبٍ سعيد، كتلة النار التهمت كل مستلزمات الحياة " من أكياس رز وطحين وعلب دهن الراعي والأفرشة".

كان مشهداً درامياً تراجيدياً، منظر النار وهي تقضي على ذكرياتنا كأنني أرى مشهدا سينمائيا في فلمٍ من أفلام الحروب، مشهد لم أنسه أبداً، غروب رائق، فقدان ثلاثة رفاق، ونيران تلتهم غرف المقر، وقافلة من رجال متعبين ورفيقات منهكات وبغال وزوجي يحمل "لهيب"، نتسلق نحو القمة ويلتفت الجميع بين الحين والحين مودعاً بعينيه الحزينتين تفاصيل المشهد المأساوي.

كانت مهمة الوصول بالمجموعة إلى مناطق آمنة بالشريط الحدودي التركي صعبةً جداً، فأغلب الرفاق كبار السن ومرضى يسيرون ببطء شديد، أما الرفاق الناجين من قصف الليلة الماضية فَوضعهم مرتبك وخصوصاً "منذر" المستمر في الشتيمة والفشار والكلام بجملٍ غير مترابطة بتأثير انهياره العصبي، كانت "أم نصار" تقود بغل زوجها بينما كنت أتعاون مع زوجي على حمل طفلتهما "لهيب" بنت الشهرين بالإضافة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

إلى بندقيتي المعلقة بكتفي وحقيبة القماش بظهري.

مشينا طول الليل في مسالك وعرة وشعاب معتمة بين سلاسل جبلية مترابطة، نصعدُ إلى قمم شاهقة ونهبط إلى وديان عميقة على ضوء النجوم الباهت. نتوقف مضطرين لأوقات قصيرة لأخذ قسطٍ من الراحة وتناول شيء من الطعام.

اختلطنا بقوافل سكان القرى الكبيرة المثقلة بالأحمال، أمهات تحمل أطفالها الصارخين من جوع وألم وعطش، رجال ونساء طاعنين في السن، زوجات حوامل، جموع نزحت من قُراها تحت وقع القصف المدفعي والصاروخي والطيران الحربي الممهد لِتقدُم قطعات الجيش، رويت لنا أثناء المسير قصص عن أهوال ما عانوه، كيف تركوا حيواناتهم من الماعز والأغنام والأبقار والبغال، بساتينهم وحقولهم العامرة، عن عوائل لم تتمكن أو تلحق بالهرب فَأسروا ونقلوا لأماكن مجهولة، أو قتلوا دون رحمة في الحقول والبيوت والجوامع، قصص وقصص يشيب لها الراس، لا أنسى ما حييت وجه المرأة الجميلة الشابة وهي تتلوى ألماً كمن طُعِنَ بخنجر، لا تُلقي بالاً لتوسلات النساء المحيطة بها كي تتناول قليلا من الطعام، أشعلت فضولي واستفسرت عن سبب رفضها الأكل والشرب، وتئن أنيناً يفطر القلب، فأجابتني إحدى النساء المحيطات بها:

- سقطتْ طفلتها في نهر الشين أثناء العبور وجرفها التيار!

سألتُ عن عمرها فأجابت:

- خمس سنوات!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

واصلنا المسير ليلا فنحن أخف وأسرع من العوائل المثقلة بما استطاعوا حمله من اواني وقدور ومؤن غذائية وبطانيات وأفرشة تحسباً لبرد الليل، فلديهم خبرة متراكمة من حروب الأكراد السابقة والهجرة إلى إيران أو التهجير لِمدن جنوب العراق كَالديوانية، والسماوة، ونقرة السلمان، والأنبار وغيرها، لقد تعلموا درس التهجير وما يحتاجونه في رحلة التشرد والضياع.

كانت النجوم المتلألئة في ظلام الليل الدامس تنير لنا الممرات والطرق الوعرة المغطاة بالصخور، طرق كأنها لَمْ توطأ بِأقدام بشرية قبلنا.

تعودت على المسير في الجبال بعد أشهر من المعاناة وأتقنتُ آلياته، ففي الصعود يهندس الجسم بطريقة تختلف تماماً عن النزول الذي وجدته أخطر ويحتاج لجهد أكثر، كنتُ من النصيرات السريعات الحركة، أشعر بمتعة وسعادة خاصة في التسلق والصعود فأصل إلى القمة مع دليل المفرزة لإ تمتع باستراحة أطول من بقية المفرزة.

باغتتني صرخة كسرت صمت المكان وظلامه، تبعه صوت ارتطام شيء وتدحرج صخور في عتمة منحدر السفح، توقفت المفرزة لمعرفة ما جرى، اتضح أن "أبو نصار" فقد توازنه فسقط من البغل الذي تعثر في مسيرة بالصخور، تأكد "أبو الطيب" من سلامته وساعده بالركوب ثانية وواصلنا المسير.

بلغنا معبراً حدودياً مع تباشير الفجر فرأينا حشدا هائلا من سكان القرى الفارين يتزاحمون بانتظار السماح لهم بدخول

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأراضي التركية، عقدت قيادة المفرزة اجتماعاً لتقييم الوضع وقررت لأسباب الطريق الصعب الذي ينتظرها بترك العوائل بين هذه الجموع المقدر السماح لها في اجتياز الحدود في أي ساعة. كنتُ ثورية متحمسة وعاطفية ومندفعة فرفضت قرار ترك المفرزة والتسليم بمصير مجهول أو الوقوع بأيدي الأتراك، لم يخفت حماسي الثوري وقتها، وكنت متشددة أحتقر في قرارة نفسي كل من لديه موقف ضعف أو حتى من يشتكي من صعوبة حياة الثوار، وحتى تلك اللحظة كنت أحلم بالبقاء في قواعد الثوار لأكون قريبة وداخل وطني بينما التسليم بالواقع واللجوء إلى تركيا سيجعل حلم الثورة والحرية أبعد ولقائي بابني "كفاح" بعيداً جداً، وقتها لم يكن لديَّ تصور واضح عن الكيفية التي تلفظ بها الأوطان أبناءها المخلصين بشكلٍ لا إنساني بشع كما سيجرى لنا. رفضتُ القرار بإصرار وواصلت مع زوجي المسير مع بقية الرفاق الأشداء بعد تَرْكِنا كبار السن والمرضى والعوائل والمصابين ومن ضمنهم "أبو نصار" وزوجته والطفلة.

واصلنا المسير في طرق وعرة و أماكن موحشة وتسلقنا قطوعا خطيرة و مررنا بقرى هجرها سكانها، دخلنا بيوتا نبحث عن قطعة خبز وبقايا طعام نسد به جوعنا بعد ما نفد ما حملناه معنا من مؤن غذائية، عن ملابس تقينا برد ليل شهر أيلول القارص، كانت الغرف تصرخ في وجوهنا ونحن نشاهد صينية الأكل بصحونها المليئة بالطعام المتعفن التي يبدو أن أهلها تركوها رعباً من قصف الطائرات أو خاطر الأسر والتهجير أو الدفن في مقابر جماعية وهذا ما سيحدث للكثير من العوائل التي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لم تفر فأُسِرَتْ وضاع أثرها. وتحسبا لكل شيء طارئ قادم أشار عليّ الرفاق بأخذ بدلة نسائية كردية من الملابس المتروكة في خزاناتها فانتقيتُ واحدةً زاهية الألوان فضفاضة وخبأتها في حقيبتي التي لم تفارق ظهري طيلة طريق الانسحاب.

واصلنا المسير لثلاثة أيام وليلتين، مررنا ببساتين محروقة وقرى تتصاعد منها نيران القصف وجثث فلاحين منتشرة على السفوح، وجثث نساء مزرقة رعباً تحتضن أطفالها على حافة الطرق والممرات على سفوح الوديان، كنا في سباق مع الوقت كي لا نقع في قبضة الجيش العراقي فيما لو سيطر على السلسلة الجبلية الحدودية التي فيها مواقع ربايا قديمة اضطر إلى تركها في فترة الحرب مع إيران.

عند الاستراحة قررت قيادة المفرزة قراراً قاطعاً وبدون نقاش تركنا أنا وزوجي ورفيقة وزوجها ورفيق آخر كان يعاني من آلام الظهر ويعاني صعوبة في السير مع سكان القرى الفارين والمنتظرين السماح بدخولهم الأراضي التركية أمام بوابة حدودية قريبة من موقع استراحتنا. قادنا دليلان من أكراد تركيا في مسيرة من منتصف النهار وحتى نزول الظلام، طلب أحدهما أن نستعد بإبدال ملابسنا أنا والرفيقة وتسليم أسلحتنا للاحتفاظ بها لحين عودتنا في ظرف أفضل، كان كذبهم بيناً فلا ظرف أفضل في الأفق، غّيرتُ ملابسي بالبدلة الكردية التي حملتها معي وسلمتُ سلاحي لأحدهم، حمل البنادق الخمسة و أختفى على الفور، بينما واصل الآخر السير بنا، كم شعرت بالضعف والعجز وأنا أفقد سلاحي ورداء الثوار، عبرنا ممراً ضيقاً جوار قمة جبلٍ، فَصعقني مشهد الأعداد الهائلة من

منشورات «ألف باء AlfYaa»

القرويين المنتشرين على فسحة واسعة في قعر الوادي، و مواقد النيران المشتعلة على عرض وطوال الوادي، التفت الدليل إلينا وقال:

- سأذهب! أنزلوا ومصيركم مصيرهم!

واستدار ليضيع في الظلام الدامس، كنا نخشى كشف الأتراك لهويتنا العربية وتسليمنا للحكومة العراقية حسب الاتفاقية الأمنية بين البلدين كما فعلت مع عدة رفاق وقعوا بكمائن الأتـراك وأُسروا.

انحدرنا نحو الجموع والوادي والنيران والضجيج والأصوات التي بددت الوحشة ومشاعر العجز، و اختلطنا بالحشد الهائل من العوائل المتجمعة حول النيران المشتعلة.

المصائب والمحن توحد البشر في مواجهة المجهول، وثقت من هذه الفكرة حال جلوسنا جوار عائلة ملتفةٍ حول موقد نار كبير، سمعونا نتكلم العربية فعرفوا على الفور أننا من الأنصار الشيوعيين، قدموا لنا طعاماً ساخناً، و أعارونا بطانيات وقتنا برد تلك الليلة من ليالي أواخر "آب" الباردة جداً في الجبال.

مشاهد النيران والتكافل البشري بعث في نفسي الأمل والقوة، فنهضت واقفةً وشملت الوادي المضاء بِمواقد النـار بنظـرة متأملة، فتخيلت نفسي أعيش في مشهدٍ فريـد صـوره جـون شتاينبك في رائعته "عناقيد الغضـب" وهـو يصـف الجمـوع الجائعة المتشردة زمن كارثة الكساد في أمريكا مطلع ثلاثينات القرن المنصرم الذي خرب حياة الملايين التي تَكافلت في تلك الظروف لمواجهة الجوع والعوز كما تتكافل جموع الفلاحين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الأكراد الفقراء.

سمعنا قصصاً فظيعة روتها أمهات باكيات عن فقدانهنَّ لأطفالهن ضياعاً وغرقاً أثناء عبور الأنهار في طريق الانسحاب الطويل، ونساء فقدنَّ أزواجهن في القصف، ورجال ضيعوا نساءهم في فوضى الهروب، ووووو قصص يشيب منها رأس الرضيع كما كانت تصف أمي حينما تروى كارثةً حَلّتْ بناسٍ تعرفهم. ونحن متحلقون حول موقد النار ننصت للحكايات وسط ضجيج وصراخ الأطفال وسعال كبار السن سمعنا صوتاً تردد صداه قوياً في أنحاء الوادي أجفَلنَا فَساد صمت مفاجئ على الجميع، لكنه تبين أنه انهيار صخري من انهيارات السفوح الجبلية الهشة يحدث في المواقع الرخوة، أفزع الجموع الشاردة وكأنه يتضامن مع جيش الدكتاتور في تخويف الفارين وترويعهم.

تفاوضت لجنة من الحشد مع حرس الحدود التركية من أجل السماح للفارين بالدخول، دون جدوى فالجواب واحد لا يتغير:

- ليس لدينا أوامر بالسماح!

فما علينا سوى الانتظار الجوع وبرد الليل، في ظهيرة اليوم الثالث سمعنا دوى انفجارات تأتي من خلف القمة ولعلعة رصاص قريب وقذائف فَأيقنا أن معركة تدور في وادي مجاور، ثم دوى انفجار على السفح المقابل فأصاب الهلع الحشود المتجمعة عند بوابة الحدود بدأت بالتدافع هلعا من الجيش المقترب، تلاحمت صارت كتلة واحدة هبت مقتحمة البوابة الحديدية الواطئة مثل إعصارٍ مجنون، لم تفِد حرس الحدود

منشورات «ألف باء AlfYaa»

بنادقهم المشهرة، ازاحتهم الكتلة على الجانبين، فتنحوا ينظرون إلى الحشد البشري المتدفق وهو يبتعد مئات الأمتار داخل الأراضي التركية في ركضة فزع صارخة. أمسكتُ بيد زوجي ودخلنا راكضين وسط الحشد الملتحم مبتعدين عن حرس الحدود والشارع المبلط، وفيما كنا نركض وسط الحشد الذي تفرقت كتلته قليلاً وقعتْ عينيّ على طفلٍ صغيرٍ، ضائعٍ يبكي، حملتهُ لا إراديا، ذهب فزعه وهدأ في حضني، شعرتُ كأني أحضنُ أبني "كفاح" الذي تركته في مدينتي، ابتعدنا مسافة كافية داخل الأراضي التركية، خف الصريخ وبدأ الحشد يسير ببطء والعوائل تبحث عن أفرادها المتفرقين، خرجت جنب الجادة المبلطة واسترحت تحت ظلال شجرة بانتظار "أبو الطيب" الذي أضعته حينما أفلتُ يده وحملت الطفل، انشغلت بِملاعبته، وفجأة هجمت عليّ امرأة صارخة بصوت مذبوح وخطفته من بين يدي مرددةً:

- أوي دايكه!

وتعني بالعربية "أخ يمه".

وراحت تتلمس جسده قطعةً.. قطعة تحضنه، تشمه، تبعدهُ، تنظرْ في عينيه وتردد لازمتها "أوي دايكه" وتضمه بقوة إلى صدرها المعروقْ كأنها تَبغي ضمه في أحشائها، ثم استدارت دون أن تقول لي كلمة وغابت بين الجموع المنتشرة في صحن وادٍ عريض.

بقينا عدة أيام مشردين، نفترش الأرض ليلاً وننتشر نهاراً بين اللاجئين حول قرية تركية حديثة البناء، فيها ماء وكهرباء.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

العوائل نصبت ما حملته من مستلزمات الحياة الضرورية ورتبت مساحات بين الأشجار، وبدأت تعد الطعام البسيط، وتفرق علينا حصتنا من الخبز والشاي وما توفر وقت الوجبات.

كنا نخشى من عناصر المخابرات التركية (ميت) وخشيةً من انكشاف وجودنا بين السكان الأكراد الفارين أقترح زوجي العيش مع عائلة رفاق تَعَرفنا عليها في إجازتنا الوحيدة من باب التخفي المؤقت، وجدتُ الاقتراح معقولاً، سكنت معها فرأيت الويل الواقع على يوم حياة المرأة الفلاحة، عاملتني المرأة الكبيرة معاملة القرويات، فلم تدعني أجلس دقيقة واحدة، واجبات متلاحقة لا تنتهي حتى نزول الظلام؛ عجن الطحين وخبزه على إناء حديدي مدور، طبخ الوجبات، تقديم الطعام، غسل الصحون، تجميع الحطب، نقل الماء من نبعٍ بعيد، تنظيف فسحة المكان الذي اتخذته العائلة مأوى لها عدة مرات في اليوم، وباختصار عملت كل ما يتوجب على الفتاة القروية عمله، لم أصمد أكثر من يومين، عدتُ إلى زوجي وتوسدتُ التراب معه، منتفضة على طبيعة حياة عبودية ناضلت من أجل تحرير المرأة من براثنها، قلتُ له:

- أني بيشمركه وحالي حالكم.

لا أتذكر كم بقينا في أول محطة داخل الأراضي التركية، لكن ما أتذكره هو ذلك اليوم من أيام شهر أيلول المشمس وقوف قافلة شاحنات قلابة أشار سواقها إلى الجميع بالصعود فهمنا بأنهم ينقلونا إلى مكانٍ أمين. تَراصفنا في حوض الشاحنات العميق نساءً وأطفالاً ورجالاً، قلنا جاء الفرج، ومضتْ بنا في

منشورات «ألف باء AlfYaa»

طرق جبلية مبلطة متعرجة، على جوانبها تنتشر قرى كردية تركية، كان سكانها يقفون أمام الأبواب وعلى جانبي الطريق يُلَوّحونَ لنا متعاطفين، مع الغروب توقفت المركبات وسط سهل أجرد تماما واسع ينبسط بين جبال، ومحاط بأسلاكٍ شائكة. عرفنا لاحقاً أن السلطات التركية هيأت هذا المكان للأكراد العراقيين الفارين من حملة الأنفال والمكان يدعى "گفر".

كان الليل بارد جداً ونحن لا نملك أفرشة ولا ملابس ثقيلة تقينا، بل كنتُ أرتدي البدلة الصيفية الكردية، تذكر زوجي معطفي الشتوي التي أودعها لدى رفيق من مدينتنا أثناء الانسحاب من باب الإعارة وِلنتمكن من حمل طفلة أبو نصار بيسر قال:

- انتظريني هنا ولا تتحركي سأذهب لجلب المعطف من رفيقنا!

عاد بعد وقت قصير واجماً خائباً، فالرفيق رفض إعادة المعطف قائلا:

- أنه أصبح ملكه!

قلت له:

- ولا يهمك يا حبيبي!

ها نحن نقفُ وسط سهلٍ مكتظٍ بَالفارين من بطش الدكتاتور، وصلناه مكدسين مثل علب السردين في شاحنات نقل الحصى والرمل، سارت ساعات طويلة في طرق جبلية متعرجة، بتنا ليلةً في العراء على طريق مرصوف بالحجر والحصى.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

السهل المفتوح يتحول في ساعات الليل إلى ثلاجة ورياح باردة تنشط هابة من كل الجهات مما جعل النوم حلماً مستحيلاً.

جمعنا حطبا واشعلنا ناراً، قضينا الليل حول الموقد حتى انبلج الفجر، فانكشف المشهد تحت الضوء؛ العوائل متناثرة في السهل الواسع والشاحنات مستمرة بنقل الأكراد من منافذ الحدود القريبة.

مع تقدم النهار بدأ يتزايد صراخ الأطفال وأنين المرضى، وسعال المصابين بالغازات السامة، نساء وأطفال ورجال تتلوى ألماً من الحروق. وجوه بعضهم مسّودة والعيون متصلبة كأنها كتلة دم لا يستطيع المصاب فتحها، كنت أحس عذابهم بعمق فقد ذقت جحيمه في العام الماضي.

مع تزايد الأعداد، تعالت أصوات الاحتجاج تطالب بتوفير مستلزمات الحياة من خبزٍ وماءٍ نظيفٍ وأغطيةٍ.

بقينا ندور بين الجموع المكلومة نحاول تقديم المساعدة، نشرح لهم عن الإعراض ونطمئِنهم قائلين؛ ستختفي بمرور الأيام.

اشتدت الاحتجاجات المطالبة بتقديم المساعدات الطبية للمصابين وتوفير الطعام والماء والفراش والخيم، حتى كادت أن تحدث فوضى، فَتفاوضت لجان من المحتجزين مع إدارة المخيم.

في اليوم التالي سُمِحَ بدخول شاحنات محملة بمساعدات تبرع بها أكراد تركيا الأغنياء، أفرغت كميات كبيرة من الخبز، علب زيتون، أجبان، لبن، خيم، بطانيات، وبدأ التوزيع. صَفَّ زوجي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

في الطابور وعاد مع الغروب بخيمة، ربطة خبز، زيتون وبطانيات، مَرَّ شهر كنا ننام فيه تحت خيمة وَنُلفف ببطانيات سميكة، المعونات والمساعدات استمرتْ، وسكان المخيم تأقلموا مع الظروف الجديدة القديمة التي خبروها من عمليات التهجير القسري السابقة منتظرين تَغّير الظروف والعودة إلى قراهم ككل مرة، لكن بالنسبة لنا بدأ الوضع يتأزم والمخابرات التركية "ميت" بثت عيونها بين اللاجئين فاعتقل رفيقنا "أبو ماجد" خريج ألمانيا حينما ترجم لمراسلين صحفيين ألمان أحوال اللاجئين وما جرى لهم، عُذب ليلة كاملة وأعادوه في اليوم التالي.

كنا في لجة الترقب والخوف من اكتشاف أمرنا، لا ندري ماذا نفعل وكيف نخرج من هذا المخيم السجن عندما سمعنا رجلٌ يقف جوار شاحنات فارغة تتوسط المخيم ويدعو الناس للركوب، ذهبنا لمعرفة الأمر فتَبينَ أنه رجل دين تركي توسّطَ لدى السلطات التركية لنقل العوائل التي انقسمت في طريق الانسحاب الطويل بين إيران وتركيا، وَترغب بالذهاب إلى إيران. أسرعنا جميعاً أقصد أنا وزوجي والرفاق إلى تجميع ما هو ضروري وركبنا، أخذنا البطانيات معنا من باب الاحتياط، فكل شيء في تلك الرحلة العجيبة كان مجهولاً، فلا نعرف مثلاً كم يستغرق وصولنا إلى الحدود الإيرانية حيث يتلاشى خطر الاعتقال والتسليم إلى السلطات العراقية.

بتنا ليلتنا في نقطة الحدود التركية الإيرانية، لم يكن عددنا كبيراً، في الصبيحة التالية نقلتنا باصات سياحية كبيرة إلى قرية "زيوة" في المثلث الحدودي العراقي الإيراني التركي، وزعوا

منشورات «ألف باء AlfYaa»

علينا خيماً تسع لعشرة أشخاص، فسكنَ معنا ثمانية رفاق، كنتُ أنام في فراش ممدود جوار الباب ثم زوجي والرفاق.

لم نمكث في الخيمة سوى أيامٍ قلائل، إذ فاجأني "كاكا حمه" وهو يطل من باب الخيمة وينادي عليّ:

- بهار.. بهار!

"كاكا حمة" فلاح كردي تعرفتُ على عائلته القاطنة قرب قاعدة "لولان" عندما حوصرت بالثلج وهذي التفاصيل رَويتها في فصلٍ سابق، وتوطدتْ علاقتي بهم، كنتُ أتحدث الكردية باللهجة السورانية تعلمتها في مرحلة الثانوية إذ كانت درساً مقرراً ضمن المنهج التعليمي.

أصرّ على الانتقال إلى غرفة جوار سكن عائلته في بناية سقيفة كبيرة مقسمة إلى غرف متقابلة، ولم يغادر حتى أخذنا معه وساعدنا في حمل فراشنا، شغلنا غرفةً يفصلها جدار عن غرفة عائلته، تشترك الغرفتان في مدخل واحد عزله ببطانيات ثبتها بحبلٍ ومسامير، فشعرنا لأول مرة بخصوصية منذ نزوحنا وتركنا القاعدة.

بقينا مع العائلة قرابة ستة أشهر و "كاكا حمه" ضيفنا كل مساء يشاركنا الشاي ويعيد على مسامعنا أسطورته عن "ملا مصطفى البرزاني" الذي أستيقظ من الموت وأدبَّ المجهول الذي حفر قبره وجعله مجنوناً، كان "أبو الطيب" يغفو أثناء سرد قصص الكاكا، فاندسه كي يفتح عينيه.

ذلك الشتاء كان قاسياً، ودرجة الحرارة تهبط إلى ثلاثين تحت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

الصفر، والاستحمام شهرياً لعدم توفر الماء والحطب، كنا نمشي مسافة كيلومترين لجلب الماء من نبع القرية الوحيد في ذلك الجو المتجمد، أقف في الطابور مع النساء وقتاً طويلاً، وفي يوم التحمم نضطر للذهاب عدة مرات لتوفير كمية تكفي لغسل شعري وجسمي بِتقشف.

في ربيع عام 1989 وبعد مفاوضات بين رفاقنا والسلطات الإيرانية جرى نقلنا في ناقلات خاصة إلى معسكر لجوء مغلق "أوردگاه خوي زرعان" شمال أورميه محاط بأسلاك شائكة وأبراج مراقبة،

وهناك حققت معنا فرداً فرداً لجنة من المخابرات الإيرانية "إطلاعات" كانوا يبحثون عن عناصر حزب "تودة" المعارض الذين بقوا جميعاً في معسكرات اللجوء التركية.

في ذلك المعسكر بدأت صفحة جديدة من العذاب.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

نحيا أو نموتْ معاً

شلّني الفزع وصار الوقتُ ثقيلاً حينما أخبرني الطبيب الإيراني بنغمة لغته العذبة الوقع بأنني حامل بينما كانت "عصية كوخ" تمرح في رئتي الهزيلتين.

طلبتُ من لاجئةٍ كردية تجيد اللغة الفارسية الذهاب معي كي تترجم لي، كانت شابة جميلة، مرحة، خفيفة الروح تعرفتُ عليها قبل أيام، رافقتني إلى مستشفى مدينة "أرومية". دخلتْ معي إلى الطبيب الذي عاينَّ التحاليل ليخبرني بلهجة دافئةٍ وقسماتٍ مسالمةٍ ونظراتٍ متعاطفة باسماً:

- مبروك خانم مبروك، أنت حامل وفي الشهر الرابع!

- ماذا؟ مستحيل!

قلتها فوراً بدون تفكير، ثم صحوت من هولِ الصدمةِ وقلت:

- دكتور مستحيل.. مستحيل!

- لماذا مستحيل يا بنتي؟

منشورات «ألف باء AlfYaa»

- أنا مصابة بالسل الرئوي وتحت العلاج!

في طريقِ عودتنا إلى المعسكرِ، حملقتُ بالقرى المتناثرة على طول الطريق ورحتُ أكلم نفسي بصمتٍ في سيارة الأجرة لائمة الله تارة وروحي في أخرى:

- أخ يا ربيّ! ماذا فعلتُ لكي تعاقبني! ماذا؟

- أنا أنثى لم أحترم جسدي! ما الحل يا ربي ما الحل؟

رحتُ أجلد نفسي بالأسئلةِ واللوم متشائمةً من مستقبلي المجهول بصحبة زوجي ورفاقي وجموع اللاجئين الأكراد المحتجزين في معسكرٍ محاطٍ بأسلاكٍ شائكةٍ وأبراج مراقبة مسلحة موزعة تشرف عليه المخابرات الإيرانية، معزولين عن كل ما يمت للحياة المدنية بصلة، كنا نسكن كل عائلتين في غرفتين يفصل بينهما ممر له باب ينفتح على ساحةٍ كبيرةٍ وبناية الحمامات العامة التي كانت تخصص يوماً واحداً للنساء وباقي أيام الأسبوع للرجال، قاعة الحمام كانت فسحةً وحيدةً للحديث مع النساءِ الكرديات اللواتي يسكنَّ في جهة المعسكر الأخرى، كان لديهنَ حرية النزول إلى المدن القريبة.

المأساة والمصير المجهول جعلتْ منا عائلةً واحدةً، كنا نرسل معهن قائمة بما نحتاجه من لوازم الحياة اليومية، أما غسيل أواني الطبخ فقد كنا نقوم بها بحوض

إسمنتي طويل بنيَّ في العراء، تتوزع على جدرانه حنفيات الماء البارد، كنتُ أقف في طابورٍ طويلٍ في أوج برد الشتاء حتى يأتي دوري.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

بعد أيام من مكوثنا في المعسكر جاء دورنا نحن النساء في استخدامِ الحمام، فوجئنا في الباحة الواسعة المليئة بالضباب ببنت كردية تشير نحو كابينة مقفلة تحمل رقم سبعة وتقول:

- الشيطان.. الشيطان!

اقتربتُ من الباب المقفولة بعدة أقفال وقرأت بخطٍ كردي رديء عبارة:

- أبتعد.. هنا يسكن الشيطان!

ويدور لغطٌ يتكرر في كل مرة نأتي فيها للحمام عن الشيطان الكامن خلف الباب فاستفهمنا عن القصة فعلمنا أن امرأة متزوجة قامت بجلب عشيقها بملابس النساء لتضاجعه في تلك الكابينة فانكشف أمرها وَقُتِلَ الاثنان، ومنذ الحادث أقفل على الشيطان البـــاب. يـــا لبـــؤس تلـــك الأيـــام.
كنت أستلقي على فراشنا المبسوط على بلاط الغرفة منهوكة القوى أحملق بسقفها الأسود لكثرة الذباب الذي شاركنا المعيشة والعزلة، أتلمس بطني التي بدأت بالبروز والتكور بأصابعي الناحلة محدثةً الجنين المتحرك في رحمي، خاطري مكسور وقلبي ملتاع من المجهول والاحتمالات، أتوسل دامعةً العينين كي لا يأتي إلى الدنيا بقدمين كسيحتين أو بعين واحدة، أو بملامح ممسوخة، أتكورُ رعباً من هاجس تشوه جنيني، أندبُ حظي وأنحبُ حينما أكون وحيدة، تحولَ الصمتُ إلى حوارٍ أخرس مع النابض في أحشائي، السابح في بحري، ورفيق لحظات خوفي.

ما أثقل وأمرّ تلك الأيام هواجس مخيفة وسعال مستمر ونوم

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

قلق ومستقبل مجهول، صار أملي الوحيد هو خروج جنيني سالماً، صوت الطبيب الإيراني رافقني وهو يردد جملته بثقة تامة رافضاً فكرة الإجهاض:

- حرام خانم حرام.. هذا يعني قتل نّفس.

الإجهاض حرام في الإسلام خانُم حرام.

- ألا ترى أنا سجينة وسَجاني يقف خلف باب غرفتكَ؟

أتوسل:

- خلصني من هذه المحنة خلصني يا دكتور!

- حرام.. حرام خانم.. حرام

ظلتْ تَرِنُ وتدقُ في رأسي ولا أريد أن أصدقها لكن لا كلمة لي ولا قرار، ألقتني أقدار السياسة لاجئةً في ظل حكومة إسلامية تحرم الإجهاض وتجرمه حتى لو جاء الطفل مشوهاً أو معاقاً.

في الحافلةِ التي أقلتنا إلى المعسكر، ظللتُ شاردةً أحملق عبر زجاج النافذة إلى الحقول والجبال والقرى المتناثرة على جانبي الطريق، غير قادرةٍ على الحديث مع الشابة الجالسة جواري والتي ترجمت لي، أتوسلُ بعيني للعسكري الحاضن بندقيته و المتأهب للضغط على زنادها لو حاولت الهرب، أتوسل وأتخيله يعتقني قائلاً:

- أذهبي إلى أين ما شئتِ!

أحسست بالعالم يغلق أمامي ويحبسني في غرفة عارية

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ضيقة، فاللقاء بأبني الذي تركته في الديوانية باتَ مستحيلاً، ولا أدري كيف سأعيش مع رفيق عمري؟ هل سنبقى نأكل في صحنٍ واحد؟ وكيف ستصبح علاقتنا بعد أن يعرف خبر إصابتي بالسلِ؟ ضعتُ بعيداً.. بعيداً في أول المساء والظلام بدأ ينزل على الحقول وبيوت القرى الفقيرة، وأمامي في الأفق بانت بنايات المعسكر المحاط بالأسلاك الشائكة وأضويته الخافتة، صغيرةً ملتصقةً بالأرضِ وكأنها جحور.

استقبلني بوجهه الباسم وتعليقاته الداعرة المثيرة للضحك، لم أستطع مجاراته فوجهي تصخّر ومزاجي سيء كنتُ غير قادرةٍ على الكلام سألني:

- شكو أش بيك حبيبتي؟

لزمتُ الصمت، حاولت أخباره لكن الكلام تحجر في فمي، كنت أخشى ما أخشاه أن يتحول عني عندما يسمع الخبر، فكرة فقدانه أخرستني وهو يكرر لاهثاً ويسأل عما أصابني، نهضت إلى ركن الغرفة ورحت أفرد صحون وملاعق قائلة:

- سأعزل خاف تنصاب!

ردد وعلامات الرعب مرسومة على ملامحه:

- شنو الموضوع فهميني؟

قلت دون أن أنظر إليه:

- سل.. سل.. طلع بيّ سل رئوي!

تهّدجَ صوتي وخرجتْ كلماتي مرتعشة، حاولتُ جاهدة تمالك نفسي حابسةً دموعي، لا أريدهُ أن يراني ضعيفة وأنا التي كان

منشورات «ألف باء AlfYaa»

يناديها يا لبوتي.

حضنَ جسدي المنهك وعانقني قائلاً:

- يا مجنونة.. يا مجنونة.. أأنا أعزل صحني؟

- أرجوك حبيبي أرجوك دعني وشأني أنا مصابة والسل مرض معدي ألا تدرك خطورة الأمر!

ازدادَ عناداً وأمعن في الالتصاق بيَ كأنه يود الدخول في أحشائي، أحسست أننا أصبحنا واحداً لكنني ظللت أردد:

- سأنقل لك المرض، لا أريد أن أفقدك أنت الآخر كما فقدنا أهلنا و ولدنا وكل شيء!

لفني بذراعيه وجذبني إلى صدره بقوة، رفعني عاصراً جسدي الهزيل إلى قامته الطويلة وهمس مردداً بشغف أذاب مقاومتي:

- لا.. يا حبيبتي أريد انصابْ بما أصابكِ حتى نحيا أو نموت معاً

- ماذا تقول يا روحي؟ هل جننت؟

- إي جننت! لا طعم للحياة بدون دفء أنفاسك وطيبة روحك وحنو قلبك يا ملاكي!

- هذا جنون يا حبيبي أرجوك ابتعد عني أرجوك.. أرجوك! أريدك أن تبقى حيا ترعى ولدنا البكر الذي تركناه.

ضمني بشدة ومسح وجهه بوجهي.

- عِش لأجله يا حبيبي!

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

في الأيام التالية صار أكثر شغفاً وجنوناً، عادَ يلتصق بيّ ليل نهار في عاصفة من المشاعر كسحتْ كل شيءٍ، كان عنيدا نشيطاً حولّ الأمر إلى ضحك وسخرية وبهجة حتى غرس زهرته في بستانِ جسدي بالرغم من "عُصية كوخ" التي تنخر رئتيَّ وأَنبتَ في أحشائي كائناً أقض مضاجعنا وأقلق أيامنا!

بالرغم من حياة معسكر الاعتقال القاسية كنا نعيش دفئاً عائلياً بصحبة الرفاق، دفء فيه أمان لا خوف من قصف ولا من تسلل ولا من مندس ولا عميل مزدوج ولا مخاطر الكمائن وظروف الطبيعة الجبلية القاسية، شاركنا رفيق طبيب أسنان وزوجته غرفتين يفصل بينهما مدخل، نعدُ طعام الوجبات المكونة من أرغفة خبزٍ توزع مجانا من فرنٍ قريب، وفاصوليا مسلوقة أو عدس مع بصل اخضر وطماطم نشتريها من سوق خضار أنشأه اللاجئون الأكراد غير المحددة حركتهم ممن مازال لديهم قليل من المال، خضروات يجلبونها من قرى قريبة بموافقة حرس المعسكر.

كان زوجي كثير المزاح ويعمل المقلب تلو المقلب فيجعلني أضحك من غبشة الصباح ضحكاً صاخباً فيأتي رفيقنا متسائلاً عن سبب الضحكِ، يجيبه زوجي، تريد أسولف، يقولها ساخراً فنحن نعرف أنه شديد التحفظ والجدية بينما زوجي داعر يغمز بمقالبه وتعليقاته إلى الجنس وشجونه، يشحب وجهه وينظر إلى زوجته الجميلة بريبة ويقول:

- لا رفيق ما أريد أسمع.. أنت مو راحة!

فننفجر بضحك عاصف من قسماته المرتبكة والمتضرجة

منشورات «ألف باء AlfYaa»

خجلاً.

لم نشغل بالنا بالغد، كنا لا نفكر إلا بحدود توفير ما نحتاجه من ضروريات تجعلنا نعبر نهارنا بسلام.

في اليوم التالي وعند الإفطار جلسنا حول قطعة القماش التي نضع عليها صحون الطعام، كان رفيقي الطبيب مرتبكا يَهز ساقه المضمومة تحت مقعده ويوشك أن يقول شيئاً ما لكنهُ يحجم في اللحظة الأخيرة وينقل نظره المضطرب بين زوجته ووجهي وزوجي متوقفاً عن الهزّ ليعاود بعد أن يشرد بعينيه إلى شباك الغرفة المطلة على صف البيوت المتشابهة إلى أن سألني:

- بهار.. ماذا قال لكِ الطبيب في المستشفى؟

نهضتُ إلى كيسِ الأدوية المركون في إحدى زوايا الغرفة، وأخرجت له علب الأدوية، فتناولها بلهفة وقلق، وما أن قرأ ما مكتوب حتى ارتجفت العلب بين يديه، أعادها لي مبعداً وجهه إلى الخلف قليلا، والتفت إلى زوجته ونظر نحوها مرعوباً، وقال:

- ما أشتهي!

ونهضَ على عجلٍ ليخرج إلى المدخلِ ومن غرفته المقابلة صاح بلهجة آمرة على زوجته:

- تعالي!

نهضتْ مسرعةً، سمعنا بابهم يُغلق، وهمسٌ تَعَالى قليلا.. قليلا، جمدنا في جلستنا أنا وزوجي نحملق بعيون بعضٍ غير قادرين على الكلام، ستظل لحظة تلون وجهه ورعب عينيه حين

منشورات «ألف باء AlfYaa»

أريته الأدوية تطعنني زمناً طويلاً وفي لحظة الكتابة الآن كأنها خناجر.

لم يحتمل حتى انبلاج فجر اليوم التالي، إذ أخبر زوجي ليلتها عن مخاوفه من خطورة مرضي وإمكانية إصابتهم بالعدوى.

في صباح اليوم التالي فتحت درفة الباب الذي يفصلنا عن غرفتهم وصرخة عذاب وألم أطلقتها خافتةً، كان الباب مفتوحاً على مصراعيه والغرفة فارغةً من فراشهم وملابسهم وهذا كل ما كنا نملكه.

حطموا ذكرياتٍ كنت أظنها دفئاً في لحظات الوحشة والخوف من مرضٍ كان قد انقرضَ في بلدي منذ سنوات. وجدت الممر خاليا من أشيائهم، فملأتني الخيبة ومشاعر الخسران مرة اخرى وأنا أكتشف معادن ناسٍ كنتُ أظن بهم رفاق درب طويل وشاق.

سعادة خجولة تخالطها الهواجس من الحياة التي بدأت تدب في الكوكب السابح في سماء الخلق الدفينة المعاند لـ "عصية كوخ" التي وجدت حضنا دافئا في رئتي.

كنت قلقة، ومشاعري اختلطت بين الفرح بجنينٍ سيعوضني قليلا فراق ابني البكر "كفاح" الذي تركته والتحقت بالثوار والخوف من أن يأتي مشوهاً بسبب الأدوية التي أتناولها والمضادات التي عجزتْ عضلة ساقي من تحمّلها!

ما أقسى تلك الأيام سعال مُعذب مضني يهز جسدي هزاً على فتراتٍ متقاربة، يسهرني الليالي وجرح رفيقٍ قريبٍ هببتُ لمساعدته بالرغم من حروق جسدي بغاز الخردل وعماي

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤقت وشدة الألم في قصف مقرنا بالأسلحة الكيماوية يوم 5 حزيران 1987 في وادي "زيوة" خلف العمادية، جاءني مستنجداً كي أساعد زوجته التي تَعَسّرتْ ولادتها لا لكوني الرفيقة الوحيدة بالموقع بل كوني الوحيدة التي يثق بيّ ثقةً مطلقةً ويشعر بالأمان حينما تكون زوجته معي كما يصرح دائماً، طلبَ مني مساعدة الطبيب "أبو تضامن" وهو يحاول إخراج الطفل الذي مات في رحمها.

استسلمت إلى إرادة الطبيب الإيراني ظاهريا وكفرتُ بالقيم التي وقفت أمام رغبتي بالتخلص من الجنين! ثم عصفت بي مشاعر متناقضة بين فرحٍ بالكائن المتحرك في أحشائي وخوفٍ من تشوهه، لكن سراً وفي أعمق أعماقي كنت فخورة بجسدي ورحمي الخصب الذي عاندَ المرض! رحمي الذي كان يسمع صوت روحي وعذاباتها حينما تناجي طفلها البكر الذي تركته بعيداً!

نما وأصبح جنينا أحسُ بحركته النشيطة.

لم يزرني أحدٌ من الرفاق، الكل كان خائفاً من العدوى وكنتُ أتفهم مخاوفهم.

مرت الأيام والأشهر وأنا أنتظر القادم، السابح في بحري الدفين، المعاند. لهفة الانتظار أنستني الألم والمعاناة والهواجس، كنت في الأشهر الأخيرة من الحمل، بين السابع والتاسع حينما حصلنا على تأشيرة دمشق فسافرنا.

مرَّ شهران على وجودنا في دمشق، جاء زوجي من المقهى مبتهجاً وأخبرني بأنه التقى أصدقاء كان قد فارقهم في بيروت

منشورات «ألف باء AlfYaa»

1979 يعملون في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأضاف

- لا تخافي، لن تكوني وحيدة، ستكون "فوزية" زوجة صديقي محيي الأشيقر برفقتك في المشفى.

كان يعمل ما بوسعه لتخفيف شعوري بالوحدة ووحشة لحظات الولادة.

أكملت أيام الحمل كلها ولم تظهر عليّ علامات الطلق وكأن المولود يريد البقاء الأبدي في بحري، انتهت الأربعة عشر يوماً بعد التسعة أشهر، فقلت لزوجي:

- سأذهب إلى المشفى!

- طيب حبيبتي سأتصل بـ "فوزية" إنسانة شفافة وطيبة القلب ستكون برفقتك!

حَضرتُ حقيبة التجهيزات للمولود الجديد بينما نزل ليأتي بتكسي. دخلتُ المشفى الأهلي قلقة من المجهول والغربة القادمة والمستقبل، أقبلت الممرضة الجميلة وبيدها ورقة وقلم وسألتني:

- من أي بلد؟

- عراقية

- ما اسمك؟

- ناهدة

هل تشكين من مرض؟

- مصابة بالسل الرئوي

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

ارتبكت الممرضة وارتجف القلم ساقطا من بين أصابعها، تماسكت معتذرة وعاودت الأسئلة:

- هل تشعرين بآلام الطلق؟

- لا!

كأن الذي في رحمي لا يريد أن أشعر بعذاب الطلق الشبيه بعذاب الاحتضار كما تصفه أمي، لا يريد تكرار الطلق بأبني البكر وولادته المتعسرة.

أعدت الممرضة إبرة تحرض على الطلق وزرقتها بالوريد، وراحت تمسد بيدها الناعمة راسي.

أغمضتُ عينيَ هروباً من ألمٍ متصاعدٍ، من المفاجأة واحتمالات تأثير مرضي عليه، من الغربة، من المجهول، من كل شيء، كل شيء!

صحوتُ على أنفاسٍ وجسد طفلتي السمراء لصقي حاراً ودفء كلمات "فوزية"

- حمداً لله على سلامتك

- شكراً

- وين سلام؟

- في الخارج ينتظر مع صديق له!

- نادي عليه!

دخل باسماً يترنم في مشيته كأنه يَملكْ الكون، ودون أن أنطق بحرفٍ فَهَمَ ما أردتُ، ارتمى على صدري فمنحني دفئاً وأمان.

منشورات «ألف باء AlfYaa»

لم تمر سنة على ميلادها حتى سافرنا إلى موسكو بحثاً عن بلدٍ آمن وكان الدنمارك.

وبدأت رحلة سفرٍ متاعبها مختلفة بين بلدان المنافي!!!

2017-2023
الدنمارك

منشورات «ألف باء AlfYaa»

ناهدة جابر جاسم



كاتبة وناشطة سياسية عراقية، وُلدت في مدينة الديوانية 23-8-1960. انخرطت في النشاط السياسي منذ سن مبكرة. التحقت بصفوف الثوار في كردستان العراق عام 1984. بسبب نشاطها السياسي، اضطرت لمغادرة العراق، وعاشت تجارب قاسية في المنفى. حصلت على دبلوم في الإدارة والاقتصاد عام 1998 من روسكيلده في الدنمارك، وأكملت دراستها العليا في كوبنهاجن عام 2005. عملت كمستشارة ثقافية واجتماعية في منظمة مساعدة اللاجئين الدنماركية لأكثر من عشر سنوات، بالإضافة إلى عملها كمترجمة في منظمة الصليب الأحمر.

تُعتبر **ناهدة جابر جاسم** من الأصوات الأدبية التي تسعى للدفاع عن قضايا المرأة وحقوقها، مسلّطة الضوء على التمييز الذي تتعرض له في المجتمع.

وثّقت الكاتبة في أعمالها فترة زمنية من تاريخ العراق، مسلّطة الضوء على ويلات الحروب ومعاناة الشعب تحت النظام السابق. وموضوعات

منشورات «ألف باء AlfYaa»

تتعلق بالعشق، الحزن، والشجن، مع توظيف مفردات الطبيعة للتعبير عن مشاعرها وتجاربها.

تؤكد **ناهدة جابر جاسم** في كتاباتها على أهمية تحرير الجسد والعقل من القيود المجتمعية، وتعتبر الكتابة فضاءً مفتوحًا للتعبير عن الذات وتحريرها من مختلف أشكال الحجب والاستغلال.

احتفى بها ملتقى **جيكور الثقافي** في ديسمبر 2024 للحديث عن تجربتها الأدبية وروايتها **"العيش على الصراط"**.

الإصدارات الأدبية

1 ـ **العيش على الصراط**، رواية (بيوغرافيا)، 2024 مؤسسة أبجد ـ العراق

2 |ـ **التين الأسمر**، شعر، 2022 اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين ـ بغداد

3 ـ **العاشقة والسكير**، قصص، 2015 دار الأدهم ـ القاهرة

منشورات «ألف باء AlfYaa»